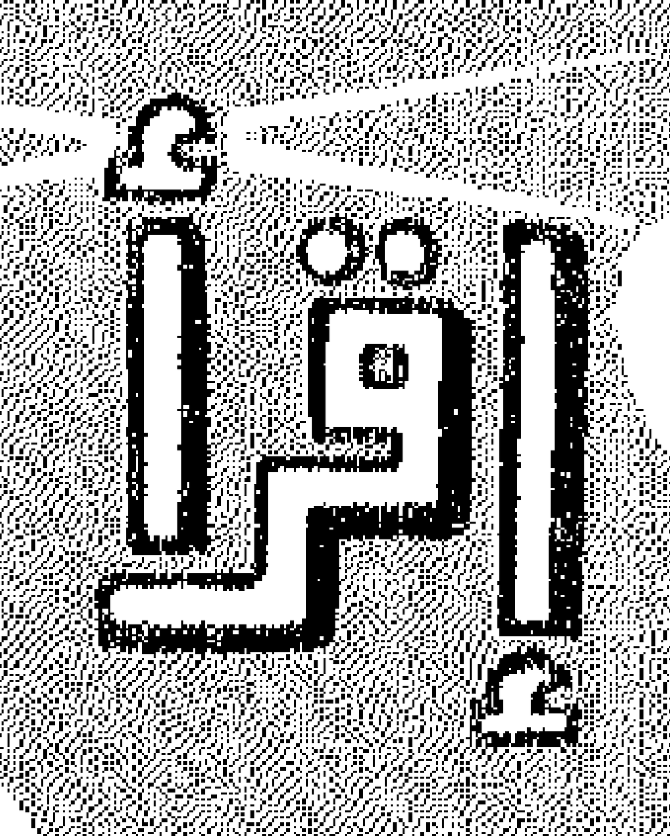


سندباد
في رحلة الحياة

سيد ثابت

الدكتور حسين فوزي

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز

١٠ مـ

الدكتور حسين فوزي

سندباد
في رحلة الحياة

اقرأ ٣٠٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٦ – يونية – سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

فى ضباب الذكريات البعيدة

لم أكن بلغت السادسة من العمر ، أو ربما الخامسة ، عندما وعدنى والدى بالتوجه سوياً لمشاهدة أهرام الجيزة وأبى الهول . بيد أنى أذكر ذلك اليوم أكثر مما أستعيد وقائع أهم وأقرب إلى الحاضر فى حساب السنين . ولا يمكننى مع هذا التوكيد بأن الأهرام وأبا الهول وحدها مسئولة عن اغتباطى بالرحلة من وسط القاهرة المعزية — كنا نسكن حينئذ أمام مسجد سيدى الشعرانى ، ونسميه الشعراوى — حتى أطراف العمران ، على حافة الصحراء ، ربما كان مبعث سرورى هو ترقب نزهة خلوية ، كانت تعد سفراً طويلا بالنسبة لى . وكنت مثل كل أطفال ذلك الزمان أحب ركوب الترام أكثر من عربات الخيل ، والأتوبوس أكثر من الترام . أما القطار فكان يمثل لمخيلتى متعة العمر وأنا أراه ينفث دخانه ويزفر ويصفر ويزمجر : توت توت ، تشلك ، تشلك ، تشلك ، تف ، تف ، تو . . و . : ت !

جاء اليوم الموعود ، يوم جمعة ، فصحوت من النجمة والجميع نيام . وأنا أحس فى تلك السن الباكرة أننا أسرة عنيدة ، أفراداً وجماعة . فما إن رأيت الشمس ترتفع فى كبد السماء والأسرة ما زالت نائمة حتى خشيت أن تسوق « العند » وتعطل رحلتى المرتقبة . وبعد صحيان الجميع ، ظل الوالد نائماً وليس من يجسر على إيقاظه ، ممن لهم عليه بعض السلطان .

وبعد الساعة الحادية عشرة سحبنى والدى من يدى وخرجنا . . أخيراً . . لنقف عند الحلاق ! ماذا تصنع إرادة طفل ؟ ماذا لو انسقت لعنادى وركبت رأسى ، وطالبت بالعودة إلى المنزل لأمارس ألعابى

الكثيرة ؟ لأننى أعرف دكان ذلك الحلاق أمام محطة ترام الخليج المصرى المسماة « خميس العدس » ونسميها « خميس عتس » . لم تك أول مرة يصحبنى إليها والدى ، وأعرف أن الوقت يضيع هناك بين مرآتين كبيرتين متواجهتين ، تعكس كل منها الأخرى فيتحول الحانوت الذى يشبه شق الثعبان . . إلى نوع من بهو المرايا الذى فى فرساى . صاحب الصالون يونانى ، وزبائنه خليط من المصريين واليونان والطليان والأرمن ، وكل من يجود به درب الجنينة ودرب البرابرة من جاليات أجنبية .. محترمة، وليت الأمر يقتصر على حلاقة ذقن أو تصليح شعر — هذا إلى أن صاحبنا الرومى كان على نقيض حلاق اندرسن فى إحدى قصصه الذى أثر عنه أنه « يحلق للأرنب فى عدوه » — فقد عرفت بالتجربة أن ضروباً من المناقشة تنشب ولا تنتهى بين الأسطوات والزبائن ، حول أمور لم أفقه منها شيئاً ولا يعنيني أن أدرك منها فتيلا .

وربما كان هذا هو السبب الذى طبع فى ذاكرتى بعض الصور التى تزين الحانوت بأعلى المرايا ، وهى صور لم أفهم قصتها إلا بعد ذلك بسنوات غير قليلة . صورة تمثل سيدة تلبس ملابس قومية — يونانية كما عرفت فيما بعد — تجلس ساهمة تعتمد رأسها بيدها ، بين أطلال أبنية ذات عمد سامقة متناسقة تشمخ بتيجانها فوق ربوة — البارتينون فوق الأكروبول كما عرفت فيما بعد — وإلى جانب من الصورة جندى من جنود الأفزون لابسى الفستان القصير . وأحسب الآن أن الصورة من آثار حرب تحرير اليونان فى النصف الأول من القرن الماضى ، وما تلا الاستقلال من استنهاض الهمم لاستعادة مجد الإغريق الأول بناة الحضارة .

والصورة الثانية تمثل محارباً يلبس الخوذة اليونانية القديمة ذات العذبة الحمراء ، ويركب عربة حرب ذات عجلتين ، يقف فيها ويسوق جوادين ركضا ، وتجر العربة وراءها ، وتتجرجر فى التراب ، رجلا عارياً ،

ميتاً ، ربطت رجلاه بمؤخرة العربة ، وانطرح جسده فوق الغبراء . .
إنه منظر النشيد الثانى والعشرين من الإلياذة ، يصف فيه الشاعر اليونانى الأكبر بطل ملحمته أخيليس ، وقد انتقم لمقتل خدنه الحبيب فطروكليس بسيف هطكور بن فريام ملك طروادة . فقتل هكطور وراح يمرغ جثمانه فى الرغام ، وهو يدور بعجلته حول أسوار « اليون » الحصينة .

« وعندما بلغت الأسوار ، حيث احتشد الرجال ، ارتقت اندروماك أحد الأبراج ، وألقت ببصرها تتبين ما يجرى فوق الساحة ورأتهم يسحبون زوجها هكطور على مرأى من المدينة — كانت الخيل الجياد تسحبه فى خبب يسير ، نحو مرسى سفن الإغريق من آل اخايا » — الإلياذة : من النشيد الثانى والعشرين .

والمنظر الثالث يصور وداع هكطور لزوجته أندروماك (فى النشيد السادس) قبل أن يخرج للقتال ، فلا يعود . فالوصيفة تحمل الطفل اسكامندر ، ويسميه الجميع «استياناكس» ، وينفر الطفل من مرآى أبيه بخوذته ودرعه وسلاحه . وربما كان هذا الموقف ، وموقف فريام يجثو أمام أخيليس فى خيمته ، يستعطفه ، ويرجوه أن يسلم رفات ابنه هكطور ، هما أروع ما فى الإلياذة ، على كثرة ما تحتويه من روائع .

كانت تسليتى الوحيدة إذن ، وأنا أحرق الأرم غيظاً وتشوقاً لرؤية أهرام أجدادى ، أن أجول ببصرى لأشاهد آثار أجداد الحلاق اليونانى . . ولكنى بطبيعة الحال لم أك أعرف فى ذلك الزمان أن تلك الصور تمثل أمجاد أسلافه ، ولا أننى أحج فى ذلك اليوم البعيد لأول مرة ، إلى مقابر أسلافى . . أو على الأقل ملوك أسلافى. فلا شك أن البون بين خوفو وخفرع ومنقرع وبينى هو البون بين الحلاق اليونانى بقنطرة « خميس عدس » وأخيليس وأجا ممنون و إياس بن تلامون وديوميدس وأوديسيوس ابن لايرت.

وسحبنى والدى من دكان الحلاق . . أخيراً . . إلى مطعم ! وكان

فى ذلك بعض الصبر والعزاء ، فأنا من الطفولة الأولى أفضل الأكل السوق على الطعام البيتى ، ويشاركنى فى ذلك الصديق رائد القصة المرحوم طاهر لاشين . عندما كان يعقد المقارنة بين كنافة البيوت ، وهى تخر ساجدة من السمن والسكر المعقود والمسجوق . . وبين كنافة الكنفانى تذوب خفة ! . . ولا أنسى يوم وصف لى فلافل البيوت وكأنها حجر الرحى ، لا فى منظرها فحسب بل فى رسخانها على القلب . أو عندما كان يسمى « لقمة القاضى » البيتى ، « طقة القاضى » ويزعم بأن واحدة منها تشبع محكمة بحالها .

وبعد العصر ، بدأنا رحلتنا الطويلة بين العتبة الخضراء والأهرام ، على خطين أحدهما كان واحداً من أول خطوط الأتوبوس فى تاريخ القاهرة ، نقلنا من العتبة الخضراء وفوق كوبرى قصر النيل القديم ، حتى بلغنا كوبرياً خشبياً ، سمعت اسمه العجيب لأول مرة : الكوبرى الأعمى (أى كوبرى البحر الأعمى ، وهو كوبرى الجلاء حالا) وكان بر الجيزة فى ذلك الزمان هيشاً وقصباً يشبه الحرج الاستوائى ، والترام أخضر اللون ، ويسير حتى الأهرام على قضبان مفتوحة ، أى كقضبان السكك الحديدية . ويخترق شارع الهرم فى وسطه تماماً ، وعلى جانبى الطريق أشجار باسقة وارفة الظلال ، وراءها المزارع المترامية الأطراف ، إلا وقت الفيضان حين يمتلئ حوض كرداسة بالماء ، ويسير الترام الأخضر على جسر فوق بحيرة واسعة الأرجاء .

وكلما اقتربنا من الأهرام كبر جرمها وقد بدت فى مخيلتى أولا فى حجم صورتها على طابع البريد . ثم شبت عن الطوق قليلا عندما بدأت أراها من بر الجيزة ، ثم اكتشفت وأنا أقترب منها أنها ليست مسمطة ملساء ، كما تبدو فى صورة طابع البريد ، بل هى صخور بعضها فوق بعض طبقات . وعندوصولنا كنا فى « صفار شمس » فلم يبق لنا إلا أن

ندور حولها وبينها . وحتى معبد أبى الهول لم ندخله لأن « العرب » كما كنا نسمى أهل المنطقة ، اختلفوا فيما بينهم عمن يفتح باب المعبد ويصطحبنا ، ورأى الوالد أن نعدل عن زيارة المعبد فى سبيل إعادة الوفاق إلى الصف العربى ، وربما خوفاً من أن تنتهى خناقتهم على حسابنا .

ولم أعد لزيارة الأهرام إلا بعد دخولى المدرسة الابتدائية ، حيث علمونا أن أول ملوك مصر كان اسمه مينا أو مصرايم ، وأنه غير مجرى النيل . . وأن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار . وهو أسخف بيت عرفته طول حياتى لأن عجزه نوع من الزائدة الدودية .

ومنذ ذلك اليوم البعيد جداً ، وأنا أحمل فى ذكرياتى ، وأحتفظ فى ركن من قلبى بحب عميق لحضارة مصر الأولى ، وحضارة يونان القديمة . وعندما وقفت ذات يوم بمعبد « آفيا » على أكروبول جزيرة إيجينا وتطلعت من فوق البحر الأزرق إلى معبد البارتينون فوق أكروبول أثينا ، رجعت بصرى عبر البحر الواسع : بحر الروم ، واستحضرت فى ذهنى صورة الأهرام وأبى الهول الرابض فوق ربوة الجيزة ، أروع ما يكون بياناً فى صمته الألفى .

رفقاً أنجشه

كان خطر هواية الفنون علينا يتفاوت عند أهلنا : فالشعر لوثة مقبولة ، لقربه من الكتابة والمحفوظات . والرسم تسلية بريئة كلعب الكرة . والتصوير بالألوان المائية ، وداهية التصوير بالزيت ، ذات تكاليف وأعباء لا يبتسم الأهل لها . ونقترب من منطقة الخطر عندما نهوى التمثيل — برغم صلته بالكتابة والمحفوظات . ولكن الطامة الكبرى كانت غواية الموسيقى .

وقد تنقلت فى صغرى من اللعب الميكانيكية « والعجلة » الثلاثية

إلى الكورة ، والتصوير الفوتوغرافى — كاميرا براونى بثلاثين قرشاً — والعرض السينمائى : لا أراك الله ذلك الصندوق الصفيح الأسود يضاء بمسرجة بترول ، وله فيلم واحد لا ثانى له ، يدور على نفسه كقواديس الساقية ، ويعرض « قصة » طفل جلس على حافة جدول يصيد السمك بسنارته ، فى حركة دائمة ، يلقى السنارة ، يرفع السنارة ، يلقى السنارة ، وهكذا « آد پرپتيوام » .

وابتسم الوالد لمحاولتى الرسم بالحبر الشينى أو الفحم الكونتيه ، أو بالألوان المائية . حتى إذا ما حم القضاء ، وطالبته بثمانين قرشاً ثمن أول كمنجة لى بقوسها ، دخل فى دور الحمرأة — أقصد الحمرقة : مش ناقصنا إلا ده ، عاوز تطلع آلاتى تدور مع السكارى والمساطيل .

طيب السكارى وعرفناهم ، أما المساطيل فقد ساءلت نفسى من يكونون ، ولم أجسر على الاستفهام ، واكتفيت بالظن أنهم نوع أضل سبيلا من السكارى ، وإن كانوا أرفع مكاناً ، لا سيما وأن اسمهم فيه تنغم فخم كأساطين وأساطيل .

وبرغم ذلك كان الوالد أوسع ذهناً من طالب بالمعلمين المتوسطة كان يدرس خصوصياً لشقيقين من زملائنا ، فعز على حماسه وتفانيه فى مهنته أن يبعزق جهده على زولين ، وحشد فصلا كاملا من فريق الكورة الذى يلعب مع الشقيقين فى حوارى البغالة . وشاء لى سوء الطالع أن أكون ضمن الفريق ، فحاولت التملص ادعاء بأنى على الهامش ، احتياطى فحسب . ولكن الأستاذ الطالب بالمعلمين المتوسطة لم يكن ممن يأخذون بالظروف المخففة ، ويكره أن « يحوى » عليه التلاميذ . وكانت دروسه نصفها علم « كل شن كان » ، والنصف الآخر خطب رنانة فى الحث على الفضائل ، والتمسك بالفرائض . وكان أيسر على نفوسنا منها أن يقضيها فى تقريعنا المباشر ، وتوقيع عقوبات تفنن فى تصورها وإخراجها تفنن السينمائيين .

علم ذات يوم أننى أرسم بالفحم فما كان منه إلا أن حضر إلى منزلنا ، قاطعاً المشوار من البغالة إلى فم الخليج على رأس وفد من الفصل البارد المرتجل الذى حشده بالزور وهواية التدريس ، ليرى نموذجاً من رسوماتى . وكنت قد شرعت فى نقل صورة للملك لويس الرابع عشر ، وانتهيت من بروكته الجعداء ، وشاربه المفتول ، والحذاء ذى التوكة ، وطرف السروال ذى الفيونكة . فطرت من الفرح ، وطلعت أدب ، ونزلت أدب ، ومعى فرخ « الجرامون » الكبير بطيته الأسطوانية ، سلمته للمدرس المتحمس . وحولنا الزملاء يبتسمون زهواً ، ويعجبون مقدماً بنبوغ واحد منهم على الأقل . وبدأ المدرس يفرد طية الفرخ متأنياً ، وعلى وجهه ابتسامة عذبة ، حسب حكمى الساذج ، وصفراء تبعاً لما تعلمت فيما تلا من الزمان ، بل شيطانية بعدما رأيت أشباهها على المسرح الغنائى تزين وجه إبليس المدعو مفيستوفيليس .

سألنى : أنت يا فوزى صحيح اللى رسمت ده . وأجبت فى تواضع . . ومسكنة زائفة أيوه يا فندى !

ـ عفارم ، عفارم ! وفى سادية واضحة حسبما علمتنى السنون ، أخذ يمزق الفرخ بالطول ، ثم ضم نصفيه ليمزقهما سوياً بالعرض ، توفيراً للجهد والوقت .

الواضح لى الآن أن أهلنا عموماً كانوا يعتبرون هوايتنا لبعض الفنون أمراً ذا خطر . لا بأس من أن يلعب أولادهم الكورة ويركبوا حتى الموتوسكل ، ويذهبوا إلى السينما والسيرك . أما أن يغووا الموسيقى ـ أبشع الهوايات عندهم ـ . فكان ذلك يشكل على النبى حارسهم خطراً داهماً ، من قبيل الخطر الذى يتهددهم عندما يحتجز الجيران رفيقات ألعابنا وراء الحجاب والنقاب ، فتتحول وسيلة التخاطب بيننا إلى نوع من التلغراف الهوائى عن طريق النوافذ ، من خلف الشراعات المواربة .

إحساس صادق من الكبار بأن الفن شىء ملء القلب والروح . . مثل الحب والهيام .

أية سعادة تفعم نفسى وأنا أرى أطفال اليوم وغلمانه يمارسون هواياتهم كلها بإشراف أساتذتهم وتشجيع أولياء أمورهم . . وأمورنا .. وهذا برغم الخطيب المفوه الذى لعننى على السبحة يوم جمعة من جمعات ١٩٥٦ عندما أهبت بإنشاء مدرسة للباليه ، وبصرف النظر عما حدث فى ثلاثينات القرن عندما شرد وزير للتقاليد — كيف فاتهم حينذاك أن ينشئوا وزارة للتقاليد ، لا أدرى — رهطاً فاضلا من أساتذة معهد فن التمثيل وطلبته وطالباته . . صيانة للأخلاق ، وصدوعاً بالأوامر والنواهى ، ونأياً بهم عن مصارع الشهوات .

ولقد وقفت فى الصيف الماضى على شاطئ البحر فى بلطيم أتأمل متحفاً رملياً أقامه تلميذ على حافة البحر من الرمال المبللة ، وأحاطه بسياج من الليف . كان متحفاً يمثل عقلية العصر أكمل تمثيل : لم يكتف الفتى بتمثال فتاة مستلقية على الرمال وصياد أم الخلول ، بل صور مفارقات عصره فى تمثال للجمل ، سفينة الصحراء ، إلى جانب الطيارة النفاثة . وتمثال للمركب الشراعى ، فى مواجهة عابرات المحيط ، والطرادات . وقد عجزت عن فهم تمثال منها ، فابتسم الفتى ابتسامة الأستاذ أمام تلميذه الخائب ، وتنازل يقول معاتباً : هذا صاروخ جاجارين !

سلمت على الفتى الفنان ، وقد هنأته بكلمة « عال » واستأنفت مسارى ، وإذا كلمة « عفارم » تصعد من أعماق الذكرى على نغمة زيق .. زيق من الديوان الكبير تضيئها ابتسامة صفراء ، وتصطحبها ضحكة سادية . وقد نسيت ، أو تناسيت خجلا ، أن أحدثك بالصفعة المدوية التى نزلت على خدى من ذلك الأستاذ المحترم ، علمت منها أن « طق الشرار » من العين ليس صيغة من صيغ البلاغة ، عقاباً لى على هواية

الرسم ، وإن كان عقاب لويس الرابع عشر حينذاك أقسى على نفسى ، وربما على لويس أربعة عشر نفسه ، لأن ما حاق به كان أشد مما نزل بحفيده لويس السادس عشر فى ميدان الثورة . لقد أعدمه المدرس الخصوصى على طريقة المماليك ، وهى التوسيط ، ثم قسمه أربعا وكأنه ينوى أن يوزع أشلاءه على أربعة مفارق .

أثارت هذه الذكريات إجابة صغيرة بليغة ، مخيفة ، طالعتها منذ أيام ، صدرت عن مراهق يمارس هواية فنية ويبرع فيها :

ـ هل تؤثر هوايتك على متابعة دروسك ؟

ـ بعكس ما تظن ، فهى تحضنى على مذاكرة دروسى ، لأبلغ هدفى الفنى على أساس متين من الثقافة العامة .

ـ وما موقف والدك من هوايتك ؟

ـ كان يحاربها فى بداية الأمر ، ولما أخذت هوايتى تجرى على أجراً ، بدأ يشجعنى ، وتطور إلى أن أصبح يؤنبنى إذا أهملت هوايتى بعض الوقت .

آه لو كان الفقر رجلا ! فلست مستعداً أن ألوم هذا الوالد . ماذا يكون غرضه من إرسال ابنه إلى المدرسة إلا أن يهيئ له وسيلة لكسب عيشه . فإذا تحقق له ذلك أيام التلمذة ، أى بأس من ذلك ؟

وأهلنا لم يكونوا أثرياء . . وكانت هواياتنا تكلفهم مالا . وأخشى أن أقول فأظلم الجيل الحاضر : كان أهلنا يخافون علينا من بعض الهوايات . أما إذا بلغ أمرها أن نكسب من ورائها مالا ، فقل يا رحمن يا رحيم . كان ذلك ضعة ما بعدها ضعة ، وهواناً يفوق كل هوان . كانت مبالغة فى الحالين ، ومغالاة من الجيلين ولكن . . رفقاً انجشة بالقوارير !

غرام فى السيرك

هذه قصة من صنع الخيال إن شئت أو هى من ذكريات الطفولة وما بعدها قبل المراهقة . فأين الحقيقة من الخيال، ومن يضمن لى ولك أن تكون من قبيل هذا أو تلك ؟ فلنوجه عنايتنا إلى صياغتها كأقرب ما تكون إلى الواقعية ، ولعل الشعر فيها ينأى بها إلى أبعد من الحقيقة .

بدأت وقائعها فى السيرك الوطنى تعلق الحاج سليمان ، يجيئنا كل عام فى مولد السيدة زينب ، وينصب عمده وصقالاته وخيامه فى باحة من باحات الحى .

وكان ارتيادنا للسيرك ، نحن تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية بشارع مراسينة يغير من رتابة ملاهينا تغييراً جذرياً . فما كان أقلها فى ذلك الزمان البعيد . أهمها السينما فى مطالعها البدائية بالقاهرة، ثم لعب الطرّة والكرة . إلا حينما تمتد ملاهى المولد على طول شارع السد البرانى ، فيتحول الشارع — وكان يتوسطه مقام سيدى البدى ، قبل أن ينتقل إلى مكانه الحالى عند أول شارع مدرسة الطب — يتحول الشارع إلى استعراض الفولكلور المصرى بأنواعه ! خيال الظل والقرة جوز، وملاعبي الحيوانات العجيبة : النص سمكة والنص بنى آدم (سمكة قشر بياض عظيمة تتكلم لدى خروجها من الماء . . عن طريق بطن صاحبها الفنتريلوكي) ومصارعة (بالسين فى لغتهم) حيوان (كانجرو) يصفه الملاعب بأن له ذيل تمساح ، وجسم أسد ، ورأس حمار ، والشيخ عبد الله ، وصل من بلاد الهند والسند رأساً بلا جسد ، يتكلم بلسان عربى فصيح ، يشرح حاله ، وما يأكل وما يشرب . فيسأله الملاعب كيف تنصرف فضلات طعامه وشرابه ؟. « يطلع على وجهى عرق » (بالقاف الساكنة) . وكل هذا ليس من الفولكلور ، وإنما كان هناك المداح

والراوى والشاعر بالربابة والأدباتى والحاوى ، وجماعة المحبظين والمغذلكين ، ممن يجمعهم الجبرتى فى « طائفة الحردة » .

كنا نرتاد تلك الألاعيب لماماً ، أما السيرك فكان لازمتنا ليلة الجمعة من كل أسبوع ، نشاهد الخاجة مريم تمشى على الحبل بالزانة ، والأسطوات على وفايق إخوان يرقصون على الحبل والسلك بدون زانة والبلياتشو عثمان بطرطوره الأبيض ووجهه أبى دقيق ، والعفريتة المشغولة بالورد الجورى . . يقع من على الحبل ، أو السلك ، ويفترش البساط الأحمدى كالزكيبة ثم ينهض ويؤدى حركة الإعجاب الذاتى بيديه وذراعيه ، كما يفعل عادة رجال السيرك ، ويضيف إلى ذلك قوله « براوة عليّه » ، وآكل النار ، والخواجة ماركو لاعب العقلة الأرضية ، وعاكف البهلوان ، وزنوبة بهاوانة العقلة الطائرة . والفارسة جليلة تركب الحصان واقفة على ظهره وهو يدور حول الحلبة ، تطير فى الهواء وتتشقلب وكأنها فوق أرض منبسطة . وأخيراً الفصل المضحك بطله «الجن نار» «الجنرال» وقد نسيت أنواع المقالب التى كانت تنصب له ، وغير ذلك من طرائف تبهرنا تحت أضواء كلوبات الجاز ذات الرتينة والوش ، وعلى صوت موسيقى نحاسية تعتلى منصة خاصة . كم كان سنى حينذاك ؟ لا أذكر بالضبط لأننى لا أعرف متى عشقت فتاة السيرك . هل كنت فى السنة الثانية الابتدائية أم الثالثة . وعلى الحالين لا يمكن أن أكون جاوزت الثانية عشرة فالمؤكد أننى انتقلت إلى المرحلة الثانوية فى الثالثة عشرة من عمرى .

أقول عشقت بكل بساطة ، مثلما أقول لعبت الكرة البلدية المسماة « قره وسنو وكحكو إلخ » مع أن الأمر كان أعمق من هذا بكثير ، كان هياماً ووجداً ، بحق وحقيق .

موضوعه لاعبة السيرك الإيطالية أماليا من أسرة فانوتشى الأب والأم والابن والأخت الكبرى ليزافانوتشى . ولا حاجة لنا بوصف ألعاب

آل فانوتشي ، أو جمال ليزا وقد اكتملت أنوثتها وكان وجهها حقيقاً بأن يقول للقمر . . إلخ .

أماليا كانت فى سنى ، وربما أكبر قليلا، كوكباً درياً بعيد المنال على غلام فى سنى وحتى على من هم أكبر من سنى .

ويمكن أن تنهى القصة هنا بحب دون أمل ، وننصرف إلى وصف آلام النوى والبعاد والجوى والسهاد ، وترقب يوم الخميس كأنه يوم الميعاد .

كان الصبي من خشب الأشراق، سريع الاحتراق، راح يسلك طريق المستحيل للتقرب من الحبيبة ، والمستحيل فيما رأى لا يحققه إلا السحر ، والتماس المعونة . . . من ميمونة ، وخادمها دهنش . وصنعة السحر مرصودة فى كتب صفراء ، تباع عند الكتبية بالحلوجى . فاقتنى منها كتاباً أو كتابين من مؤلفات أبى معشر . طالعها من أولها إلى آخرها دون أن يبلغ بغيته أنى له بقلب هدهد يتيم أو ديك أسود لا غباشة فيه ، وما هو حجر دم الأخوين يبخر به مع عين العفريت . وكيف يجسر على ولوج قبر مفتوح يحمل منه عظمة ميت ويخرج من القبر بخطى القهقرى ، حين يواجه عفريت الميت إذا تصادف وطلع له ؟ وإذا تمكن — فرضاً — من دفن بيضة بين أربعة مفارق ، بعد أن يعزم عليها وينقش التعاويذ فوق قشرتها .. بدم غزال، فكيف يحفر عليها بعد أربعين يوماً، ويحملها إلى مكان خرب ، ثم يفتحها ومعه سكين حاد يذبح به الكتكوت الفصيح قبل أن يصيح ،، وإلا فالغلام هالك لا محالة إذا هبشه كتكوت الجن .

هذا وكثير غيره طالعه فى كتب السحر والشبشبة تحت أبواب المحبة والقبول وانتهى إلى الوسيلة الوحيدة الميسرة :

كانت وصفة لا تكلف إلا جهداً — قراءة سورة الجن على وريقات عادية (وليست من الكاغد) يخط على كل منها حرفاً من حروف الهجاء حتى تكتمل الأبجدية ، وينقش على كل ورقة اسمه واسم أمه واسم



المحبوبة والسيدة والدتها ، وبما أنه لا يعرف اسم المحترمة فقد اكتفى بكتابة أماليا بنت فانوتشي معتمداً على أن الجن لن يفرق بين اسم الذكر والأنثى فى تلك اللغات الأجنبية .

ويكتب تعويذات بلغة غير مفهومة لعلها السريانية يجىء فيها اسم شمهورش بن مقارش والغالب أنه سلطان الجن .

وتصور أن يقرأ الصبى سورة « قل أوحى » كاملة بعدد حروف الهجاء ومع أنه كان قد نسى الكثير مما حفظه عن ظهر قلب من كلام الله ، بكتاب سليمان جاويش ، الكائن فى أول الخرنفش ، فقد استعادت ذاكرته السورة بعد تلاوتين أو ثلاث ، وواصل تسميعها تسعا وعشرين مرة ، حتى جف حلقه ، وكاد يسقط إعياء إلا أن أدركته رحمة ربه .

والوصفة تقول بحرق الأوراق كلها ، مع ترديد تعاويذ . . سريانية ، وحمل الرماد إلى . . .أعتاب المحبوبة . ويكفى أن تخطو فوق الرماد ، حتى يجمع الله الشتيتين بعد ما .

ذهب إلى بيت آل فانوتشى ،فإذا غلمان الجيران يلعبون فى باحة قائمة أمام منزل أماليا ، والبيت المجاور . لم يجرأ على أن يذر الرماد أمامهم ، فهى حركة غير معتادة أن يفرش الإنسان عتبة عريضة برماد ورق محروق . وراح يتحكك بهم ويشاركهم ألعابهم وكان بطلا من أبطال لعبة العصفورة.

ولا يبتئسن القارئ إن جهل أمر هذه اللعبة المشهورة ، لأن معرفته أو جهله بها لن يغير من مشيئة القدر .

تناول المضرب الخشبى وأطار العصفورة لفريقه ، حتى كادوا يبلغون بها سيدى الطيبى فى اتجاه الجنوب الغربى ، وأطار الفريق الآخر العصفورة حتى أعادها إلى قواعدها ، ثم دفع بها الصبى فى اتجاه الشمال الشرقى حتى كاد فريقه يبلغ بها سيدى الحبيبى . ولم تكن الطرقات فى تلك الأزمان الغابرة تعرف سوى عربات الأجرة والكارو وحمير السوق فى الليل

بعد توقف عربات سوارس والترام . أما السيارة فكانت كالكبريت الأحمر ، لا يركبها سوى البرنسات وطالعاً . والبرنسات لم يسمعوا طول حياة أسرتهم ، حتى انصرام حبلها ، بالأسياد السد البرانى والطيبى والحبيبى فلم يكن من المنتظر أن تعبر سياراتهم بالحى العتيد .

كسب فريقى ، واعترف الفريقان لى بالسبق . . كل هذا وقبضة يدى اليسرى منضمة على رماد التسعة والعشرين عفريتاً الموكلين بقوادة المحبوبة حتى تجيئنى منقادة تجرجر أذيالها . .

وانصرف الغلمان ، وشرعت فى ذز الهباب ، فوق أعتاب الأحباب . . فرفض أن يذر ، وقد تحول من طول الحبس إلى . . قرص صغير من الجلة. فركته ما استطعت ، يساورنى الشك فى احتفاظ الشبشبة بقوتها الذرية . توقعت أن الجن سوف يتكعبل وهو منطلق من لبخة الرماد بأقدامه المشقوقة كحوافر الماعز . وربما لصقت بالرماد الندى كما يلصق الذباب بأوراق الصمغ التى كانت تستعمل فى أيامنا بدل الفلاى توكس .

تلبثت مع غلامين من أهل البيت المجاور لمسكن أماليا فانوتشى ، وقد أطلت علينا سيدات الأسرة يستغيبن الصغيرين فأشار الأكبر وكان فى مثل سنى ، إلى الصاحب الجديد ، وأمرت كبيرتهن أن يصعدا ومعهما الغلام الذى كان أنا . وكعادة السيدات أخذن يسألن عن اسمى واسم أبى وصنعته وأين أسكن وبأى مدرسة أتعلم . واصطفتنى الأسرة ، وغالبيتها سيدات وبنات كابن من أبنائها .

وكانت الأسرة ، تبعاً لسماحة الطبع المصرى ، قد اصطفت أسرة فانوتشى تجىء كل مولد ، وتقطن المنزل المجاور ، فكانت أماليا واحدة من بناتها . وأصبح سطوح البيت ملتقانا نحن الصبية والبنات ، فى التبات والنبات . . كما يعلم العارفون بالأمور .

وجاء لقاء الغلام بضبية السيرك سابقاً على النظرة والابتسامة والسلام ،

كما جاءت القبلات فى وضعها الصحيح من عالم البراءة والطهر .

وأصيب الصبى ليلتها بحمى ، أشبه بدور الملاريا ، فلم ينم إلا قرب الفجر غير مصدق لما جرى فوق السطوح بينه وبين تلك التى كان يراها أمسية كل خميس بالمايوه الأبيض ، والبلوزة المرصعة بالكلفة ، والشعر الفاحم مجموعاً فى « بندور » وخصلات لولبية . وكلوبات الرتينة تنشر أضواءها الفضية على الأذرعة الطويلة البضة ، والجيد الجميل ، والوجه الأقمر .

والموسيقى النحاسية تعزف لحناً على إيقاع عرفته فيما بعد باسم إيقاع الفالس ثم تسكت فجأة عندما تتأهب ليزافانوتشى للقفز على اللوحة المقامة مثل قب الميزان على كرسى هرمى الشكل فى وسطها (والأصح أنه على صورة منشور هندسى) وهنا ينقر ضارب الطبل العسكرى الصغير نقرات سريعة تثير التأهب فى رهبة ، لطيران أماليا فى الهواء ، عندما تهبط أختها ليزا على طرف اللوحة المرفوع . وتدور أمامنا فى الهواء سشقلباظاً واحداً لتنزل واقفة على كتفى أخيها ، المشعلق فوق كاهل السنيور فانوتشى . وفى المرة الثانية تتشقلب أماليا فى الهواء دورتين ، لتنتهى واقفة على كتفى الأب وحده ..

وتنطلق الموسيقى بلحن المارش الحماسى يغطيه تصفيق المئات الجالسين على ألواح خشبية باستدارة الصيوان ، فيما يعرف بأعلى التياترو . وقد يفزع غلام من نومه فيسقط من مقعده إلى الخلف أو الأمام ، وتصفيق البكوات والسيدات فى اللوج المواجه للوج الموسيقى ، وغلمان المدارس بالدرجة الأولى حول الحلبة (بقرشين صاغ)

وبعد نمرة آل فانوتشى ، كانت أماليا وليزا تدوران حول الحلبة ، وتصعدان إلى اللوج لتبيعا صور الأسرة مجتمعة ، بملابس البهلوانات ، وصورة الأختين ، تستند كل منهما إلى الأخرى فى تكوين فنى .

وهذه هى الصورة التى لم يحتفظ بها الغلام العاشق طويلا ، لأن الشيخ ش ضبطها فى كراسة التطبيق ، أو كتاب « الفوائد الفكرية » ، فاستولى

عليها، وأخرجنى لأقف ووجهى إلى الحائط .. بين خريطتى آسيا وإفريقيا.

واستمرت العلاقة طوال بقاء السيرك الوطنى فى الحى ، حباً عفيفاً بين التلميذ الصغير وصبية السيرك ، وتواعدا على اللقاء فى المولد المقبل ، إن شاء الله .

وانتقل الغلام إلى الفرقة الأعلى ، فى أول القائمة، وحل موعد المولد، وعادت أسرة فانوتشى مع السيرك كالعادة . وهنا خبر الصبى حقيقة من حقائق الحياة والفسيولوجيا ، لم يفسرها إلا بعد سنوات من تلك الوقائع ، وهى أن الفتاة تنمو مبكرة عن الصبى . فقد عادت أماليا إلى جيرانها شخصية جديدة نامية ، و « رسب » التلميذ ، غلاماً . . متخلفاً .

كانت أماليا مؤدبة معى ، ذلك الأدب الأوربى البارد كالثلج . وكان الواضح من حديثها أنها تنظر من عليائها ، وقد اكتملت أنوثتها ، إلى صبى تقدم من لعبة العصفورة . . إلى لعبة الكورة .

بعد أعوام طويلة، وكنت فى أوربا حدثتنى زميلة سويسرية عما لاحظته فى مدرستها الابتدائية بزوريخ أو بال — وكانت مدرسة مختلطة — من أن البنات متقدمات جنسياً على الغلمان . ففى حصة « الكاتشزم » وهو درس الدين يلقن عن طريق الأسئلة والأجوبة، كان المدرس يسأل الفصل سؤالا من الإنجيل :

— ماذا فعل سيدنا زكريا وزوجته اليصابات ليرزقهما الرب بطفل فى شيخوختهما ؟ وكانت الإجابة التى يرددها الفصل كله : كانا يصليان !

تقول زميلتى السويسرية : كان الشطر المذكر من الفصل يردد الجملة التقليدية بجدية وإيمان .

أما الشطر المؤنث فكان يردد الكلمتين : كانا يصليان . . ثم تتضاحك الفتيات فى أكمامهن . أما إذا أدار المدرس ظهره . . فهات يا كر !

كشك الموسيقى

لا أدرى إن كان كشك الموسيقى قائماً أم راح فى خطوط التنظيم . فحديقة الأزبكية ، التى حلت فى تاريخنا الحديث محل بركة الأزبكية ، والتى أنشأها ونظمها فى أواخر حكم إسماعيل ، مسيو بارييه ، مدير حدائق باريس ، شلفطتها حاجات العمران وازدحام حركة المرور ، وكان قضاؤها أمراً مقضياً ، تلك الحديقة التى عرفناها فى أخريات أيامها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال ، فندور فيها نقضم أطرافها ، وننتف ريشها ، ونقتلع أشجارها ، حتى انتهت إلى أشلاء خضراء وسط خضم من السيارات والأتوبيسات .

نعود بالذاكرة إلى بضع سنوات عندما بدأت مصلحة التنظيم القديمة تتحدث عن إزالة سور الحديقة العالى ، واستبداله بسور قليل الارتفاع ، وعندما ألغت رسم الدخول . ولم أك فى ذلك الزمان البعيد أدرك بعد سبل تحايل المصالح العامة على الرأى العام ، فحملت تلك الإجراءات على محمل من الديموقراطية التى لا تكلف الإقطاع وحكوماته إلا قليلا . ثم نسمع بعد هذا حديث فتح ممر ، أو متنفس لحركة المرور ، ويختفى بالطبع نتيجة لهذا أشهر باب للحديقة ، وهو الباب الغربى .

وتحل الطامة الكبرى عندما تقترح إحدى مصالح الحكومة إقامة بناء لها وسط الحديقة . وكانت تلك ضربة المعلم ، « نوكاوت » للحديقة التاريخية . وعندما تتجه إلى ميدان الخازندار ، أرجو أن لا يفوتك تقديم فروض الإعجاب بذلك البناء الشامخ الذى وضع حديقة الأزبكية فى جيبه الخلفى ، وهو واحد من أبنية ثلاثة أو أربعة تحسب عندنا من قبيل ناطحات السحاب ، ولو أن البناء الذى أشير إليه لم ينطح سوى الحديقة العجوز ، فخرت تحت أقدامه صريعة .

ومع ذلك فلا أكتب هذا لأبكي على الطلل البالى ، بين الدخول فحومل . فليس ثمة أطلال والحمد لله، بل عمارات شاهقة وجادات فسيحة، وخضرة سقيمة هنا وهناك ، وأشجار شائخة تنفلق عن أرصفة ، وتظلل محطات «نقل عام» إلى كل الجهات . وتمثال وطنى عظيم يبدو دائخاً وسط هذه الحركة الدائبة التى نجحت فى أن تصيب بالدوار نصباً من البرونز .

إنما أكتب عن كشك حديقة الأزبكية قبيل ثورة سنة ١٩ ، وفى السنوات التى تلتها مباشرة .

عرفت طفولتنا ومراهقتنا طريق الحديقة الشعرية فى عصارى أيام الجمع ، بسبب ما يقدم بالكشك من موسيقات عسكرية . ولم نكن نسميها كذلك ، لأن الفصحى لم تكن بدأت زحفها بعد على لغتنا البلدية . فكنا نسميها « المزيكة الميرى » ، وهى تسمية غنية بالمعانى الخفية : من أنها شىء مهندم فخم ، بالنسبة لفرق الموسيقات الأهلية ، من مزيكة حسب الله أفندى ، ونازلا .

وكان حول الكشك المستدير — أو الجوسق الدائرى ، بتعبير أبلغ وأدق — عدد من الكراسى تؤجر بثمن زهيد ، لهواة الاستماع . ومن لا يحتكم منا على دفتر شيكات ، كان يكتفى بالدوران حول الكراسى ، أو الوقوف خلف آخر صفوفها ، ليستمع إلى أدوار « يا طالع السعد » و « العفو يا سيد الملاح » ، و « محمد لابس سيفه » ، وقد حولها موسيقيون لا شك فى براعتهم وقدرتهم ، من أدوار غناء التخت ، إلى الآلات النحاسية والخشبية ، دون أن يعبأوا بما فى أصولها من ثلاث أو أرباع النغمات . ويمكن القول بأن تلك الموسيقات بططت أسماعنا الشرقية الرقيقة ، وعودتنا فى سن باكر على نغمات صريحة لا تعرف إلا المقام الكامل ونصفه ، هل تعرف أنت مثلا أن العشرة خردة هى ربع المليم ؟

كان الصول عامر غزال ، قائد الفرقة العسكرية ، حائزاً لاحترامنا وحبنا ، عندما يعزف المؤلفات المذكورة وأشباهها . أما حين تتخلل البرنامج مقطوعات « إفرنجية » ، فقد كنا نحس ببعض القلق ، فعدم الانسجام ، ونعزو هذا لغرابة تلك الموسيقى على أسماعنا ، ومالها من ضجيج ودربكة .

إلى أن اكتشفنا فيما بعد السبب الحقيقى ، وهو ضعف الأداء لموسيقى تتطلب دقة متناهية فى عزفها ، حسب اختلاف الخطوط اللحنية بين شتى آلات الفرقة . وعلمنا بالصدفة أن فرقة بريطانية تحتل الكشك عصر الأحد ، ولم يكن يضيرنا كثيراً أن نستمع إلى موسيقى المحتل ، فاحتلال كشك بالنسبة لاحتلال بلد بأكمله ، لا أظنه كان ينكأ جرحنا ، لا سيما وأن الجوقة البريطانية كانت ترضانا فى ختام حفلاتها بعزف السلام المصرى ، أو السلام الوطنى — وكان هذا اسمه من قديم ولم يعرف بغيره إلا بعد أن أوغلت الرجعية فى حياتنا ، وسيطرت الملكية على أقدارنا .

الفرقة التى كنا نذهب لسماعها عصر كل أحد كانت « الولش باند » وكانت — وأظنها ما برحت — من أحسن موسيقات الجيش البريطانى . ومرد ذلك إلى أن شعب بلاد الغال (ويلز) أكثر شعوب الجزر البريطانية موسيقية ، بطبيعة نشأته ، وتبعاً لتقاليده العريقة فى الغناء الفولكلورى أفراداً وجماعة ، والعزف على الصنج الولشى (الغالى) القديم .

وأمام فرقة ويلز هذه أدركنا لأول مرة معنى القيادة الموسيقية ، فلم تكن مجرد تهويش بعصا ، يبدو للناظر كأن القائد يؤمن على ما يجرى من عزف ، ولا يقوده .

كان قائد فرقة الغال يجلس موسيقييه فى دائرة تستند إلى الحاجز ، ويقف هو بأعلى الدرج الذى يرق إلى أرض الكشك . وصوت الآلات واضح الرنين ، وآلات تكف عن العزف هنيهة ، ثم تدخل بدورها

كرجل واحد ، ولكل مجموعة من الآلات ألحان تميزها عن ألحان المجموعة الأخرى . واللحن الواحد تداوله الآلات فيكتسب من كل آ لة لوناً جديداً . ويتشابك كل هذا دون إخلال أو هرجلة ، وفى توافق لحنى تألفه الأذن الشرقية بعد فترة بسيطة ، دون أن تعرف اسمه (وهو الهارمونيا) . ثم أنت تحس بأن نجاح النظام معقود كله بطرف عصاة القائد فى يده اليمنى ، وحركات ذراعه ويده اليسرى . العصاة منتظمة الحركة كبندول الساعة ، إلا حين يريد لها إبطاء أو تعجلا يتطلبه الأداء ، واليد اليسرى تتكفل بشيء آخر غير رتابة الإيقاع ، فهى التى تتحكم فى التعبير الوجدانى ، ما بين أصوات تهمس همس العاشقين وسط الليل ، وبين جهورة قد تبلغ هزيم العاصفة ، وقصف الرعود .

تعلمنا حول كشك حديقة الأزبكية بعض مبادئ الموسيقى المتطورة وأساليبها ، أى مقدار ما يدركه المرء بحسه ، وملاحظته المباشرة ، بعينه وأذنه ، والسماع أهم ، لولا أن النظر كان يطالع فى حركات قائد « الولش باند » كثيراً مما يجرى فى الموسيقى . كانت حركاته جميلة فى تناسقها ، كأنها حركات الباليه ، معبرة فى إيضاحاتها .

وانفجرت ثورة ١٩ ذات صباح من مارس ، فتوقف العزف وطارت الفرق الموسيقية كلها . ولا أذكر متى عادت الحياة إلى كشك الموسيقى — إن كانت عادت ! — فقد شببت عن الطوق ، وعرفت طريقى إلى الحفلات السمفونية بقاعتى الكورسال وسينما كليبر ، يقود الأولى إدجاردو بونومى الإيطالى ، والثانية ميشيل بولياكين الروسى .

إنما كنت أشاهد الكشك الخالى ، إلا من أطفال تلهو ، كلما جلست إلى قهوة « سانتى » التى تواجهه ، وهى القهوة التى لم نكن نجسر كغلمان الاقتراب من درجها ، فهى مرتاد الكبار ، أى من هم أكبر منا سناً ، لأن حكاية الثراء والوجاهة لم تدخل فى حساب توجسنا من الاقتراب . الكبار

فى صغرنا كانوا يمثلون السيطرة علينا فى كل صورها : فى البيت والمدرسة... وحديقة الأزبكية .

وتحول كشك الحديقة ، عقب هدوء المياه السطحية للثورة ، إلى ما يذكرنا بقاعة النقابات فى الدول الاشتراكية . ثورة ١٩ كانت فى ظاهرها وباطنها حركة ضد المحتل ، ثم تكشفت عن باطن أبعد غوراً . كانت أيضاً حركة تحول اجتماعى كبير . بدأت فى شكل تجمعات مهنية تطالب بحقوقها من شركات الاحتكار التى كانت تسيطر على كثير من مرافق البلاد . طالع صحف ذلك الزمان ، لتعجب كيف أصبح لكشك حديقة الأزبكية «أجندة» بالاجتماعات التى تجرى حوله كل يوم:

عمال الترام ، عمال شركة الغاز والكهرباء ، شركة المياه ، التليفونات ، عمال الكنس والرش ، جرسونات قهاوى عماد الدين ، عمال الوفورات العاطلون ، شركات السجاير .

هؤلاء وغيرهم من ساقطى الكفاءة ، إلى مستخدمى الدرجة الثامنة نظام قديم . ومن عاملات ورش الخياطة إلى المطالبات بالسفور ، ومن أرباب المعاشات إلى أرباب السوابق . وسكان العطوف للاحتجاج على قذارة حيهم ، وسكان الحارات المطلة على الإسطبلات الملكية ببولاق للشكوى من رائحة البهائم . إلخ . . . .

هؤلاء أو أولئك مدعوون للاجتماع يوم السبت ، أو الأحد ، أو الاثنين إلخ ١٢ منه ، بجوار كشك حديقة الأزبكية للتداول فى شئونهم ، أو للمطالبة بكذا وكذا ، أو للاحتجاج على كذا .

ولم يكن للبوليس من تدخل أكثر من ترتيب تسلسل هذه الاجتماعات ، والمحافظة على النظام فيها وحولها .

صفحة من تاريخ التطور الاجتماعى فى أول العشرينات تكشف عن تحول الثورة ضد المحتل ، إلى المطالبة بالحقوق المهضومة . وأتساءل

اليوم ، والشك ينهب قلبي ، أكانت ماكيافيلية الاحتلال هي التي توصي بغض النظر عن تلك الحركات الشعبية ، كي تصرف الناس عن الاهتمام بقضية البلاد الأولى ؟ إذا كان هذا حدث حقاً ، فقد فوت الطلبة على المحتل غرضه لأن الطلبة لم ينفكوا في سنة ١٩ ، وفي العشرينات والثلاثينات ، والأربعينات عن مطاردة الغاصب ، ومحاربة عملائه .

ومع ذلك ، فإن حقائق تاريخنا القومي في الثلاثين سنة التي أعقبت ثورة ١٩ ، وفي السنوات العشر التي مضت على ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . كشفت لنا عن أمور لم نكن ندركها تماماً في فجر شبابنا ، وهو أنه لا الجلاء ، ولا الاستقلال بغاية في ذاتها بل هما أول الطريق نحو التحرر من ربقة الاستغلال في الداخل ومن الخارج على السواء .

وكشك حديقة الأزبكية يقوم في مخيلتي رمزاً لهذه الحقيقة التي تجلت اليوم واضحة لكل ذي عينين ، ويحس بها كل ذي قلب ينبض بحب أم الحضارات .

ناظر المدرسة الحديثة

مدرسة أهليه ، بالمجان ، لم تكن تتلقى إعانة من وزارة المعارف ، ولا من جمعية خيرية . ليس فيها تخت ولا سبورات ولا طباشير ، وإن كان لها ناظر وضابط وقلفة ــ أي تلميذ أول . مات القلفة ــ محمود طاهر لاشين ، رائد القصة المصرية ، وذهب الضابط ــ أندريا غبريال . وأخيراً مضى إلى عالم الغيب ناظرها ــ أحمد خيري سعيد ، لا أدري متى ، وفي أي مكان حتى كتابة هذه السطور . كل ما أعرفه أن يحيى حقي كتب يرثيه أخيراً في صحيفة « المساء » ، ولم أطالع مرثيته بعد .

لم يكن للمدرسة الحديثة مقر معلوم ولا أساتذة ، ولا سجل بأسماء

تلاميذها : « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل » .

كانوا يجتمعون فى كهف ترقى إليه بدرجات خمس أو ست . على ركن شارعى قنطرة الدكة وعماد الدين، يحمل اسماً له خطورته فى التاريخ الحديث : « قهوة راديوم » حيث اجتمع عزيز عيد ويوسف وهبى ومختار عثمان يؤلفون فرقة رمسيس الأولى . ثم فى قهوة الفن المشهورة بجوار مسرح رمسيس . وعند صالح الشربتلى بباب الخلق ، أو فى قهوة الكلوب المصرى بسيدنا الحسين ، فى ليالى رمضان ، وفى مسمط بشارع محمد على فى بعض ليالى الشتاء . . ولكن مآبهم وخلوتهم . . وتكيتهم مندرة محمود طاهر لاشين بحارة حُسْنى .

يذهبون شلة إلى كازينو دى بارى بقنطرة الدكة يناصرون محمد تيمور وسيد درويش فى « العشرة الطيبة » ، وإلى تياترو برنتانيا يؤازرون سيد درويش فى « شهر زاد » أو إلى كورسال دلبانى يشاهدون باليه « آنا بافلوفا » ، أو يستمعون للحفلات السيمفونية ولعزف كبار العازفين ، حيث يجلسون أو يقفون فيما كان يعرف بالمتنزه « البرومنوار » . أو يتشعلقون فى أعلى التياترو بالأوبرا — فيما كانوا يعرفونه بالسماء السابعة ، قبل أن يسمعوا بأن هذا المكان الرفيع اسمه عند الفرنسيين « الجنة » — ليشاهدوا ويسمعوا الفرق الغنائية التى وفدت على مصر بعد الحرب العالمية الأولى .

لم يطلقوا على جماعتهم اسم « المدرسة الحديثة » تزعماً ولا تحدياً وادعاء ، بل تندراً وسخرية بأنفسهم وبتعاليمهم الثائرة . فهم مدرسة السخرية بالحياة البرجوازية الرتيبة . اشتراكيون دون انضواء تحت لواء ، يتابعون أخبار ثورة لينين فى سنواتها الأولى ، وليس فيهم شيوعى واحد، إنما كده ! حباً فى الثورات . . لله فى لله !

ناظرهم الأول والأخير : أحمد خيرى سعيد ، عاد من فلسطين حيث عمل طبيباً عسكرياً لفرقة العمال المصريين المصاحبة لجيش اللنبي ، وقد اعتملت فى نفسه ثورة عارمة على المحتلين المغتصبين وما صنعوا بأهلنا الفقراء فى الطريق إلى بير سبع وبيت المقدس . ولم يعد لدراسة الطب ، بل انضم إلى صحافة « الحزب الوطنى » مؤمناً بمبادئه .

التلميذ الأول كان أكبرنا مقاماً : محمود طاهر لاشين ، المهندس بمصلحة التنظيم على سن ورمح . وأصغرنا سناً وأشدنا طيشاً ، طلاب بالمدارس العليا خرجوا من ثورة ١٩ ينشدون الحرية فى كل شىء فعرفوها ممثلة فى شخصية أحمد خيرى سعيد .

مخلصون لما كانوا يسمونه « المثل العليا » فى الفن والأدب . يطالعون ويناقشون الأدب الروسى العظيم قبل الثورة البلشفية ، ويبحثون عبثاً عما جاءت به تلك الثورة من أدب جديد ، ثم ينصرفون إلى الآداب اليونانية القديمة والإنجليزية والفرنسية والألمانية ، إلا واحد منهم — حسن محمود — أضاف إلى كل هذا اطلاعاً فى الأدب الإيطالى بلغته ، ودراسة لحياة البابوات ، والموسيقيين العظماء ، وممارسة للموسيقى الغربية . كلهم نشأوا على معرفة قويمة بأدبهم العربى ، ينادون بتجديد أنماطه وقوالبه ، مع الاحتفاظ بسلامة اللغة ، وإن ذهب بعضهم إلى المطالبة بالتحرر من قيود الفصحى فى الرواية العصرية ، أو على الأقل فى لغة الحوار . كتب فريق منهم شعراً « حديثاً » ، وعالج فريق آخر الشعر المنثور — أو النثر المشعور فى لغة المدرسة الحديثة — ثم تحرروا جميعاً من ربقة الشعر المنظوم والمنثور سوياً .

مجهولون مجهلون ، ينزعون فى انطلاق فكر عجيب نحو التجديد فى شتى مناحى الحياة المصرية ، وينفعلون بتاريخ بلادهم كله : فرعونياً ، وقبطياً ، وإسلامياً .

يشنون حملات للإصلاح فى صحف هزيلة منزوية ، وكأنهم كياشط (جمع كيشوط) يحاربون عمالقة فى صورة طواحين هواء . كأن يحملوا على استعراضات نجيب الريحانى وأمين صدقى الفرانكو — آراب مما كانوا يعتبرونه ابتذالا غير جدير بأمة ناهضة — مثلما يفعل ثائرو اليوم بالأغنية وفن الأغنية . ويسخر منهم الريحانى سخرية العملاق الخرافى فى أساطير اسكندنافيا : يهوى عليه كبير الآلهة « أودين » بمطرقة الرعود والبروق ، فإذا العملاق يصحو من غفوته وهو يحسب أن ورقة ذابلة من أوراق الشجر تساقطت على يافوخه . . فحسب !

أما أمين صدقى فقد جاء بثلاثة فتوات ومضى بهم إلى كعبة الفن على رصيف شارع عماد الدين ، وأشار إلى ناظر المدرسة ، وقيل بأنه لمس كتفه بيده ، ومضى إلى حال سبيله ، وإذا الفتوات ينهالون ضرباً على المدرسة الحديثة كلها وضيوفها . ويطير طربوش الناظر وتتخطف عصاه . . وتتحطم نظارة هاوى الأدب الإيطالى ، ويضيع منه نص موسيقى ثمين وديوان دانتى . أما ضابط المدرسة فقد زاغ زوغاناً بحجة تأمين ظهر ضيوف المدرسة المتقهقرين . وهكذا تلقت المدرسة الحديثة درساً فى . . أدب الحوار .

ثم يفكر الناظر بأن قد حان الوقت لإنشاء صحيفة تتكلم باسم المدرسة الحديثة فكانت جريدة « الفجر . . صحيفة الهدم والبناء» : ورقة واحدة تطوى إلى أربع صفحات ، الله ما يوريك ! ينشر فيها الأعضاء نقدهم وشطحاتهم ليطالعوها ويضع عشرة أو عشرين من معارفهم الأقربين.

ويفكر الناظر بأن من رفعة مقام الصحيفة أن تكون لها مطبعتها الخاصة . ولكن العين بصيرة واليد قصيرة ، فيشترون بفلوس مهندس التنظيم من سوق العصر وما إليه ، مجموعة حروف يستأجرون لها شيالا يحملها على لوح عجين ، ويسيرون وراءها يشيعونها حتى مثواها الأخير ،

وقرارها المكين . . بمندرة محمود طاهر لاشين . . .

وافترقت عنهم لأسافر بعيداً فى غربة طويلة . ولكن طاهر يوافينى بأخبار المدرسة « العتيدة » فى رسائل أرجو أن أعثر عليها يوماً لأنشرها صورة من أغرب صور التحرر والتطور فى عشرينات هذا القرن .

أحمد خيرى سعيد كان ناظر المدرسة الحديثة دون منازع : أخذنا عنه قلة الأدب ، وعدم الاكتراث بمقامات الناس ، والعنف فى النقاش ، والزعيق فى المجادلة والتشويح بالأيدى والرأس والأرجل ونحن نتكلم . لا نحترم ميعاداً يضرب ، ولا نلوم إنساناً يخلف ميعاداً . الوحيد الذى يملك ساعة فينا ، كان المهندس طاهر لاشين : ساعة ذهبية تلقاها هدية من سلطان الزمان ، بحكم أوليته لمدرسة المهندسخانة .

لا نعترف بوسائل المواصلات ، تراماً كان أم أتوبوساً سيره لأول مرة بشوارع القاهرة سيد ياسين . يسكن ناظرنا بالعباسية ولكنه يعود إلى منزله هناك . . عن طريق السيدة زينب ليوصلنا إلى منازلنا ثم تأبى علينا المروءة — أو قل جدة المناقشة — إلا أن نؤوب إلى منازلنا بالسيدة . . عن طريق العباسية ، لنوصل خيرى سعيد إلى المنزل العامر ، وقد قارب الليل نهايته ، وما الصبح ببعيد !

نطالع الملاحم الكبرى ، بادئين فيها بهوميروس ، ومارين بالشاهنامة ، ومنتهين إلى « الفردوس المفقود » . نحب ونحترم محمد السباعى عقلا ولغة وشخصية . ونطالع مجلة « البيان » ثم يذهب بنا طاهر لاشين لنجتمع بصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، وقد جلس مع صديقه الحميم محمد السباعى بمقهى فى المواردى ، لا نعرف له اسماً غير ما كناه به طاهر لاشين : « بار العفار » .

ونقرأ بلزاك وديكنز وتولستوى وفلوبير والملحق الأدبى لجريدة « التايمز » ومجلة « جون أو لندن » و « الأثينيوم » و لا « نيشن » لنعود إلى

تشيخوف وموباسان . ونهاجم أساتذة الجيل الكبار . . دون أن نقرأ لهم شيئاً ، وهم لا يحسون بوجودنا .

ونطلق على بعض أعضاء المدرسة الحديثة كنيات من اختراع خيرى أو طاهر : كأن نسمى واحداً منهم « الجنيص » لأنه ينطق كلمة عبقرى الإنجليزية دون تعطيش الجيم ، ويأتى إلينا « الجنيص » بأديب نحيف هفتان ، فنسميه « المنيص » ، ويؤلف طاهر قصته على لسان الحيوان يبدأها بقوله « يحكى أن جنيصاً ومنيصاً تشاركا فى المعيشة . . » .

وكان الجنيص أملس جلد الرأس ، لا شعرة فيه توحد الله ، شبه الشاعر رأسه بـ « باتيناج القمل » — بتشديد الميم . فإذا انضم إلى المدرسة أديب جديد حقت عليه الجنيصة ، فهو « الجنيص أبو شعر » . أو فنان غير هفتان جدير بالمنيصة ، سميناه « المنيص أبو كرش » . ونعتاد كلنا على هذه الكنيات حتى ليصبح أصحابها فصيلة بعينها ، يفتقدهم الناظر فى المجلس فيسأل : الله ! هما الجنايص راحوا فين الليلة ؟

وزميل كان يعجب بالكاتب بول بورجيه وتحليلاته الدقيقة للشخصيات — إبراهيم المصرى — فإذا الاسم « الحركى » للزميل : المحلل النفسانى . ولزميل آخر «ذعر» ، لاستعماله كلمات عنيفة فى نقده ، كأن يقول عن العمل العظيم أو الحقير إنه يثير فى نفسه « الذعر » .

وكان العضو « زكى » يلبس نظارة « قرص أنف » (ترجمة بانس نيه) تخر واحدة من عويناتها ماثلة على خده تحت ثقل سلسلتها الجانبية — الأوستيك — ويحرص على الكلام بالفصحى مع قلقلة القاف وتعطيش الجيم ، فنسميه — وهو أفندى — « الشيخ زيكو » . ويدعونا الشيخ زيكو لأكلة عاشوراء فى منزله ، وهو بيت عتيد تطلع سلمه المظلم ، يضيئه فانوس متهالك ، يتدلى فى بير السلم من حبل عتيق علقت به أستلاكتيت التراب والوحل والقرف . ينظر خيرى إلى الفانوس ويقول : هو ده

الأسانسير يا شيخ زيكو ؟ فيرد طاهر لا شين من آخر الصف الطالع على السلم ، وكأنه يخاطب نفسه : « دا باين عطلان » .

جلسنا نأكل العاشوراء بطنف منزل الشيخ زيكو ، على ضوء القمر . وبعد أن أتينا عليها ، اكتشفنا أنها لم تكن محوجة بالياميش فحسب ، بل اتخذ أعشاشه فيها نمل كثير. ومنذ تلك الليلة وضع لنا ناظر المدرسة تقويما جديداً . . يبدأ بليلة « العاشورة أم نمل ! » .

وقفت المدرسة صفاً فى منتصف الليل على ضوء « كلوب » بياع البليلة . ويكتشف أحد تلاميذها — وكان أيضاً مفتش صحة القسم — حشرة صغيرة حمراء فى سلطانية . وينفجر أعضاء المدرسة ضحكاً على زميلهم مفتش الصحة الذى زعم بأنه سيسكع بائع البليلة محضراً . ويقول طاهر لاشين للبياع أنت بتقى صراصير يا عم ؟ ويؤكد خيرى سعيد بأن الرجل « بانى لهم غية فى السطوح » ، وإذا البياع يخطف السلطانية من يد مفتش الصحة ، ويأتى على ما فيها بحركة واحدة وهو يقول : صراصير إيه يا عم صل عالنبى !

ويمضى أعضاء المدرسة الحديثة فى طريقهم من السيدة إلى العباسية — وبياع البليلة فى عابدين — يفلسفون الحادث ، ويتساءلون عما للنمل والصراصير وما لهم فيقول العضو البرهمانى — أحد شوقى حسن ، وفى المدرسة فيلسوف عبرانى أيضاً ، هو شالوم — بأنها أرواح أدباء تناسخت وتحاول الانتقام من المدرسة الحديثة . فيبادر طاهر بالقول : زى فتوات أمين صدقى ، فاكر يا خيرى ؟

ويرد خيرى سعيد : يا سلام يا عزيزى ، بالك انت لو ما كانش معاهم شوم ؟

— كنت يعنى حاتعمل إيه يا سى خيرى ؟

— أقنعهم يا عزيزى بفساد المسرح الاستعراضى الفرانكو — آراب .

بالك انت ، حانقضل وراء الملاعين دول لغاية ما يقفلوا المسارح دى .
يا عزيزى ، دى مسألة أخلاق . . أخلاق البلد ، أمال إيه !

* * *

كلا ، لست أرثى ناظر مدرستى أحمد خيرى سعيد ، فروحه الساخر يتقمص تلاميذ مدرسته ، وتلاميذ تلاميذ مدرسته : كلّ الساخرين الثائرين . لقد علمتنا المدارس الأميرية اللياقة والنظام والطاعة والانصياع ، والمواربة وخداع النفس . وعلمنا أحمد خيرى سعيد الصراحة ، وتجنب الادعاء والحنشصة ، والثورة على كل تقليد بال ، وتحطيم الأصنام مهما ارتفعت هاماتها ، وعلت قواعدها .

درس خيرى سعيد الطب ، فآمن حتى آخر حياته بالعلم ، لا غنى عنه فى رأيه لأديب ولا الفنان .

« السيانس يا عزيزى . . ! » يكفى أن تسمعه يبدأ هكذا لتحس أنه فى هذه المرة الواحدة الوحيدة ، جاد كل الجد . فإن كان خيرى قد سخر بكل شىء وكل فكر وكل إنسان ، فإنى لا أذكر مرة واحدة أنه سخر بالعلم . كانت للعلم عنده قداسة خاصة — وما أعجبها كلمة تقال بصدد أحمد خيرى سعيد ! — وقد خدم العلم طوال حياته العملية : مترجماً فنياً بهيئة الصحة العالمية ، وكاتباً ، وصحفياً ، ومفكراً حراً .

شيكسبير فى خان جعفر

من أعياد الحضارة التى شهدتها فى حياتى احتفال العالم سنة ١٩٢٧ بمضى مائة عام على وفاة شادى الإنسانية الأكبر لودفيج فان بيتهوفن ، وها هو ذا العالم يحتفى بذكرى مولد وليم شكسبير (١٥٦٤) .

أذكر فجأة احتفال مدرستى عام ١٩١٤ بذكرى مرور خمسين وثلاثمائة عام على مولد شاعر الإنسانية الأكبر. كان احتفالا صغيراً ،

تم فى مكتبة المدرسة السعيدية بالجيزة. تداول فيه أساتذتنا التحدث إلينا عن ابن ستراتفورد أون إيفون . وألقى واحد من أساتذة اللغة الإنجليزية منولوجاً لا أتذكر من أية رواية كان ، والغالب أنه لم يخرج عن منولوج « الكينونة واللاكينونة » لهملت ، أو مونولوج ماكبث وهو يتأهب للغدر بضيفه الملك دنكان ويتخيل رؤية خنجر دام : « أهذا خنجر بمقبضه يلوح لى ؟ أنلنى منك ما تنضم عليه الأنامل ، تفر منى وما أنفك أراك ألا ينال منك الملمس ، مثلما يراك البصر ؟ »

ولم يمض عامان علينا فى المدرسة حتى كنا نؤلف جمعية التمثيل تقدم نماذج من نشاطها أمام الناظر والأساتذة والتلاميذ ، ولأذكرن كأنه بالأمس الزملاء الذين شاركوا فى تقديم حفل خاص بشيكسبير . ليس من حقى فيما أظن أن أبوح بأسمائهم وقد برزوا فى الحياة علماء وأطباء ووزراء .

عرضت على ناظرنا الأجنبى برنامج الحفل ، وكان بعضه بلغة شكسبير ، فطلب منى نسختى لمأساتى هملت وماكبث وأشر على بعض فقرات مما اعترمنا إلقاءه ، أمر بحذفها . وكل متمرس بأسلوب شيكسبير يدرك معنى الرقابة التربوية علينا فى تلك السن الباكرة .

زميل ألقى منولوج ماكبث عن الخنجر ، وزميل آخر لعب دور كبير الممثلين فى الجوقة التى يدعوها أمير الدانيمارك لتمثل أمام عمه القاتل . ولعبت أنا دور هملت فى الديالوج بينه وبين الممثلين فى أول لقائه بهم . وهو من المناظر المحذوفة فى ترجمة خليل مطران ، وقد اكتشفت وأنا أراجع الترجمة تواً أن الخليل لابد قد نقل عن ترجمة فرنسية مقتضبة مشوهة الغالب أنها من الترجمات التى تختزل مناظر من الرواية إعداداً لتمثيلها ، وهذا أمر بالغ الخطورة ، يضاف إلى الهنات التى أخذها الزميل الدكتور لويس عوض على ترجمات خليل مطران لشكسبير .

على أنه لا ترجمة شاعر القطرين ، ولا حفل ذكرى مرور ٣٥٠ عاماً

على مولد شكسبير بمكتبة المدرسة الثانوية ، كانت أول صلة بين مراهقتنا وبين الشاعر الإنجليزى ، إنما جاءت تلك الصلة عن طريق ترجمات أقدم لنجيب الحداد أو أخيه، كانت عجيبة العجائب . وأحسبها نقلت عن نصوص « الليبريتو » التى وضعت لتلحين الأوبرات نقلها الحداد نثراً وشعراً ، ليلحنها الشيخ سلامة حجازى .

ولم أشاهد تمثيلها فى أول أمرى على مسرح الشيخ سلامة وإنما فى مسارح أحيائنا الوطنية ممن درجوا على تقليد جوقة الشيخ ، من أمثال عبد الحميد عزمى ، وعبد العزيز الجاهلى .

أى أننا لم نعرف شكسبير على حقيقته فى ذلك الزمان إلا عندما تمكنا من مطالعته فى الأصل ، وهأنذا أكتشف حتى فى ترجمة المطران لرواية « هملت » حذفاً واقتضاباً وتبويباً عجيباً .

ولم يكن هذا فى الحق سوى صورة من ضروب التشوية والمسخ التى أجريت على أعمال شكسبير فى أمكنة أخرى من العالم . ويذكر المطلعون على تاريخ الأدب الإنجليزى ما أجراه الممثل دافيد جاريك فى القرن الثامن عشر من تعديلات عند إخراجه لتمثيليات شكسبير . وهذه لا تقارن بالاعتداءات الكثيرة على نصوص شكسبير فى القرن السابع عشر ، بل هى قليلة بالنسبة لما جرى فى الترجمات الفرنسية والألمانية الأولى .

عرفت شكسبير أول ما عرفت فى تلك التلفيقات النثر — شعرية لنجيب الحداد، وفى تخشيبات أو شوادر . وأذكر هملت طفولتى بسترته السوداء ، وسيقانه مغلفة بمايوه أسود وقبعته مطرزة بالخرز الأسود ، وريشة سوداء . أذكره ينغم شعراً سخيفاً يقول فيه «عم خؤون وأم لا وفاء لها»

وكلمة خؤون هذه كانت من أولى جواهرى اللغوية ، كما كان شبح أبى هملت أول أدواتى كمؤلف مسرحى ، هو والمبارزة بين هملت ولايرتس .

فلا غرابة فى أن أستعمل الثلاثة فى الفصل الأول من تمثيليتى الأولى . . والأخيرة ، ألفتها ولما أبلغ الثانية عشرة . تبدأ من الباب للطاق بمناقشة عنيفة بين شخصين ، ينعت أحدهما الآخر ، لسبب نسيته بقوله « خسئت يا خؤون » ثم يسحب سيفه للمبارزة — أو « البراز » كما تعلمنا من مسارح الماوردى والبغالة وخان جعفر بسيدنا الحسين .

وقبل أن أختم الفصل الأول قام نزاع بين الصحاب الذين اتفقوا على تمثيل روايتى فى مندرتهم ، لسبب بسيط وهو أن أحد المتبارزين أردى زميله وهو يقول « مت يا خؤون ، يجرعك سيفى كأس المنون » فاحتج صاحب الدور على خاتمة دوره القصير وقال : ماذا أصنع بعد هذا؟ أليس فى الإمكان الإبقاء على ولو إلى آخر الفصل ؟

— لا عليك يا محمود ، فإنك البطل الذى تدور حول مقتله حوادث الرواية .

— وماذا تعنينى أن تدور ، ودورى قد انتهى قبل أن أتهنا بالملابس التى أفصلها خصيصاً للدور ؟

— إنك لا تفهمنى ، دورك مستمر لبقية الرواية ، سيكلفك عرضاً من البفتة تتلفع به . إنك الشبح الذى يطارد جميع أشخاص روايتى على مدار فصولها الخمسة .

وهذه قصة شبيهة بما حدث لفاجنر فى صغره عندما ألف مأساة قتل فيها جميع أشخاص الرواية فى الفصل قبل الأخير واضطر إلى « تشغيل » أشباحهم ليتم روايته .

هملت وشبح أبى هملت ومبارزة هملت ولايرتس ، تلك كانت وقائع مسرحيات طفولتنا ، نرصعها بكلمات : خؤون ، مقدام ، كأس المنون ، أو كأس الحمام .

إذ كيف أنسى الشيخ وقد تسربل بثوب من البفتة « بفتة هندى ، بفتة هندى شاش عريض يا بنات ! » وسلط نور الكلوب على وجهه فبرقت عيناه وهو يردد فى صوت رهيب : هاممم لييييت .

وهملت يغنى بعد أن يعرف بمأساة أبيه وزواج أمه من عمه : « عم خؤون وأم لا وفاء لها » .

أو ينشد :

أبتى ! أين أنت تنظر ما تم   صار عرساً ذاك الذى كان مأتم
وغدت بعدك المآتم أفرا   حاً وذاك الثغر الحزين تبسم

ويمكن لمن مارس الشعر التقليدى أن يستجمع بقية القوافى مقدماً فى : أم ، عم ، هم ، دم ، عندم ، مندم إلخ ، وهى قافية ميسورة بالرغم مما يبدو لأول وهلة .

وربما كانت « هملت » أكثر روايات شكسبير التى رأيتها تمثل على المسرح أو فى السينما : عبد الحميد عزمى ، عبد العزيز الجاهلى ، الشيخ سلامة ، عبد العزيز خليل ، الملقن شلبى ، الإيطاليان زاكونى ، وروجيرو روجيرى ، الألمانى مويسى ، البريطانى أوليفييه ، ثم ذلك الممثل الأيرلندى الذى نسيت اسمه ، مع فرقة دبلن جيت ، على مسرح أوبرا القاهرة .

ولم أسمع ولا مرة واحدة « آمليتو » شخصية الأوبرا ، ولكنى سمعت مرات « أوتللو » فيردى ، كما رأيتها فى الترجمة الملفقة ، يمثل عطيل رجل اسمه مختار ضخم الصوت ، واسع العينين ، عريض المنكبين ، وخرجت من الرواية أسخم وجهى برماد الورق المحروق وأصرخ فى المرآة : ديدمونة المنديل ، أين المنديل . .

أما « روميو وجوليت » فكان اسمها فى مسارح طفولتنا « شهداء الغرام » وفيها يغنى الشيخ « يا غزالا صاد قلبى » و « سلى النجوم أيا جوليت

عن مهرى » – أو هى شارلوت ؟ لا أدرى – ويبكى موت جوليت بقصيدة « سلام على حسن يد الموت لم تكن » وفيها يقطع نياط قلوب الحريم المشاهدات وراء ستائر الدانتلا ، بغنائه « أجوليت ما هذا السكوت إلخ »

ورأيت جورج أبيض فى بعض دور « هملت » . كان ذلك خلال تمثيله دور « الممثل كين » فى رواية ألكسندر دوماس. وفى واحد من فصولها يقوم كين بتمثيل المنظر المؤلم بين هملت وأمه ، وهو يؤنبها على فعلتها ويقارن بين صورة أبيه وعمه . . وهنا يلاحظ كين أن الوصى على عرش إنجلترا يغازل الفتاة الأرستقراطية ، حبيبة كين ، فيترك التمثيل ويتجه إلى حافة المسرح ويصرخ محتجاً على الوصي ثم ينعت نفسه بالمسخ كين ، والمهرج كين ، ويقع من طوله مغشياً عليه يقيس خشبة المسرح .

هذا ما كان من أمر الممثل كين مع غريمه الوصى على عرش إنجلترا.

ولكنى رأيت – فى مصر – من كان يمثل دور عطيل ، وشاهد فى الكواليس زميلا له يغازل ديدمونة زوجته فى التمثيل وكانت زوجته فى الحياة ، فغادر المسرح وهجم على غريمه الذى قفز من الكواليس إلى الشارع ، والمغربى الأسود يطارده فى دروب الأزبكية حيث كانت دار التمثيل العربى .

كل ذلك رأيته صبياً قبل الحرب الأولى وفى خلالها . ولما وضعت الحرب أوزارها كان المسرح قد اتخذ مظهره الجاد ، وترجم مطران « ماكبث » ومثلها جورج أبيض ، ومعه عبد الرحمن رشدى فى دور « ماكدوف » . وقبيل الحرب العالمية الثانية كانت الفرقة القومية قد أنشئت ، وترجم مطران « هملت » و « تاجر البندقية » ، وأخرج زكى طليمات هذه الأخيرة إخراجاً ما زال ماثلا فى الأذهان ، ومثل دور « شايلوك » وكان من أحسن أدواره وأعظمها .

وبالرغم من تطورات المسرح عندنا فقد بقيت لنا آثار المسرح العتيق الذى ورثناه عن سارة برنار وكوكلان ولوسيان جيترى ، ثم سيلفان ، ولوبارجى ، فى طريقة الإلقاء المتأنق المفتعل والشهيق والزفير . . والشخير ، مع تشطير الهواء بالأذرع كل تشطير ، والزعيق بصوت المرحوم أحمد فهم يقول : ويل للملك النمسا من قلب الأسد ، بل ويل لعسكره إذا لعب هذا السيف فى اليد !

يقول المخرج البريطانى بيتر بروك عن ترجمة شكسبير فى أوربا القرن الماضى بأنه كان العصر الذهبى لترجمات شكسبير . مثلا فى ألمانيا ، أول ما يتلقى الصبى شعر شكسبير كان فى ترجمة شليجل — تيك ، وهى ترجمة مغرقة فى الرومانتيكية ، أشبه بالمنظر الذى صوره فوزيلى لجو روايات شكسبير وشخوصه ، أى أن الشعوب الأوربية فى القرن التاسع عشر عرفت شكسبير كما لو فرضنا أن قد عرفه الشعب البريطانى لا فى أصله بل — على سبيل الفرض — فى ترجمة بيرون لهاملت ، وشيللى للملك لير ، وكيتس لروميو وجوليت .

وأقول بأن أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كان العصر الصفيحى لتراجم شكسبير إلى العربية : ماذا يهم ؟ هل أضعفت تلك التراجمات من قوة شكسبير الدرامية ؟ ألم تترك فى طفولتنا أثراً لا يمحى حتى إذا ما بلغنا الحلم ، رحنا نطالعه فى لغته مثنى وثلاث ورباع ، وها نحن أولاء نتهيأ للعودة إليه ، ومطالعته فى سياقه التاريخى ، بمناسبة الاحتفال بذكرى مرور أربعمائة عام على مولده . ولن نجد بنا حاجة إلى الحواشى والهوامش أو التوقف بمفردات ألفاظه القديمة . ماذا يهم ؟ ألا تكفينا موسيقى شعر شكسبير وصوره الفتانة الرائعات ونبض الحياة التى تعيشها شخصيات صناجة الإنجليز ؟

يقدم رجلا ويؤخر أخرى

وقف مدرس اللغة يشرح أمام الفصل صورة من صور البلاغة ، لم تكن بحاجة إلى شرح ، وهى صورة الحائر المتردد أو الخائف المتوجس ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى .

قدم المدرس رجلا .. فعلا ، ثم أخر الأخرى ، فإذا البرجل (ـــ الفرجار من فضلك) ينفرج . ولكن الأستاذ يفسر نظراتنا المتعجبة على أساس أننا لم نفهم . . فيقدم الرجل التى تقدمت ، ويؤخر التى تأخرت ، والبرجل يزيد انفراجاً حتى فقد المحترم توازنه ، وافترش أرضية سنة ثانية فصل رابع . ومن سوء حظ حضرته أنه لم يكن قد تلقى دروساً فى الباليه ، وإلا لجاء تزحلقه نظامياً ، وانتهى إلى ساق ممدودة إلى الأمام ، وساق ممدودة إلى الخلف ، وقد جلس على جذعه ، مثلما تفعل راقصة الباليه ، فى الكباريه .

أما سيدنا فقد انهار كالبناء المشمخر فى الإعصار ، عندما تزلزل الأرض زلزالها .

وهرول تلاميذ الصف الأول ليأخذوا بيد أستاذنا الفاضل ، وكنا نحب إصراره على شرح الغامض بحركات جسمه ويديه ورجليه ، من قبيل التسالى والترفيه .

ولم يهرول تلميذ واحد من تلاميذ مدرسة محمد على الابتدائية لينقذ ضابط المدرسة من وحلته وسط الحوش عندما تزحلق فى يوم مطير ، وقاس الأرض بطوله . . أو بقصره ، فقد كان ربعة القوام مقبباً كالوسادة جيدة الحشو ، سليط اللسان حريصاً على النظام ، وصكتنا بالأقلام أمام طابور التلاميذ مصطفين كالأصنام .

كان الضابط — برغم كرهنا له — أجدر بأن يأخذ أحد بيديه ليقيله من عثاره . لأن زكى أفندى كانت له طريقة فى لبس البلطو — وكان ينطق « البنطو » لخنافة فى أنفه المستدير كالبرميل — زادت من خطورة زحلقته . كان بسلامته يلبس المعطف على طريقة الفنانين فى مطالع القرن ، أى دون أن يدخل ذراعيه فى كميه . وكان بنطو زكى أفندى من اللون المشمشى المسخسخ ، يماثن لون الصحراء ولكنه يتعارض تماماً ولون طين البرك التى استحال إليها فناء المدرسة فى يوم شتاء ، ربما كان فى آخر العشر سنين الأولى من هذا القرن . .

وخوفاً من أن يطير البلطو ، أو ينزاح عن كتفيه فى اليوم العاصف ، زرر زكى أفندى بطريقة مجهولة لنا ، بعض أزراره فتحول ضابط مدرستنا فى معطفه إلى . . زكيبة بطربوش ، وتصور أنه بعدما نادى على طوابير المدرسة « صفادن — مارش » وارتقى التلاميذ الدرج إلى قاعات الدرس وخلا الفناء ، تزحلق وطار طربوشه فى الهواء ، وانبط على مقعدته فى الوحل ، وهو لا يملك لذراعيه حراكاً ، فاستعاض عنهما بحركات رجليه فى الهواء ، كمن يدير بسكليت فى خياله .

ولم ير الورطة ، أو المحنة ، أو الفصل المضحك ، سوى بعض ساقة الطوابير ، فلم يتحرك واحد منهم لنجدة ضابطهم الهمام ، حتى ولا « القلفة »، بسيونى ، الذى لم يتمالك من الضحك على « الأسد المرعب» وماصنعت به عدالة السماء ، إذ حولته إلى صرصار مقلوب على ظهره فى الوحل .

وصاح زكى أفندى فى بسيونى بصوت زاده الزكام خنافة ، وهو يكاد يطرشق من الغضب :

— وكماد بتدحك يا بسيودى !

* * *

ما رأيك فى أول هذه القصيدة وأنا أستعرض أيام دراستى الأولى

صدقني لقد بدأتها بعزيمة جادة ، وفي ذهني محاولة الإجابة عن سؤال خطير : هل ربينا تربية سياسية في مدارسنا ، نحن أبناء ما قبل الحرب العظمى الأولى ؟

لا ، قطعاً ، في المدارس « الأميرية » .

وأي نعم ، بالمدارس الأهلية .

فقد قضيت عاماً من أعوام المرحلة الأولى بالمدرسة التحضيرية الكبرى بأول درب الجماميز ، وكانت مدرسة أهلية يديرها وطني غيور ، رجل أسمر البشرة جميل التقاطيع ، أنيق البزة ، خطيب مدره انتهى نهاية الوطنيين المجاهدين . . في غيابات السجون ، محكوماً عليه من المحاكم العسكرية البريطانية في ثورة ١٩ .

بالمدرسة التحضيرية الكبرى استمعنا إلى الخطب الحماسية من الناظر ومعاونيه وعرفنا من أساتذتنا بعض سيرة الاحتلال وكفاح الحزب الوطني ، وسمعنا كلاماً مفهوماً ، وغير مفهوم ، عن الجلاء ، وعن شيء اسمه الدستور ، وخرجنا من المدرسة في موكب طويل إلى مقبرة مصطفى كامل كان ذلك ولا شك في ذكرى وفاة الزعيم الكبير ، لأن خطبة ناظرنا الأسمر قبل المسير لم تكن بكاء ولا رثاء ، بل كانت تثير الهمم القعساء ، وتنادي بالجهاد والفداء .

وما إن انتقلت إلى المدرسة الأميرية بشارع مراسينة حتى نزل ستار « البلاك أوت » علينا . فلا كلام في السياسة ، ولا ذكر للصحف . وكانت هذه من الممنوعات ، مثلما كانت السجائر في المرحلة الثانوية ، عندما كان ضباطها يتعقبون المدخنين من الفصول العليا ، في أركان حوش المدرسة السعيدية ويتشممون ككلاب الصيد ، حول الأدبخانات .

وللدخان والسجائر في مدرستنا الابتدائية ذكرى لا تهفو ، عندما كبس الناظر واحداً من أساتذتنا في حصة العصر ، وكان قد فرش صندوق

الدخان ، ودفتر ورق السجائر فوق منصة الأستاذية ، وإلى جانب هذا وذاك العصية التي كان يضربنا بها ضرب عشواء . فلم تك لديه من الحصافة ما وهب الله زملاءه ، كمدرس الحساب مثلا ، الذى يضرب بالمسطرة ، ومدرس الجغرافيا الذى يضرب بالبرجل الخشبي الكبير . . أى بأدوات دراسية . . بريئة ، وإن كانت لهم فيها مآرب أخرى .

ومدرس الحساب كان من النوع « السادى » الهادى ، و « ياما تحت الساهي دواهي » . يطلب إلى التلميذ فى لطف وأدب جم أن يمد يده ، وأن يضم أصابعها إلى أعلى فيما يشبه حركة « شوية شوية » ثم ينزل بعرض المسطرة على أطراف الأصابع بضربات سريعة متلاحقة . وقد قبض على ذراع التلميذ البليد ، بيد من حديد .

و « السادية » عند الأستاذ كانت واضحة فى ابتسامته الصفراء وهو يقول للواحد منا « اديني الكمثرى » لأن خياله المريض كان يصور له يد التلميذ المضمومة . . على هيئة الكمثرى .

فاجأ الناظر — وكن تركى السحنة واللكنة — أستاذنا ، وقد فرش فوق منصته مجموعة من المهربات البداجوجية : الدخان ، وورق السجائر ، والعصية التى هى من العصا . والحق أننا فى براءتنا لم نكن نعرف أن ذلك شيء محظور . . إلا عندما رأينا الأستاذ الفاضل يخطف تلك الأشياء ويخفيها كلها وراء ظهره وهو يقف وينزل عن المنصة ، وينادى : قيام سلام .

وقامت مناورة من نوع الكوميديا « الفارص » بين الناظر التركى قصير النظر ، وبين الأستاذ . . يتحرك فيها الناظر فى اتجاهات تسمح له — خلال عوينات سميكة ، ذات عريش يعترض ما بين حاجبيه — باختلاس نظرة ، يحقق فيها ما يخفى المدرس وراء ظهره . والأستاذ يتحرك حركة الأرض حول الشمس ، يواجه الناظر بصدره الرحب ، وشواربه

المملوكية سودها الخضاب ، وقد تدلت أطرافها على جانبي شفتيه ، كأنه جنكيزخان .

ما رأيك فى ذلك الأستاذ الذى كان يغرس فينا الفضائل — كالشجاعة والصراحة والصدق — لفظاً ومعنى ، لا عملا ؟

كانت الجرايد ممنوعة قطعاً فى مدارسنا الأميرية ، ولعل هذا يفسر تأخرى فى ممارسة مطالعتها حتى السنة الثانية الثانوية عندما نشبت الحرب العظمى بين دول الوسط ، وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا ، وانضمت تركيا إلى ألمانيا .

والأدهى فى مطاردة الصحف من حياتنا أن بعض مدرسى اللغة العربية كانوا يحذروننا من لغتها ، بحجة الركاكة ، وكان المدرس منهم يقدم للصفر ، وما تحت الصفر تقديراً لموضوعات الإنشاء ، قائلا : هذه لغة جرايد !

ولقد عثرت مؤخراً على كراسة لى من كراريس الإنشاء فى أول المرحلة الثانوية فخجلت من تفاهة أفكارها وسماجة أسلوبها التقليدى ، وموضوعاتها البعيدة عن الحياة وكل جميل فى الحياة . والتى كنا نحار فى استهلالها فلا نجد غير جملة « خلق الله الإنسان » ، ولا نعرف حيلة لإطالتها فى غير التكرار الممل ، والسجع المخل ، مخل بالمعنى ، مخل حتى ببناء الجملة ، وفى غير عبارات محفوظة « كخروج الرئبال ، من بين الأدغال » أو بيت شعر رث كفردة الجوراب القديم .

بل خجلت من تصويبات الأستاذ ، وهى تزاحم فى غثاثتها ، أسلوبى الغث ، وإن صدقت فى تصحيح حروف الجر ، أو اسم إن .

وخف وطء خجلى من نفسى عندما عثرت فى الكراسة على ما كان يمليه علينا الأستاذ بعنوان « نموذج للموضوع » . وآسف أن لا أجد الكراسة تحت يدى فى الحال ، لأنتقى من بين درر الأستاذ درة يكسف

لألاؤها وجه الشمس .

كنا بمنأى عن السياسة فى مدارسنا « الميرى » ، ربما كنا نتحدث فيها سراً ، ولكنى لا أذكر من تلك الأحاديث غير ما كان يقصه على زميل ابن وزير ، مما وقع بين الخديو وناظر نظاره ، وأدى ذلك إلى رفده (رفت ناظر النظار ، لا زميلى) .

أليس عجيباً من جيلنا الذى تربى فى قمقم « الميرى » وقضى مرحلته الثانوية تحت الأحكام العرفية البريطانية :

« أنا جون ماكسويل ، القائد العام بالجيوش حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وإمبراطور الهند ، آمر بما يأتى » . .

أقول : أليس عجيباً من جيلنا أن يتحرك حركة عارمة ذات صباح من مارس ١٩١٩ ويخرج إلى الطريق العام ، والمظاهرات والفدائية ، فلا يعود إلى معاهد العلم إلا بعد ضياع عام كامل من دراسته ومنا من لم يعد ، إما جرفته الحياة الحرة أو اغتالته المحاكم العسكرية ؟

هل نفسر ذلك بفعل الكبت ورَد الفعل ، أم هو الفارق الكبير بين «حبسة» المدارس الابتدائية والثانوية ، وبين حرية التصرف فى المدارس العالية ؟

لماذا أسمح لنفسى بالتندر على بعض أساتذتى مع ما أكن لهم من حب وإجلال ؟ ثم ألم يكن لهم ولأساتذة اللغة العربية بالذات — فضل الفصاحة والدربة التى مكنت بعضنا من أن يصبح من أبلغ خطباء الثورة ، فى صحن الأزهر الشريف ؟

ربما كانت ظروفنا السياسية فى ثورة ١٩ هى التى قومت من أساليبنا ، وصرفتنا عن التمثل بالأشعار السخيفة والسجع ، إلى صدق التعبير وأصالة التفكير .

وللأسلوب والفكر ، وتطورهما عند أهل جيلى حكاية أخرى . . ربما عدت إليها .

عودة إلى كراسة الإنشاء

« إلى الشمال من مدينة الجيزة بين المدرسة السعيدية وضفة النيل الغربية حديقة غناء ، وروضة فيحاء هي حديقة الحيوان، كأنها من رياض الجنان أو سفينة نوح فيها من كل جنس : وجان . فثمة روح وريحان ، وأشجار ذات أفنان يجرى النسيم خلالها وكأنما غمرت فضول ردائها فى العنبر قد حنت على المتنزهين حنو المرضعات على البنين تقيهم لفحة الرمضاء ، وتصحح لهم فاسد الهواء .

وكل غصن بغصن صار معتنقاً مسرة كاعتناق اللام بالألف

فيها طيور تصدح ، وعجم تفصح و: رافى ونعام، وظباء بين الآكام كظباء مكة صيدهن حرام ، وأفيال كأسداف الظلام أو قطع الغمام . . إلخ » .

هذا نموذج الأستاذ فى وصف حديقة الحيوان للسنة الأولى بالمدرسة السعيدية الثانوية ، عام ١٩١٤ .

أما التلميذ فيقول ، متذكراً ما جاء فى كلام الأستاذ ، وهو يقرأ النموذج علينا قبل الشروع فى التحرير : « وأفيال كأسداف الظلام ، أو قطع الغمام . . تراه قصير الرقبة ، ولكن الله خصه بخرطوم طويل ، وأعطاه فى القوة (من ، بالحبر الأحمر) على خلع شجرة (صححت : وأعطاه من القوة الحظ الجزيل) ، وزرافى ونعام وقد طالت رقابها . فالزرافة يوضع لها الأكل فى سطح مسكنها العالى فتأ كله بكل سهولة . . إلخ » .

ومن موضوعات ذلك العام الأول فى دراستى الثانوية « تأثير الأخلاق الفاضلة فى ارتقاء الأمة وسعادتها » . « أجل — يقول الأستاذ — فإن

الأمة التى ضربت فى مكارم الأخلاق بسهم بجديرة بأن تقبض على صوبلجان السعادة الحقة ، والمجد الشامخ ، والعزة القعساء ، والقوة العلياء والعدد العديد ، والشوك والحديد » . أما التلميذ فيبدأ موضوعه هكذا « تالله ما رأينا فرداً قد تحلىٰ بالفضيلة ، واتخذ منها ثوباً قشيباً ، إلا وهو محبوب عند كل الناس . »

وفى موضوع « مزايا الرفق بالحيوان » يبدأ التلميذ بالجملة التقليدية « خلق الله الإنسان » ، ونموذج الأستاذ « خلق الإنسان » .

التلميذ عن « الطيران ، وماضيه وحاضره ومستقبله» : فأول من فكر فى ذلك هو رجل من كبار علماء العرب بالأندلس يدعى العباس بن فرناس . . (الحكاية) « غير أنه لم يفكر قبل صعوده فى كيفية النزول »؟؟ « فحينما أراد أن ينزل لم يقدر فسقط على الأرض فتهشمت عظامه ، ومات أشنع موتة . . فلما قرأ الفرنسيون كتب العرب وعلموا ذلك اجتهدوا فى تقليد ذلك الاعرابى . . واخترعوا المناطيد سنة ١٨٣٥ . ولما علم الألمانيون بذلك اجتهدوا فى تحسين هذا النوع من الطيارة ، وجعله أقل خطارة ، فاخترعوا السفن الهوائية . . وكان الأميريكيون يجهدون فى عمل طيارات من نوع آخر ، وهى الطيارات الى نراها الآن . . فإن ابنى ريت اخترعوها وجعلوها (بالأحمر : فعل المثنى) تطير بالبنزين ، نوع من زيت الاستصباح ، وكانت فرنسا فى ذلك العهد تباهى بأنها أول من اخترع الطيارات فلما سمع ولبور ريت ذلك رحل من بلاد أميريكا إلى فرنسا سابحاً فى الجو ، ليرى فرنسا أنه المخترع لأحسن نوع فى الطيارات (غير صحيح،لأن أول من عبر الأطلانطى من الغرب إلى الشرق كان لندبرج عام ١٩٢٧) . . ووفد إلى مصر هذا العام (١٩١٤) جماعة من ملوك الهواء ، جول فدرين وجاك بوييه والمسيو أوليفييه ، وسيفد الأسبوع الآتى طياران يلعبان ألعاباً بهلوانية فى الهواء .

« وللطيران فوائد كثيرة ، خصوصاً فى الحروب . . ولقد تحل محل السفن البخارية والوابورات البرية (بالأحمر : القطرات) فإن أحد الروسيين اخترع طيارة حملت عشرة رجال .

هو العلم يعلو بالحياة سعادة ويجعلها كالعلم محمودة العقبى »

وحاز التلميذ على سخفه هذا أكبر درجة طول عامه الدراسى : سبعة من عشرة ، كما حصل على درجة مماثلة عن موضوع « حديقة الحيوان » . أما موضوعاته الأخرى فيتراوح التقدير فيها بين خمسة وستة من عشرة ، ويوصف أغلبها بأمثال « ضعيف العبارة جداً » ، « ليس بشىء » وفى موضوع « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » توجت الأوصاف بقول الأستاذ « عبارة ركيكة » .

ومن موضوعات العام موضوع « فوائد المتاحف » لا تذكر فيه كلمة واحدة عن الجمال والفن ، والنقاط التى أملاها علينا الأستاذ تدور حول الدرس التاريخى العملى ، وعن المحاكاة والتقليد « إذ يرى الصناع تلك الآثار الدقيقة ، فلا يسعهم إلا محاكاتها ، من استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فهى المورد العذب يستسقى منه كل من رام رياً فى صناعته ، وإتقاناً جليلاً فى حرفته ، ليحوز قصب السبق فى مضمار الصناعة » ولا كلمة عن الفن والجمال !

واضح من المقارنة السابقة بين ركاكة التلميذ وبلاغة الأستاذ ، أن ذلك الشبل من هذا الأسد : النبع واحد ، والهدف واحد ، هو محاولة رص كلام فارغ ، ولكن فى جزالة أسلوب ، وبلاغة تعبير !

وكانت مسألة حياة أو موت أن تتركز عنايتنا فى تجويد الأسلوب ، وصقله . فما إن بدأنا دراسة الأدب العربى حتى اندفع التلميذ يطالع أعلام هذا الأدب فى دواوينهم وخطبهم ورسائلهم ، وما أشك فى أن

أسلوبه سار على الدرب ، ومن سار على الدرب . كما أعرف يقيناً أنه نظم على غرار الأعارب أبان حضارتهم العظمى .

ثم حدث أن اتسعت معارف التلميذ فى اللغة الأجنبية ، حتى استطاع أن يطالع القصص والقصائد المشهورة فى تلك اللغة ، ولم يكتف بما وضعت نظارة المعارف بين يديه من مجموعات شعرية بل اقتنى « الخزانة الذهبية » جمع پالجريف ، والتهم منتخباتها التهاماً ، بفهم ناقص ، يكمله تأثره بموسيقى الشعر وأوزانه .

وكلما تقدمت بنا الدراسة ، واتسع الاطلاع ، نضج الفهم ، فإذا بالأدب الأجنبي يجتذب التلميذ إليه بقوة . ولا غرابة فى هذا لأن الأدب الأجنبي الذى ألق إليه يرتد إلى القرن السابع عشر ، وأغلبه من التاسع عشر ، فالقرن العشرين . بينما الأدب العربى يعبر عن مشاعر ويصور أفكار قرون غابرة ، ربما كان أقربها إلينا القرن الحادى عشر . والأمر هنا لا علاقة له بقومية أو وطنية ، فلغتنا هى العربية ، آمنا ، وكنوز العربية ما أروعها وأبلغها ، ولكنها تعبر عن وجدان أهل لنا بعيدين عنا جداً فى الزمان . فالفارق هنا ليس بين شعب وشعب ، بل هو فارق إدراك وإحساس ، وطريقة فى التعبير عن خوالج الإنسان ، أقرب إلينا فى الأدب الأوربى ، لمجرد تقارب الزمان الذى تعبر عنه .

هذا إلى أن بعض الآداب الأجنبية ، حتى ما كان أقدم كثيراً من الأدب العربى ـــ كالأدب اليونانى ـــ تعالج موضوعات إنسانية فى أسلوب درامى، أو فى شعر ملحمى أى على أساس القصة أياً كان شكلها.

ولو أن أساتذتنا خرجوا قليلا عن أبواب الأدب العربى الصميم إلى فصول من الفلسفة أو التاريخ أو الطب ، أو العلوم العربية أو الرحلات ، لتمكنوا من تمهيد مجالات التعبير لنا ، مع توسيع مداركنا عن إنجازات الحضارة العربية الزاهرة .

أما أن نعقد على الأدب العربى وحده فى نثره ونظمه، فما أحب ذلك إلى روحنا القومى ، وما أحوجنا إليه فى تقويم لغتنا . ولكن من ذا الذى يقاوم أثر الأدب الأوربى عندما يطالع سويفت وميلتون وجونسون وماكولى وديكنز وثاكرى وتوماس هاردى ؟ وهل تحتوى آداب العالم على كثير يقف أمام درامات أسخيلوس وسوفوكليس وأوروبيدس وشكسبير ؟

كل هذه تفاصيل ، تزجنى فيها صراحتى وصدقى مع نفسى . المهم أننى تعلقت بالأدب العربى والأوربى ، منذ تحولت قراءاتنا من السخف الذى بدأت به هذا المقال ، إلى آداب اللغة العربية ونصوصها العظيمة ، ومنذ تقوت معارفنا فى اللغة الإنجليزية .

وكان لحب الأدب عامة فضل دفعى إلى تعلم اللغة الفرنسية وقد عز على أن تدرس تلك اللغة للقسم الأدبى ، ونحرم منها فى القسم العلمى ، فبدأت من الثالثة الثانوية أتلقى دروساً فى تلك اللغة بمدرسة عالمية مشهورة ما زالت بمكانها إلى اليوم ، وإن لم تحتفظ بمكانتها .

واشتهر أمر حبى للأدب بين زملائى بالقسم العلمى وأساتذتى . وسألت أستاذ الإنجليزية إن كان ممكناً قبولى بمدرسة المعلمين العليا ، بالقسم الأدبى ، إذا ما حصلت على البكالوريا قسم علمى ، ونقل المدرس الخبر إلى الناظر الإنجليزى فاستدعانى مستر شارمان وتحدث إلى فى رفق ، لم نعهده فى مظهره العام ، وكان نوعاً من البعبع المرعب للمدرسة كلها . وأظهرنى على صعوبة قبولى بالقسم الأدبى بمدرسة المعلمين ، ثم طمأننى بأن هناك مشروعاً وشيك التنفيذ لإنشاء جامعة « ولا أظنك تلاقى صعوبة فى التقدم إلى كلية الآداب ، بشهادتك العلمية » ثم سلم إلى قصاصة من جريدة « الميل » أو « الجازيت » بها مقال عن مشروع إنشاء الجامعة الرسمية ، وكنا فى سنة ١٩١٧ نحضر للبكالوريا ، وهو المشروع الذى لم يخرج إلى النور إلا سنة ١٩٢٥ ، أى بعد انتهاء دراستى العالية بمدرسة

الطب المصرية .

والتغيير الذى حدث فى حياتى المدرسية منذ شغفت بالأدب (والفن ، ولهذا حكايات أخرى) جعلنى أنصرف عن الألعاب الرياضية وكنت عضواً بفريق الجمباز الأول بالمدرسة الابتدائية ، ولاعب كرة فى فرق الفصول ، وفى المدرسة السعيدية وقع الاختيار على لقيادة فصلى كاملا كفرقة جمباز ،وكان فصلى مؤهلا للمركز الأول فى مباراة العام بين الفصول.

وحدثت مأساة ، عندما قضيت فترة الفجر أعد قصيدة عن « الرفق بالحيوان » استغرقت كل وقتى حتى ميعاد الدروس ونسيت تماماً أن مباراة الجمباز لفرقتى كان ميعادها ذلك الصباح ، قبل بدء الدروس بنصف ساعة ، واستدعيت أمام الناظر ، الذى قابلنى بجفاء ، وسألنى عن سبب تخلفى ، فأجبته مختنق الصوت بأننى نسيت.وعوقبت أقسى عقوبة معروفة فى زماننا أنا الذى لم تبدر منى هفوة أعاقب عليها حتى أخف العقوبات ، طوال حياتى فى المدارس .

ولازمنى حب الاطلاع العام ، وممارسة الأدب ، إلى يومنا هذا . ومما ساعدنى على التوسع فى الاطلاع أن أستاذاً بمدرسة الطب ضمنى بدار الكتب ، وكانت تيسر الاستعارات الخارجية إلى أقصى حد . وما زلت أذكر صف الكتب الطويل على مكتبى مما كنت أستعيره من الدار . كما عرفت — فى مدرسة الطب — طريقى إلى الجامعة المصرية القديمة ، وكانت بميدان الأزهار ،فحضرت بعض دروس الفلسفة على الكونت دى جالارزا ، ودروس الأدب الفرنسى على مسيو كليمان (عن فلوبير ومدام بوفارى) والأدب الإنجليزى على من لا أذكر اسمه ، وإن ذكرت دروسه عن وردزورث. وكان لى حظ حضور محاضرة للدكتور طه حسين ، وأحسبها كانت محاضرته الأولى بعد عودته من فرنسا .. ولم يصدنى عن متابعة محاضراته الرائعة إلا ازدحام القاعة بالمستمعين

ازدحاماً شديداً .

ومما أعانني على تحرير أسلوبي من البلاغة التقليدية انكبابي على نوع من التمارين ، رسمتها لنفسي ، وهي أن أترجم عن الإنجليزية بعض القصائد المشهورة في « الخزانة الذهبية » ، وبعض مناظر من شكسبير (من هاملت ، وماكبث ، وعطيل) .

ودفعت بي هواية المسرح إلى مطالعة الأدب التمثيلي عند اليونان . ورواية « شاكونتالا » الهندية لكاليداسا ، كما دلني أستاذ اللغة الإنجليزية على إبسن وجيمس باري ، وبرنارد شو ، وأوسكار وايلد وميترلانك ، فاشتغلت بترجمة فصول من إبسن « روسمرسهولم » و « عدو الشعب » و « سيدة من البحر » .

وأعترف بالفضل كل الفضل لمحمد السباعي (ومجلة البيان) وصاحبها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، وللمنفلوطي ، وأنطون الجميل (مجلة الزهور) على تطويع أسلوبي لتفكير العصر وأحاسيسه. وتعلقت بأدب جبران خليل جبران . إلا أن رجلا فاضلا حذرني لغته ، ولغة المهجريين كلهم . ومع ذلك فقد درجت على مطالعة كل ما كان يقع لي من كتاباتهم .

ولم أتعرف على الأدب الروسي حتى تلك اللحظة ، وقد تغلبت على في ذلك الزمان نزعة رومانتيكية حادة لم أتخلص منها إلا بشق النفس ، بفضل دراساتي الطبية ، ثم العلمية بعدها ، وبفضل مطالعة بلزاك وفلوبير والكتاب الروس .

وفي صبيحة يوم من شهر مارس ١٩١٩ ركبنا رءوسنا وهجرنا دروسنا لنخوض غمار ثورة « يحيا الوطن » و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » .

وثورة ١٩ في جيلي هي نوع من مطالع التقاويم ، كما نؤرخ بالهجرة ، والميلاد . وأشهد لعام تلك الثورة بأننا نمونا فيه ، بما يعادل أعواماً من السنوات المعتادة في حياة كل غلام ، أو مراهق أو شاب .

ومع أن حقبتي الرومانتيكية استطالت إلى ما بعد ذلك العام ، إلا أن ما أحدثته تلك الثورة ضمن ما صنعته فى تكويني هو أنها أخرجتني عن فرديتي ووحدتي ، وأوصلتني بناس من العالم الخارجي دلوني على طريق الأدب الروسي العظيم ، وهم المرحومان محمد رشيد وزوج أخته محمد تيمور ، والصديقان محمود تيمور وزكي طليمات ، وعن طريقهم عرفت زين شعراء الشباب أحمد رامى ، والثائر الأعظم المرحوم أحمد خيرى سعيد.

كانت لنا اجتماعات دورية فى بيت محمد رشيد يقرأ علينا فيها المرحوم محمد تيمور أطايب الأدب اليوناني القديم ، والأدب الروسى ، والأدب الفرنسى . ونذهب للاستماع إلى الموسيقى السمفونية بقاعتى الكورسال وسينما كليبر ، وحفلات الرباعيات وكبار العازفين. وكانت القاهرة فى أوائل العشرينات تملك اثنين من الأوركسترات الكبيرة ، ويمر بها العازفون العالميون زرافات ووحدانا .

وتولى محمد تيمور وأخوه محمود مجلة « السفور » زماناً . وفيها نشر محمود تيمور أول قصصه . وتولى أحمد خيرى سعيد مجلة « الشباب » وفى هاتين المجلتين نشرت ما قدر لى أن أكتبه منذ سنة ١٩١٩ حتى مطالع العشرينات (وعفا الله عما سلف !)

وبعد وفاة محمد تيمور تشتت شملنا ، وتألفت من المرحومين أحمد خيرى سعيد ومحمود طاهر لاشين ، وإبراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوقى حسن (مد الله فى أعمارهم) وفايق رياض وأندريا جابريل ، ما أطلقنا عليه تندراً وسخرية بنا عنوان « المدرسة الحديثة » التى انضم إليها يحيى حقى قبيل افتراقى عنها بسبب سفرى الطويل إلى فرنسا بالبعثة العلمية.

وأخرج لنا خيرى سعيد « الفجر » مجلة « الهدم والبناء » ، اشترينا لها مجموعة حروف ، حملناها إلى مندرة طاهر لاشين على ما يشبه ألواح العجين ، وهى فكرة عجيبة من أفكار خيرى سعيد : « يا عزيزى ما دام

الحروف معانا ، يبقى فاضل المطبعة ! » ونشرنا فى « الفجر » مقالاتنا وقصصنا ، كما خصصت مقالين لنقد أول كتاب ظهر للصديق القديم محمود تيمور ، أظنه كتاب « الشيخ جمعة وقصص أخرى » .

تلك حقبة جديرة بفصل خاص. إنما أردت أن أبين هنا الأدوار التى مررت بها – كواحد من أبناء جيلى ليس غير – والتى طورت تفكيرنا ومصادر ثقافتنا ، ودفعت بنا فى طريق كان جديداً طليعياً فى الأدب المصرى المعاصر .

كنا فى تلك الحقبة – أغلبنا – أبناء جى دى موباسان وبلزاك ودستويفسكى وتورجنيف وتشيخوف وتولستوى . وربما حقت علينا كلمة واحد من الروس العظام وأظنه دستويفسكى ، حين قال : كلنا خرجنا من « معطف » جوجل . .

هذه حقيقة أحب أن أذكرها : لم نخرج من توب « زينب » ولا من حديث « عيسى بن هشام » وإنما من ترجمات محمد السباعى ، والمنفلوطى ، وأحمد حسن الزيات ، وأنطون الجميل ، والمازنى (صانين) ومن الأصول التى ترجم عنها أولئك ، وغيرها .

ويجدر بى أن لا أنسى مترجمى التمثيليات : فرح أنطون ، وإلياس فياض ، وخليل مطران .

حفظنا القرآن الكريم أطفالا ، فقوم ألسنتنا ، وأرهف حسنا بجمال العربية وروعتها . ونشئنا على الأدب العربى تنشئة طيبة مراهقين وشباباً .

ولكن تكويننا روحياً وعقلياً نما واكتمل فى دنيا الأدب الأوربى ، على قدر ما طالعنا منه فى اللغات التى نحسنها .

من الفوائد الفكرية إلى القصة المصرية

أول ما تعلمت من فك الخط كان كلمة سحرية ، أشبه « بسمسم » الكلمة التى نسيها من اقتحم الكنز فى كهف على بابا . لم أنسها ، ولكنها اختفت من كيان اللغة فلم يقدر لى أن ألقاها فى حياتى مرة أخرى ، على كثرة ما طالعت من كتب العرب .

تلك كلمة « برّ » بضم الباء وتشديد الراء . وكان كتاب « التهجى والمطالعة » ذاك محلى بالصور . والكلمة الثانية فيه هى « بط » ، وفوقها رسم لذلك الحيوان « القنط » والثالثة « سن » ، وفوقها رسم عجيب لا يمكن لطفل أن يفهمه ، فلم يكن سن فيل ، أو سنة العروسة « يا شمس يا شموسة إلخ . . » ، بل كان الضرس الطبى الذى يضعه لك حكيم الأسنان . . فى كباية .

حكى لى صديق كيف اعتمد أخوه الأصغر على الصور ، زاعماً أنه يفك الخط . فلما وصل إلى كلمة « سن » لم يتعرف على الضرس الطبى فطالع « بنطلونن» لأن الرسم كان أقرب إلى بنطلون منشور فى الهواء.

والكلمة السحرية التى اختفت من اللغة ، منذ « استهجتها » فى طفولتى إلى اليوم ، كان قد رسم فوقها ما لا شك فى أنه عود « غلة » ، ومع هذا فما زلت أشك فى أن كلمة «بُرّ»تعنى قمحاً،وقد تعنى واحداً من نباتات الحبوب ، وهى كثيرة ، كانت تعتبر « مغرزاً » فى امتحان النبات العملى بجامعة باريس .

خمسة كتب استقرت فى ذاكرتى مما قرر علينا فى حصص المطالعة بالمرحلتين الدراسيتين : الفوائد الفكرية ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، وكليلة ودمنة ، وأدب الدنيا والدين .

ولقد تعجب حين تعلم أن أهم هذه الكتب عندى ، وأعمقها فائدة فى تكوينى العقلى والخلقى كان . . الفوائد الفكرية « من أثار المرحوم عبد الله باشا فكرى ، وتنقيح حضرتى عبد الجواد أفندى عبد المتعال ، وعبد الله أفندى الأنصارى وسيد أفندى محمد» ، ثم تصديق «صاحب الفضيلة حضرة الأستاذ الفاضل ، الشيخ حمزة فتح الله » .

وليس معنى هذا أننى أنتقص من قدر الكتب الأخرى ، حاشا وكلا، ولكن الظاهرة المفزعة هى أن كل كتاب من الأربعة يمسك بخناقنا عاماً دراسياً كاملا ، ننام ونصحو عليه . وأن حصص المطالعة « المؤيد » تعيش فى ذاكرتى كالأرض الخراب، يتردد فى بلقعها صوت الأستاذ وهو يلقى علينا نموذج القراءة بصوته المنغم المنوم .

خذ منها كتاباً عظيماً هو مستودع الحكمة الإنسانية القديمة فى أسلوب جزل سهل ممتنع : « كليلة ودمنة » .. ذلك كتاب من كتبى المفضلة إلى يومنا هذا . ولكنه ليس كتاباً يطالع من الجلدة للجلدة . إنه روضة حكم وأمثال ، تقلب صفحاته لتقرأ واقعة هنا ، ودرساً هناك فى السلوك الفردى أو الاجتماعى ، كتاب تتزود منه زاداً مقتصداً يجلو الفكر ، ويبعث على التأمل .

أما أن تصحو وتنام — فى حصة العصر — ويمضى الخريف والشتاء والربيع ، ويهل الصيف ، فلا تعرف حصة مطالعة بدونه ، فذلك نوع من العقاب المدرسى فيما يشبه « اكتب خطبة قس بن ساعدة خمسين مرة »

ثم من يكون ابن المقفع هذا يلازمنا كر الأشهر ومر السنين ، بل ما هى تلك الكتب المثقلة بالحكم تكبس على نافوخنا العام تلو العام ، « الموسوقة » بالمواعظ وسقة سفن الصعيد بالقلل القناوى .

وماذا وجدت فى «الفوائد الفكرية» موضوع سخرية البداجوجيين ؟ اعلم حفظك الله ،أنه اسم على مسمى ، وأنه ليس أدباً ، ولا حذلقة

لغوية . إنه « مفيد » أولا ، يقدم للطفل شحنة طيبة من المعلومات الأساسية عن الأيام والشهور فى السنة العربية، والسنة القبطية، والسنة الإفرنجية « ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعى للمسلمين يجتمعون به فى المساجد لأداء فريضة الجمعة، ويوم السبت هو العيد الأسبوعى لليهود يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم ، ويوم الأحد عيد النصارى الأسبوعى يتركون فيه أشغالهم ويذهبون إلى كنائسهم أيضاً » . « والأيام الثلاثة بعد عيد الأضحى تسمى أيام التشريق وأيام منى ، وهى الأيام المعدودات المذكورة فى قوله تعالى : (واذكروا الله فى أيام معدودات) ، ويحرم صومها وصوم يومى العيدين » . « وفى شهر برمودة يدرك الفول ، وينعقد اللوز ، ويحصد الشعير والترمس والحلبة والقمح البدرى وأبو النوم ، ويزرع الأرز ، ويتوالد النخل . وفيه يجنى الورد المصرى لاستخراج مائه وتجمع الأزهار من أشجار الليمون والنارنج لاستخراج مائها أيضاً . وزهر النارنج هو أجود الأزهار وأعطرها . وفى هذا الشهر يكون أشهر أعياد النصارى المسمى بعيد الفصح ، واليوم الثانى منه هو المعروف بيوم شم النسيم ، وأول الأيام التى تسمى الخماسين » . ومعلومات عن مقاييس الأبعاد والأوزان والمكاييل ، وقيمة النقود المشهورة فى مصر : الجنيه المصرى والمجيدى والإنجليزى والمسكوبى و « الوينتو أو البنتو ، وهو عشرون فرنكاً ، ويساوى سبعة وسبعين قرشاً وستة فضة .. والقرش يساوى أربعين فضة أو أربعين بارة » . وقد عرفنا البارة فى طفولتنا باسم عشرة خردة !

وتجىء بعد المعلومات فصول فى الأخلاق : حب الله، محبة الأنبياء والمرسلين ، الأب الأم . . آداب الطفل مع أولاد حارته وأولاد مكتبه وغيرهم . . ولا يصح للولد أن يخبر أحداً بشىء من الأمور التى تقع فى بيته . . وعلى التلميذ إذا حفظ شيئاً من الدروس أن لا يكون مثل الببغاء . وينتهى الكتاب بفصل عظيم عن « محبة الوطن » : « . . إذا

عرفت ذلك وأردت أن تقوم بما عليك من خدمة الوطن العزيز يلزمك أن تبذل غاية اجتهادك فى التعلم وتحصيل العلوم والمعارف . . ومثل لوازم العسكرية التى هى ضرورية لحفظ البلاد من تعدى الأجانب عليها ، وتملكهم لها واستعبادهم لأهلها ، فإن الوطن إن تملكته حكومة أجنبية استذلت أهله واحتقرتهم وأضاعت حقوقهم . . ولا تظن أن ما ذكرناه من حب الوطن مقتضاه أن لا يفارق الإنسان منشأه ، ولا يخرج عنه إلى غيره ولو لمنفعة الوطن كما يعتقد بعض العوام القاصرة أفهامهم . . المحب لوطنه فى الحقيقة من يسعى فى مصلحته ومصلحة أهله ، ولو بالخروج إلى البلاد الأجنبية لتحصيل علم من العلوم ، أو تعلم صنعة ، أو تعاطى تجارة يجلب بها لبلاده ما تمس إليه الحاجة من حاصلات البلاد الخارجية وبضائعها وآثار فنونها وصنائعها . . إلخ » .

أسلوب واقعى مباشر ، لا تواليت فيه ولا زواق ، أسلوب علمى أطل علينا فى مطلع حياتنا . . ثم اختفى نهائياً ، وكان علينا أن ندرس الطب والعلم ، وأن نجتاز البحار والجبال والوهاد لنبلغه بعد عناء . إن صفحة واحدة من هذا الكتيب الساذج تساوى عندى كل خطب وفود العرب على كسرى . والأستاذ الذى لم يجد وصفاً لحديقة الحيوان إلا أن يتمثل ببيت : « وكل غصن بغصن صار معتنقاً ، مسرة ، كاعتناق اللام بالألف » كان كفيلا أن يفسد ذوقنا اللغوى فساداً لا أمل فى إصلاحه .

ولا عجب أن يؤدى التزمت والحكم والمواعظ وأدب الدنيا والدين — ذلك الغذاء الدسم المترف — إلى أن يحبب إلينا الفول والفلافل والبصارة والعدس ، قصص حمزة البهلوان والأميرة ذات الهمة وعلى الزيبق المصرى ووقائعه مع دليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة . كما انصرفت إلى كتب خرافات وأساطير بمكتبة والدى ، مثل الكتاب المنسوب لابن إياس « بدائع الزهور ووقائع الدهور » الذى يحك خلق العالم وإقامة السموات

والأراضين وما فوقها وما تحتها ، أو كتاب « عجائب الهند ، بره وبحره وجزائره » تأليف بزرك بن شهريار الناخداه .

وشبهية القراءة تبعتها القراءة ، ومن تلك الكتب العجيبة كانت النقلة طبيعية إلى الترجمات الشامية لمغامرات روكامبول وأسرار باريس، واليهودى التائه ، وفانتوماس ، وأرسين لوبان .

وما يعتم الغلام حتى يتحول ، فى محاذاة نموه العقلى ، إلى الأدب العربى فيتروض فى « مروج الذهب » ، ويرتاد مجاهل « الأغانى » ، ويتحلى « بالعقد الفريد» ، و « الكامل المبرد » و « المحاسن والأضداد» ، و « المفضليات » و « ديوان الحماسة » وأمثال الميدانى ودواوين الشعر بشرح الزوزنى والشنقيطى .

وفى محاذاة فهمه للغات الأجنبية ، ينتقل إلى « الفرسان الثلاثة » و « الفيكونت دى براجلون » ، وغيرها من قصص دوماس التاريخى ووالتر سكوت ، و « البؤساء » و « نوتردام دى بارى » لفكتور هوجو ، ودون كيخوتى لثيرفانتس .

و هذا عدا الكتب العربية الحديثة كدواوين عبد الرحمن شكرى والعقاد خليل مطران وأحمد رامى والكاشف وأحمد محرم ، ورسالة طه حسين فى « ذكرى أبى العلاء » وكتب المنفلوطى كلها ، وترجمات محمد السباعى وأحمد حسن الزيات .

وكان لابد أن يحل الوقت الذى أنظم فيه مطالعاتى ، وأعانتنى على هذا التنظيم مكتبة « افريمان » وقائمتها المرتبة حسب الموضوعات ، وهى تحتوى على أعلام الكتب فى التاريخ والتراجم والقصص والأدب التمثيلى ، والرسائل الأدبية فى أهم اللغات . وكان الكتاب منها يباع مجلداً بسبعة قروش ونصف القرش ، لا غير .

وقررت علينا فى السنة النهائية بالمرحلة الثانوية قصة « حياة جيسون

وموته » ، من شعر وليام موريس ، و « قصة مدينتين.» لتشارلس ديكنز .
فأثارت فينا هذه القصة الأخيرة رغبة الاطلاع على أخبار الثورة الفرنسية .
أما قصة « جيسون » فقد فتحت آفاقنا على عالم الأساطير اليونانية ،
وقربتنا إلى « الأوذيسية » و « الإلياذة » ، فقرأت هذه الأخيرة فى ترجمات
الشاعر بوب ، واللورد داربى ،وسليمان البستانى . وقدمتنا الإلياذة إلى شعر
الملاحم فطالعنا «الإنياذة» لفرجيل ،واللوزيادة لكاموينش ، و « الفردوس
المفقود » لميلتون . وتعثرنا فى مطالعة « الكوميديا الإلهية » لدانتى .

وشجعت هواية التمثيل متابعتنا لأدب المسرح ، بدءا من اليونان
فالكلاسيكيين الفرنسيين فشيكسبير ومارلو وبومنت وفلتشر ،وبن جونسون .

والأدب القصصى بعد قراءتنا فى المدرسة لاستيفنسون ، ورايدر
هاجارد وأنطونى هوب وديفو وديكنز ، بدأناه من « توم جونز » لفيلدنج ،
وانتهينا إلى توماس هاردى ،مارين بثاكرى واللورد ليتون وجورج إليوت ،
وبنات برونتى .

آسف لهذا الإسراف فى السرد الممل وأرجو أن لا يؤخذ هذا على أنه
استعراض أو تفاخر . إنما أحاول أن ألقى ضوءاً جانبياً على حياة جيلى فى
سن المراهقة وما بعدها ، وعلاقته بالثقافة الأدبية . ولا أزعم أننى كنت
أفهم كل ما أقرأ فهماً كاملا ، بل كنت أشبه بالسائح المتعجل ، يبهره
ذلك العالم العجيب ، أبدعته عبقريات القرون . ولقد عدت إلى كثير
من تلك الكتب فصححت آرائى فيها وعمقت فهمى لها .

لم أكن وحدى فى تلك الرحلات الذهنية الممتعة . فما إن عرفت الدنيا
خارج المدرسة ، بعد ثورة ١٩ ، حتى وجدتنى أجتمع إلى رفاق ذكرت
بعضهم فى الفصل الماضى ، مروا بتجارب مماثلة فى القراءة والاطلاع .
ولقد ظفرت فى محمد رشيد بموسوعة اطلاع مدهشة فى الأدب والفن
وكان رحمه الله يتقن اللغات العربية والإنجليزية والإسبانية والألمانية ،

وافترقنا وقد بدأ بتعلم الروسية . . إعجاباً بلينين .

كما عرفت فى حسن محمود إدراكاً عميقاً لعصر الإحياء الإيطالى . ولفن الموسيقى الأوربية . وعندما التقيت لأول مرة بالمستشار محمد طاهر راشد أدهشنى أن أجده منكباً على مطالعة . . كل بلزاك .

هل كانت لى محاولات أدبية خلال ذلك التحصيل الأهوج ؟ بضع قصائد لم أحتفظ — لحسن الحظ — بشيء منها ، وقصة طويلة نقلتها عن فيلم فى سينما أوليمبيا عنوانه « الحب والشرف ، أو الهارب من الجندية » تجرى وقائعه أيام نابليون . وعندما أتممتها أخذنى والدى إلى صاحب له من رجال الصحافة ، تصفحها . وفيما كنا نتداول فى أمر نشرها ، علمنا من أحد أعضاء شلة أبى بأن كاتباً سبقنى إلى نقل تلك الرواية عن السينما ، ونشرها .

إنما جاءت محاولاتى الأدبية الأصيلة ؟ ؟ بعد ثورة ١٩ واجتماعى بآل تيمور ، ثم بأعضاء المدرسة الحديثة . وقد بدأتها بأسلوب رومانتيكى عرف فى زماننا باسم الشعر المنثور ، وكان موضع سخرية صاخبة من مدرستنا الحديثة . وكان شالوم داود بن مسعودة فيلسوف تلك المدرسة ، وطبيبها المجلى ، يسمى ذلك الأسلوب المهجن « النثر المشعور » ، مما عجل بشفائى منه .

وما من شك فى أن المرحوم محمد تيمور هو الذى أثار فى أخيه محمود ، وفيمن حولهما الرغبة فى معالجة القصة القصيرة التى تخصص فيها وامتاز بها إلى اليوم صديقى محمود تيمور .

وإذ بدأت مرحلتى فى القصص بحكايات رومانتيكية ، تحمل بعض آثار جبران ، فقد أبللت من حمى المراهقة الأدبية ، وانتهيت بفضل تشيخوف إلى الواقعية مؤسسة على تجاريبى المحدودة بقصر العينى ، وبشطحاتنا الفنية فى رمضان بحى الأزهر ، وجولاتنا الليلية فى أحياء

الملاهى البريئة وغيرها .

وفيما عدا قصة « السبنع الحلاوة » ، وهى من ذكريات الطفولة ، وقصة « العنبر رقم .. » ، وصورة لأديب إسكندرى أعجب بها فى وقتها الأخ إبراهيم المصرى ، فإن كل ما سودت من شعر ونثر فى ذلك الزمان جدير كل الجدارة .. بالإهمال والنسيان .

ولقد ختمت حقبتى الشعرية سنة ١٩٢٢ بنص أوبرا « ليلة كليوبترا » على رواية قصيرة لتيوفيل جوتييه بهذا العنوان ، وقدمتها لمسرح الأزبكية « شركة مصر للتمثيل والسينما » ولحنها المرحوم داود حسنى . وما أكثر ما يسألنى الأصحاب عنها ، فأنكر وجودها ، ولكنى واثق من أن نصها مدفون بين الكراسات والكتب فى صندرة ما ، ولا أنوى أن أتشعبط على سلم وأعفر نفسى بحثاً عنها .. أهم ما فيها نوع من التحرر الشعرى ، والتصرف بالتفاعيل تصرفاً يرسم للموسيقى طريقه إلى تلحينها . واستعدادى لهذا التحرر مرجعه إعجابى بشعر عبد الرحمن شكرى ، ثم تمريناتى فى ترجمة الشعر الأجنبى إلى شعر غير مؤسس على العروض العربى ، وإنما على إيقاع الشعر الإنجليزى . جربت ذلك فى قصيدة «ليسيداس» لميلتون وبضعة أبيات من مرثية اللورد تنيسون لصديقه آرثر هلام ، وعنوانها « ان ميموريام » .

وآخر ما كتبت من شعر منثور كان رثائى للمرحوم محمد تيمور ، وقد نشر بالسفور فوق إمضائى بعنوان « مرسياس » ، واكتفت الصحيفة بكلمة « مرثية » تحت العنوان . وواضح من عنوانها أنها تقليد مراهق لقصيدة « ليسيداس » ، وقد حملتها إشارات كثيرة إلى الميتولوجيا اليونانية ، مثلما جاء فى مرثية جون ميلتون .

هذه الصورة لجيلى تبدو مشوشة ، لأن حقيقتها كانت مشوشة ، ولن أرتكب خطأ الشيوخ فأزعم بأن كنا وكنا . نحن لم نكن شيئاً مذكوراً .

والفرق بين جيلنا والأجيال التى تلتنا يتلخص فى كلمة واحدة : « الجامعة المصرية » وكلية الآداب بها .

ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن ، حياتنا الذهنية والعاطفية مغامرات لا نظام فيها ولا قانون يحكمها . أما الأجيال التالية فقد وجدت فى الجامعة (كلية الآداب) من ينظم حياتها العقلية ، ويقنن لها .

وأقرب ما وصلنا إليه نحن فى اللغات القديمة كان . . جذور اليونانية واللاتينية وقد أفادتنا أعظم الفائدة فى دراستنا الطبية ، والعلمية ، فحسب .

بينما مهدت الجامعة المصرية لطلبتها ، وبخاصة فى سنواتها الأولى ، سبيل تحصيل الطلاب لغير قليل من تلك اللغات القديمة أساس الحضارة الغربية فى أهمها وأجملها . ولو قدر لى أن أعيد حياتى التربوية لما ترددت فى أن أبدأ بتعلم أربع لغات : العربية واليونانية واللاتينية . . . . . والموسيقى ، قبل أية لغة أخرى !

والخطأ الأول فى تعليمنا هو قلة ما كانت تسمح لنا المدارس بتحصيله . ما زلت أزعم أن العشر سنين الأولى فى حياة المصريين يذهب أكثرها ضحية لفلسفة البداجوجيين .

وما فتئت أنصح الشباب ، الذى يسألنى النصيحة : لقد ضيعت عليك المدارس فى عشر سنين من حياتك الكثير من مقومات العقل والوجدان . اجتهد فى أن تعوض ما فات .. فى العشر السنين المقبلة ، بل العشرين ، بل الثلاثين .

قصة شغفى بحضارتنا الأولى

يجرى قلم الكاتب بجملة تنم عن فكرة طارئة ومضت أثناء الكتابة ، يعبر عنها بصورة سريعة هو غير مدرك لأبعادها. مثال ذلك قولى فى الفصل السابق « ما أشبهنا فى شبابنا بقرصان الأدب والفن » لم أدر وأنا أضع تلك الصورة الكلامية أننى أسبر غوراً بعيداً فى تكوين حياتنا العقلية والوجدانية. فالقرصنة هنا تعنى الخروج على القانون والنظام . وقد خرجنا حقاً على نظام تعليمنا . وقوانينه البداجوجية ، عندما غامرنا فى معارج الأدب ، وركبنا عباب فنون لم تكن وزارة المعارف تعترف بها فى ذلك الزمان البعيد ، بل كانت تعتبرها ، كالفراغ والجدة ، مفسدة للمرء أى مفسدة . . كالموسيقى والتمثيل والتصوير . ولقد حكيت فى فصل سابق كيف مزق المدرس رسماً بالفحم على ورق الجرامون ، حاولت فيه نقل صورة من لوحة أو كتاب .

كنا نوعاً من الخوارج على تعليمنا عندما زهدنا فى الأدب الصغير والكبير ، وأدب الدنيا والدين ، وما فيها من حكم ومواعظ ، ورحنا ننهل من آداب العالم عربية وغربية ، غثها وسمينها ، بقدر مداركنا ، وما حصلنا من لغتنا واللغات الأجنبية .

ولم تكن دروس التاريخ والجغرافيا فى مرحلتنا الابتدائية، بخير من دروس اللغة العربية . فالجغرافيا ، تلك المادة الجذابة ، ومن أحب العلوم إلى نفوسنا فى قابل الحياة ، نزلت بنا « كائنة » عظمى حتى كدت أسقط بسببها فى الشهادة الابتدائية .

لأن المدرس لم يكن يعنى بأكثر مما يسميه شرح الدرس ، وهو لا يعدو تفسيراً قاصراً لما فى الكتاب المقرر . فتركنا المدرسة الابتدائية

ونحن لا نعرف عن الجغرافيا إلا أنها أداة تعذيب تتألف من أنهار وحاصلات وبلدان ، تختلط بمعلومات عن الشمس والقمر والفصول ، والبحر والبر والجبال والرياح . وكما كان النحو قواعد تحفظ دون فهم لمنطقها الأساسي ، فقد كانت الجغرافيا معلومات مرصوصة لا أساس لها في وعينا القاصر . ومصيبة هذا النوع من التعليم أنك ، إذ لا تفهم ، تلجأ إلى « الصم » وإذا أثقلت ذاكرتك بالحفظ الآلى ، جاءت إجابتك كالمشي على الصراط ، قد تعبر الهوة ، وقد تسقط في الجحيم .

وربما بدا التاريخ أقرب منالا من الجغرافيا ، لما لهذه الأخيرة من حاجة ماسة إلى ألمعية الأستاذ وخبرته ، وإلى تموينه بالأدوات التعليمية الضرورية . وهذه لم تكن تتعدى في مدرستنا بضع خرائط ، وكرة أرضية ماسحة . وهل توجد مادة أقرب إلى الأفهام من مادة التاريخ ؟ ومع ذلك فقد فجعنا في مدارسنا الابتدائية بتاريخ للمصريين القدماء يصيب الولد بعقدة أو جرح نفسي « تروما » ، من ناحية أسلافه العظام ، عندما يقتصر التاريخ على سرد أسماء ملوك تنتظم في أسرات ، أسماء كحجارة من سجيل ، لا حياة فيها . لأن الماضي ، وبخاصة الماضي السحيق . إنما يحيا بحضارته لا بحفظ أسماء ملوك ، وذكر وقائع ملفقة ، تختلط فيها خرافات هيرودوت ، بشذرات من « العهد القديم » .

وكان من حسن حظنا بالمدرسة الثانوية أن يصحح وعينا بالجغرافيا ، وفهمنا للتاريخ ، أساتذة ممتازون حقاً ، بشخصيتهم أولا ثم بما أكملوه في خارج البلاد من تعليمهم .

بل كان لمدرسي الجغرافيا والتاريخ أثر عميق في توعيتنا الثقافية من جراء عنايتهم بنا خارج قاعات الدرس ، فيما عرف بالجمعيات العلمية (النشاط المدرسي حالياً) . فقد كانوا ينظمون لنا الرحلات والمحاضرات لنتعرف على حقائق جغرافية وتاريخية ، لا علاقة لها دائماً بما تلقينا

أو نتلقى فى قاعات الدرس .

لا شك أن أخصائيى التربية يقدرون معنى هذه الحقيقة العجيبة : وهى شغف التلميذ بكل ما ليس درساً ، وحصة ، وامتحاناً ، وقرفاً . أفلا توجد طريقة بيداجوجية ، ومدخل إلى التدريس ، ينسى التلميذ همه وغمه ، ويخدعه عن نفسه . وعما يهدده فى امتحانات آخر العام ، بأن يتحول التدريس إلى نوع من الهواية الحرة ؟

لقد استطاع مدرسو الجغرافيا والتاريخ واللغات الأجنبية أن يوائموا بين دروسهم ، وبين المعارف العامة عندما شجعوا فينا الاطلاع الحى ، بالرحلات والجولات ، وبثوا فينا حب الكتب ، عندما تحررنا من ابن المقفع والماوردى والمواعظ ، ووسعوا آفاقنا وفتحوا لنا متنزهات الفكر ، ومغانى الفن .

وأرجو أن أحدثك فى فصل مقبل عن أثر أستاذ التاريخ ، المرحوم محمد عبد الرحيم فى تعلقنا بالمسرح . يكفى أن نعرف الآن بأن ذلك الأستاذ الفاضل ، كان مؤسس جمعية أنصار التمثيل ، ورئيسها الأول .

كان محمد عبد الرحيم مدرساً ممتازاً وضع بين أيدينا كتاباً من تأليفه ، ليس ذنبه أن يجىء جزء كبير منه خاصاً بتاريخ آل عثمان . فقد كان هذا مقرراً علينا ، ولا تنس أن آخر دروس تلقيناها فى التاريخ كانت فى عام ١٩١٤ — ١٩١٥ ، وأن زوال السيادة الاسمية لتركيا حدث فى أواخر ١٩١٤ ، وأن الشعور القومى فى البلاد كان متيماً بحب الدولة العلية ، والبادشاه ، ظل الله على الأرض . والحق أن دراسة إمبراطورية آل عثمان كانت تثير فينا ذلك النوع من الإعجاب البدائى بالفتوة العسكرية ، وبما حققه الأتراك العثمانيون من التوغل فى أوربا حتى أسوار مدينة فينا .

المهم أن محمد عبد الرحيم حبب إلينا دراسة التاريخ ، كما أن عبد الرحمن فخرى وعبد الملك سعيد صالحانا على الجغرافيا . ومع أن

معارفنا فى التاريخ المصرى القديم كانت فضيحة الفضائح ، ولم نعد إليه فى المرحلة الثانوية ، فقد أخذت معلوماتنا عنه تتجدد فى صورة حية نتيجة لنشاط جمعياتنا العلمية بالمدرسة السعيدية . وكان الاشتراك فى كل جمعية منها لا يتعدى خمسة قروش فى العام . وإذا كان قصور ذات اليد قد حال بينى وبين اشتراكى فى جمعية « الشيش » ، فإن ماليتى لم تقصر عن الالتحاق بجمعيات التاريخ ، والجغرافيا والعلوم ، والرسم والتصوير الفوتوغرافى ، والاشتراك فى الرحلات . وقد استمر نشاطى فى كل تلك الجمعيات طوال الأربع سنين ، بل تمكنت وبعض إخوانى من إضافة جمعية جديدة إليها ، وهى جمعية التمثيل .

كان عبد الملك سعيد ، قدس الرب روحه ، منارة العرفان لنا فى رحلاتنا . وهو الذى تولى إنشاء «مجلة المدرسة السعيدية» . كان يعد لنا شروحاً عن الغابة المتحجرة والجبل الأحمر فى جولاتنا بجبل المقطم ، وعن القلعة ، والمساجد والبيوت الأثرية والكنائس القبطية بمصر عتيقة ، وأهرامات الجيزة ، ومقابر سقارة وآثار الأقصر فى البرين . كانت أحاديث مرسلة أمام الأثر الفنى . ولا أزعم أن عبد الملك سعيد كان يؤكد بنوع خاص النواحى الجمالية — فقد كنا نعيش فى عصر ما قبل الطوفان ! — وإنما كان يوجه اهتمامنا إلى النواحى التاريخية . إلا أن الجمال الفنى كفيل وحده بأن يثير فى النفس أحاسيس دفينة ، تظهر فيما بعد . فأعجوبة الفن هى لمسته القدسية الأولى ، ونفاذه إلى الوعى الباطن دون ترجمان .

وكان عبد الملك سعيد يشجع فينا تدوين المذكرات عن جولاتنا ورحلاتنا ، ويختار من بينها أكثرها دقة وتوفيقاً ، فيمون صاحبها بالكتب — عرفت عن طريقه دليل بيديكر ، وتاريخ بريستد فى طبعاته الأولى ! — ويطلب إليه أن يعد محاضرة يلقيها على زملائه فى قاعة المكتبة أثناء الفسحة الطويلة وسط النهار .

كما كان ، وزملاؤه — تلك المجموعة الممتازة من المدرسين التى اشتهرت بها المدرسة السعيدية فى زماننا — يعدون لنا محاضرات فى مناسبات علمية أو أدبية كذكرى شكسبير (مرور ٣٥٠ عاماً على مولده) ، والثورة الفرنسية ، وصناعة الخزف والزجاج على مدى التاريخ ، واكتشاف أصقاع الأرض ، وتسخير قوى البخار إلخ ، يستمع إليها — من شاء — بعد نهاية اليوم المدرسى ، مصورة بالفانوس السحرى .

ولقد فاتنى وأنا أسرد أمثلة من الكتب التى تصور اتجاهاتنا فى الاطلاع العربى والأوربى أن أشير إلى كتاب قرأته فى السنة الثانية الثانوية ، بالإنجليزية أولا ، ثم علمت فيما بعد أنه مترجم إلى العربية فاقتنيته ، وأعدت مطالعته معرباً .

كان ذلك الكتاب — إلى محاضرات أساتذتنا خارج الدرس ، وفى مواجهة الآثار — أول ما حبب إلى الاطلاع على تاريخ مصر القديمة ، إذ حقق لى الحياة فيها بخيالى ، مثلما عشت عصر لويس الثالث عشر ، والملكة آن النمسوية والكاردينال ريشيليو ، ودوق بكنهام ، وكيف دافع دارتنيان الغسقونى ، وآتوس وبورتوس وآراميس (الفرسان الثلاثة) عن شرف ملكتهم ، بسيوفهم البتارة ضد مؤامرات الكردينال ، أو كما وعيت عصر الحروب الصليبية فى قصة الطلسم لوالتر سكوت .

ذلك الكتاب هو قصة « وردة » (رواية تمثل أخلاق وعادات المصريين فى عهد رعمسس الثانى ، وترسم للقارئ نظام حكومتهم وما وصلوا إليه من التقدم فى العلوم والمعارف . أبرزها من الآثار القديمة ، وأوراق البردى ؛ الدكتور جورج إيبرس الألمانى ، وعربها محمد مسعود ، أحد محررى جريدة « المؤيد ») كما جاء فى صدر الترجمة العربية ، المنشورة بمطبعة الآداب ، بشارع محمد على .

حصلت على الترجمة الإنجليزية لرواية « وردة » فى طبعة طاوخنتز ،

ذلك البيت السباق إلى الخير فيما يعرف اليوم فى فرنسا بكتب الجيب ، وعند الإنجليز ، بذات الكعوب الورق ، وقد ضاعت فيما ضاع من كتبى ، هى وترجمة محمد مسعود .

ولا بد أن يكون ثمة ملك خير قاد خطواتى منذ أيام قليلة إلى بائع كتب قديمة أخرجت من بينها نسخة من هذه الترجمة. ولا عذر لى مع ذلك فى أن أغفل ذكر « وردة »، فالأصل الألمانى موجود عندى منذ أعوام طويلة ، ولم يختف فى أكداس الكتب ، بل هو ماثل أمامى بمجلداته الثلاثة ، طبعة لايبزيج سنة ١٨٧٩ ، أرى كعوبها المذهبة ، وسط مجموعتى الصغيرة من الأدب الألمانى .

ما كان أسرعنى إلى إخراجها ، لمضاهاتها على ترجمة المرحوم محمد مسعود . ولا أحسب الكاتب المشهور راعى حرفية الترجمة ، ولكن الشهادة لله بأنه لم يترك هامشاً من هوامش إيبرس فى تفسير ما يستغلق على القارئ من حياة أسلافنا . وإن أهم ما وضحت عنايته به هو صياغة الترجمة فى أسلوب عربى جزل سليم ، لا يظهر فيه افتعال الترجمة أبداً .

وحرى بنا أن نشير هنا إلى أن محمد مسعود فى الفرنسية ، ومحمد السباعى فى الإنجليزية، كانا قطبى الترجمة إلى العربية فى زمانهما . وأن تمكنهما من اللغتين ــ الأجنبية والعربية ــ أخلاهما من عقدة الضعة ، فكانا يتخذان حريات فى التصرف قد لا يرضى بها المترمتون ، أو غير المطمئنين إلى قدرتهم فى اللغة التى يترجمون عنها .

ولا بأس من أن أورد هنا بعض ما قدم به الشاعر خليل مطران لرواية « وردة » :

« ومن المعلوم أن اللغات الأجنبية ، مما طبعت عليه من التزام الوصف الحق ومن التباعد عن الخيال إلا بقدر ما يستطاع معه تجسيم المعنى الخفى فى شكل مألوف وفى تصوير حركات النفس فى كل حال من

أحوالها ، أطوع بكثير من لغتنا لأغراض الكاتب فيها ، وأتم تأدية للانفعالات الوجدانية والأفكار . . فالذى سرنى فى « وردة » أننى قرأتها عربية كأننى أقرأها فرنسوية ، وعجبت لما أوتيها معربها الفاضل من الذكاء والاقتدار وملكات الإنشاء، الجامعة علماً ، الراسخة متانة، اللينة قبولا لانطباع الصور الجديدة . . فليكن ختام ما أذكره عن كتاب صديقى محمد أفندى مسعود ، حث كل مصرى على اقتنائه ، فإنى قلما وجدت أحداً من هؤلاء الإخوان الكرام مطلعاً على تاريخ بلاده، ولو كان لا يتكلف سوى تلقيه عن الأجانب الذين عانوا أشد المتاعب فى جمعه له، وإهدائه إليه .

« وإنه لمن الأمور الثابتة بالاختبار أن الأمة التى لا تعرف ماضيها ، لا تدرك حاضرها ، ولا تحسن التهيؤ لمستقبلها . »

وليست قصة « وردة » مع هذا من أعلام الأدب الألمانى ، إلا أن أهميتها لنا هى فى تصوير ما يتخيله عالم كبير بالآثار وكاتب ناضج الخيال، عن الحياة المصرية القديمة . ولقد دهشت وأنا أتصفح الرواية أخيراً أننى ما زلت أذكر بعض مناظرها حية أمامى . فى بيت المحنط ، حيث حملت الأميرة « بنت آنات » الطفلة وردة إلى أهلها ، وأسرعت تضرب باب المعبد تستنجد بطبيب لإسعاف وردة فيخرج إليها الشاعر بنطاؤر : « ولما فتح باب الهيكل برز منه كاهن فى مقتبل الشباب ، وعنفوان العمر ، تدل هيئته على رفعة مقامه ، وسمو مكانته. فاستفهم من القوم عن السبب الذى جاء بهم إلى هذا المكان فى وقت العبادة . فتأهب « بعاكر » للكلام ، وخشيت ابنة الملك أن يبادر الكاهن بكلام فظ يستاء منه فنهضت قائلة : أنا بنت آنات كريمة الملك رعمسيس، وهذه الجالسة فى الهودج « نيفرت» زوجة مينا الراسخ فى الشرف والنسب . . إلخ إلخ . . »
ثم هذه الفقرة فى مجمع الكهنة عن الشاعر بنطاؤر : « فقال رئيس

المنجمين : لا ريب فى أن الآلهة أجزلوا العطاء لهذا الشاب وأفاضوا عليه المواهب ، ولكنى أنست منه استبداداً فى الرأى أزعج خاطرى ، وانشقاقاً عن المذهب المتبع . . وقد أودع فى أشعاره أفكار أو سوانح . . تخالف القواعد الدينية المقدسة ، كان ينبغى عليه التدبر والتروى قبل وضعها حيث يخشى أن تكون داعية لكشف أسرار مذاهبنا ،وإضاعتها فى أفواهالعامة . وإنى أسوق على سبيل الاستشهاد بعض أشعار له يخشى من ضررها فى المستقبل ، ما دمنا نتغنى بها استحساناً ، ويحفظها عامة الشعب ، وخاصته شغفاً بها وافتتاناً ، وها هى :

« هو الواحد الدائم القهار المنفرد بالخلق ، المبدع لجميع المخلوقات ، المحيط علمه بجميع الأسرار . . من تأمل بعين فكره فى مظاهر الكائنات ، شاهد فاطرها فى كل صورها ومعانيها ، واستدل على أنه الواحد الأحد الذى لا يحول ولا يزول » .

ويكتب إيبرس فى الهامش « هذه الأشعار من النشيد الذى نظمه بنطاؤر فى تمجيد "آمون" » وقد وجد مكتوباً على البردى المحفوظ .الآن بمتحف بولاق ، وترجمه غريبو وسترن » .

ولقد فتحت تواً كتاباً فرنسياً فى تاريخ الأدب الألمانى فوجدته يقول عن جورج إيبرس :

« عالم بالآثار المصرية ، ولد فى برلين سنة ١٨٣٧ وأحيا أسلوب الرواية التاريخية التى أبدعها والتر سكوت ولقد وقفت رواياته التاريخية مدى عشر سنوات جنباً إلى جنب والقصة الريفية، والرواية الواقعية . وقد صور فى "وردة" (١٨٧٦) عصر رمسيس الثانى ، وفى "الشقيقات" عصر البطالسة . وفى "أنا إنسان" عصر الشهداء ، وفى "سيرابيس" تدمير مكتبة الإسكندرية ، وفى "عروس النيل". (١٨٨٦) الفتح الإسلامى لمصر . . وفى هذه الكتب عنصران لا يأتلفان تمام الألفة . فنحن نعجب

بقدرة الكاتب على الوصف ، ولكننا نأخذ حذرنا عندما يحاول طبخ المعارف الأثرية فى مغامرة خيالية . وحرى بنا أن لا ننسى أن جورج إيبرس ابن القرن التاسع عشر ، حتّى لنشاهد كهنته المصريين ، وكأنهم جلسوا إلى دروس هيجل وسبينوزا » .

يدخل هواة المسرح

- نسمع — ولم نر — أن الجماهير فى أوربا تعبر عن عدم استلطافها ، أو عن غضبها ، بإلقاء الطماطم والبيض الفاسد على المغنى ، أو الممثل أو ما شابهه . ولكنى شهدت طريقة بلدية عبر فيها الجمهور عن تذمره من نشاز الغناء بقذف المسرح بالبياض . . بياض الحائط ، لا بياض البيض ! فكيف كان ذلك ؟ قال زعموا أن مسرح الكلوب المصرى كان سربا ، أو قاعة تحت الأرض بخان جعفر ، تدلف إليها على مستوى الأرض فتلقى نفسك فجأة فى أعلى التياترو ، أو تنحدر على سلم السرداب ، فإذا أنت فى الصالة . ورواية الليلة هى « عايدة » (راجع أعمال سليم نقاش ، اختيار وتقديم الدكتور محمد يوسف نجم) ، تقلد فيها فرقة حى الحسين ما يجرى على مسرح الشيخ سلامة حجازى ، قياساً مع الفارق فالفرقة فقيرة ، واليد قصيرة ، والأربعة أو الخمسة الذين يقومون بدور الكورس يكاد يغنى كل منهم بطريقته ، على ليلاه ، وعايدة كثيرة ألحان الكورس ، أو كما جاء فى « أسماء الأشخاص وبيانهم » : جوقة كهنة عبدة أصنام ، وجوقة رؤساء حرب مصريين ، وجوقة شعب مصرى ، وجوقة بنات متخصصات بخدمة أمنريس إلخ (وعدد كل جوقة حسب الإمكان والمناسبة) .

وإذ ضاق أعلى التياترو بالنشاز وما إليه ، أخذ بعض جمهوره يخلع

بياض الحائط ، ويرجم به المسرح ، دون إيذاء ، فالبياض يبلغ طرف المسرح متفركاً ، ويسقط على الخشبة رملا . ويتبادل المنشدون والجمهور فصلا من مختارات السباب ، وتجرى مصالحة واتفاق على أن ينتظم الكورس بقدر طاقته ، وأن يبذل السميعة بعض سماحتهم ، على قدر طاقتهم ، ويبدأ الكورس : «أيها الفتاح هبنا نعمتك ـــ ورحيم أنت أظهر عظمتك» إلخ.

وكم أود أن أسرد بعض ذكريات الطفولة عن مسارح الأحياء : الكازار بالماوردى ، ودار السلام والكلوب المصرى بخان جعفر ، وكيف كنا نعود إلى البيت ونلغمط وجهنا بسخام الورق المحروق ونصرخ فى ديدمونة أمام المرآة : المنديل .

وانتهى عبث الصبيان ذاك بالشهادة الابتدائية ، ويزعم الناس حولنا أن تلك الشهادة خولتنا الحق فى لقب أفندى ، مما أضفى على دخولنا المرحلة الثانوية شيئاً من الجد والتزمت ، والعزم على الإقلاع عن الجمباز والكرة ومطالبة ديدمونة بالمنديل .

ثم يحدث أمر يصعب تصوير أثره علينا ، وهو أن نسمع ، ونحن فى سنة التحضير لشهادة الدراسة الثانوية قسم أول (الكفاءة) ، بأن أستاذ التاريخ محمد أفندى عبد الرحيم سوف يظهر على المسرح الحقيقى بالمدينة . ثم يعرض علينا ضباط المدرسة تذاكر بأسعار مخفضة لنشاهد أستاذنا فى رواية « دافيد جاريك » ، وهو من أشهر رجال المسرح فى التاريخ البريطانى .

وانتقلت المدرسة السعيدية ذات مساء ـ أو ذات ماتينيه ، لا أذكر ـ ناظراً ومدرسين وإداريين وطلبة إلى مسرح برنتانيا (فيما أظن) . وكان من أغرب الأشياء حقاً أن نرى محمد عبد الرحيم فى ملابس عصر الشاعر بوب ، والدكتورين جونسون وبرنى ، وعلى رأسه باروكة الشعر الأبيض ، ذات الزعرورة والفيونكة ، وهو يخطر على المسرح بسترته الحمراء المزركشة

بالقصب ، والدنتلا تهفهف حول رقبته ورسغيه . وعجيب أن أذكر اسم البطلة التى أحبها الممثل جاريك وهى مس آدا انجوت ، بل أن أذكر من القصة كيف اصطنع الممثل الكبير حياة صريع الغوانى والخمر حتى تقلع بنت الأرستقراطية عن تعلقها بالمشخصاتى ، وتنصرف إلى خطيب من االوردات .

واشترينا نسخة من الرواية . وعليها صورة أستاذنا فى دور دافيد جاريك ، وهو رافع الكأس ، يترنم بأشعار نواسية .

ولا أرى إلى اليوم مصدر العجب والدهشة فى أن ترى على المسرح شخصاً تعرفه ، فى ملابس التنكر ! ولو لم نتعرف على صوت أستاذنا ، ونتبين ما فى عينيه من حول ، لصعب علينا أن نرى فى داخل أردان القرن الثامن عشر . . أستاذ التاريخ كلى الاحترام .

وكانت تلك الليلة مولد جمعية أنصار التمثيل ، وبقدر علمنا ، كان محمد عبد الرحيم منشئها ، وأول رئيس لها .

كان ذلك العام الدراسى (١٩١٤ — ١٩١٥) آخر عام لنا بدار السعيدية بالجيزة ، كما كان آخر العهد بمحمد عبد الرحيم فى الدنيا ، وكأن قد أصابته العين ، فمرض طويلا أثناء الدراسة ، وعاد إلينا قرب نهاية العام ، ودخل الفصل أعجف ذابلا ، يحمل وسادة ويتحامل على نفسه حتى يبلغ كرسى المنصة ، فيضع عليه الوسادة ، ويلقى درسه جالساً طول الوقت .

انتقل محمد عبد الرحيم فى صيف ذلك العام إلى رحمة الله .

وانتقلت مدرستنا فى العام التالى إلى قصر جناكليس (مقر الجامعة الأمريكية حالا) ، عندما استعارت الجيوش البريطانية مقرها الأصلى ليستقبل جرحى حرب الدردنيل وغاليبولى .

لم يعد التمثيل لعبة من اللعب ، بل هو أمر ذو شأن عظيم . ألم نر

ناظرنا المستر شارمن وأساتذتنا يهرعون عن بكرة أبيهم ، لمشاهدة أستاذنا محمد عبد الرحيم يلعب دور البطل ؟

فلم تمر علينا إجازة الصيف حتى كنا نمثل مع زملاء لنا فى بيت أحدهم بجنينة مميش رواية « فى ظلمات القصر الشمالى » ، وهى تمثيلية مطبوعة ، ميزتها الوحيدة النافعة أنها تخلو من أدوار الإناث .

قضينا عامين بقصر جناكليس ، وقد نشط زملاء «القصر الشمالى» فى ناحيتين : الرسم بالفحم ، والتمثيل . وكنا نجتمع فى فسحة نصف النهار الطويلة لإجراء البروفات فى فصل من الفصول ، لا على تمثيلية كاملة ، ولكن على مناظر من لويس الحادى عشر ، وبالإنجليزية من هاملت وماكبث .

وذات يوم عاب علينا واحد من أساتذتنا اهتمامنا بتلك الروايات الأجنبية ، واقترح أن نضيف إلى برنامج تدريباتنا . . منظر وفود العرب على كسرى. فأخرجنا أكبر إحراج حيال مجموعة من خطب تقعقع بالشنان ، وتدمغ كل شعوب الأرض بصفات من أمثال « المنحفة » و « المقشرة » !! ولم يخلصنا من الورطة سوى اختيارنا لمنظر من تمثيلية اسمها « امرؤ القيس » تأليف واحد من أساتذة اللغة العربية بمدرستنا ، حرص على أن يجىء أسلوبها على مستوى المعلقات السبع أو العشر .

وعندما استأذنا الناظر فى إقامة حفلتنا النهارية بقاعة المكتبة ، طلب منى نسخة أعمال شكسبير ، وأجرى قلم رقابته الصارمة على بعض فقرات مما اخترنا ، لما فيها من مجازات غير مؤدبة . .

ثم منعت من الاشتراك فى الحفلة ، عقاباً لى على نسيانى موعد مباراة الجمباز لسنة رابعة فصل رابع ، ولم يسمح لى بغير إلقاء قصيدتى فى الرفق بالحيوان .

ولم تتقدم جمعيتنا التمثيلية فى جهودها إلى أبعد من ذلك . بيد أن نشاطنا انتقل إلى خارج المدرسة حينما دلنا أهل الخير على جمعية تمثيلية ،

عرفت فيها ممثلها الأول الأخ زكي طليمات . وكانت تعد رواية ميلودرامية « تاجر الأرواح » تأليف مدرس ثانوي . وأذكر في اجتماع لنا أن اعترض البعض على ما يمكن أن يتطرق إليه معنى العنوان ، من أنه تاجر الملبس والفونضان ، وكان يعرف فى زماننا باسم تاجر الأرواح . وضحكنا ممن اقترح علينا تسمية الرواية « تاجر النفوس » عندما ظهر أن كلمة النفوس تعني تاجر الممبار وفضلات السلخانة !

وأذكر منظراً فى ختام الرواية يفتح فيه الشرير قمطراً تنطلق منه رصاصة ترديه ، وإذا بالمسدس المفروض أن يطلق من الكواليس فى تلك اللحظة . . يضرب عن العمل (كالعادة!) ، مما اضطر الشرير أن يصعق بدون سبب ظاهر ! .

كما أذكر زميلا دخل المنظر الأول (وهو صالون) وقد نسى القبعة العالية مسلطحة إلى الخلف فوق رأسه ، ولا ضير من هذا فقد كانت معارفنا عن بروتوكول الخواجات قليلة . وإنما واجه الزميل جمهوره ببزة البونجور ، والبنطلون الرمادى . . وقد انفرجت مغاليقه .

كانت تلك مناظر مألوفة فى تشخيص الهوة ، ناهيك بالشوارب المستعارة تنعكص فردة منها وتميل بزاوية قائمة ما بين الشفة والفك ، وباللحى المنهارة على النحور والصدور ، يصر الزملاء على إعادة لصقها . . دون جدوى !

ومثلت جمعيتنا رواية « شاترتون » لألفريد دوفينى (ترجمة المرحوم عباس حافظ) ، وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز (ممسرحة فى إنجلترا) ، وقد اشتركت فى الروايتين وبأدوار صغيرة ، تدخل فى عداد الكومبارس الناطق ، أما فى « تاجر الأرواح » فقد أسند إلى دور . . الملقن ، عندما مثلتها الجمعية على مسرح بحلوان .

وفى عام ١٩١٧ شاهدت الشيخ سلامة حجازى لآخر مرة فى رواية

« عظة الملوك » وسمعت فيها لحناً صينياً جديداً للشيخ تغنيه الجوقة برئاسة عبد العزيز بشندى على كلام عجيب أذكر منه « شن شِيشِن كاره شن شن » !

وكانت عضويتى بالجمعية التمثيلية سبيلا إلى حضور بروفات فرقة عبد الرحمن رشدى الأولى . وهناك رأيت سليمان نجيب لأول مرة ، وعرفت الممثل الكبير عمر وصفى ، كما حضرت بروفات فرقة جورج أبيض عندما انضم إليها الصديق زكى طليمات ، ورأيته يمثل دور دوق دى نيمور فى « لويس الحادى عشر » ، ورأيت هناك أيضاً السيدة روز اليوسف لأول مرة .

لم يغير هذا النشاط الخارجى شيئاً من نظام حياتى الداخلية ، ومحاولات تطويع الأسلوب للتفكير الحديث بترجمة مختارات من الشعر الإنجليزى ، وبعض مناظر من تمثيليات سبقت الإشارة إليها .

ولم نعد إلى المسرح ، فى مرحلة دراستنا العالية ، إلا كمترجمين لتمثيليات ضعيفة: « هارولد » للشاعر اللورد تنيسون ، و « غادة ليون » للروائى اللورد ليتون ، و « إخوان السلاح » لكاتول منديس . وقد رأيت فى هذه الأخيرة الأخ فتوح نشاطى يخطو خطواته الأولى على المسرح ، مع نادى المعارف ، الذى أخرج أيضاً رواية « غادة ليون » . وتقاضيت جنيهاً واحداً عن كل من الروايتين « مقدم أتعاب » .. دون مؤخر أكلوه علينا !

وترجمنا ومصرنا فارص موليير «طبيب رغم أنفه» ليمثلها نادى مدرسة الطب ، وكنا قد انتقلنا فى هواياتنا إلى الموسيقى ، فلم نشارك فى التمثيل بحفلة النادى السنوية ، بل حملنا بعض عبء البرنامج الموسيقى . .

ولندع حكاية الموسيقى إلى الفصل التالى .

الموسيقى الصعبة

- قد يكون مفهوماً أن تعيش عمرك ، وتطالع الآداب العالمية فى لغاتها ، أو أصدائها فيما بين أيدينا من كتب عربية ، وأن تقبل على الفن التشكيلى فى أحدث ظواهره وآخر صيحاته . ولكن من هم أولئك الذين يتحررون من ربقة الألحان المشجية المبكية ، والأغانى الصادحة تلعلع بها حناجر ذهبية ، ليستمعوا إلى موسيقى الخرس البكم ، تؤديها آلات مصلحة تصليحاً طارداً لأرباع أو أثلاث أو أخماس النغم ، لا تكاد تسمع منها لحناً واحداً عليه الطلا ، دون أن تقتحمه ألحان أخر يختلط حابلها بنابلها فى هرج ومرج لا يعرف له أول من آخر . مزامير وصفافير من فضة أو خشب ، وبوقات من نحاس ، وطبول كقزانات المسمط ، وزخمات أوتار تذبذب تحت لمسة أقواس طوال وقصار ، أو تغمز بالأصابع ، وزول يوليك عرض أكتافه ، ويهوش بعصبية ، يزعم بأنه يرقص عليها الآلات ، وهو وحده الراقص بها . ثم ما تلك التمثيليات تؤدى طول الوقت بالغناء المزعج ، يتبارزون فيها صادحين ، ويعالجون سكرات الموت بالصوت فاقعين ، يختلط فيها نشيد الجماعات بألحان الأفراد ، وتمتزج هذه بعضها ببعض مشوشة مخلطة . وما تلك الأغانى تجأر بها حناجر رجال قدت من صلب ، وتولول بها نسوة سمينات تشكين لطوب الأرض من ظلم أو هيام ، وتطالبن فى غضب بالثأر والانتقام . وما هى تلك الأسماء الأجنبية ما بين ألمان وطليان ، ومسكوف وأسبان ، يتشدق بها طلاب الجامعات وبعض أساتذتهم ؟

وإذا شئنا أن نعرف كيف نزلت بنا نازلة الموسيقى الأوربية تلك فى آخر الزمان ، فلنتهم الأسطوانات والمسجلات ، وكلا البرنامجين الأوربى

والثانى ، وما أثاره بعض أساتذة الجامعات فى نفوس طلبتهم يجتمعون حول البك – آب فى المدرجات يستمعون إلى ضروب من الشرح تغرر بهم فيما تزعم من تحليل لتلك الموسيقى الأجنبية ، ثم يقال لهم إن الاستماع إليها ظاهرة حضارية لم تعد مقصورة على أهل الغرب وحدهم ، وبأن هواتها انتشروا على طول آسيا وعرضها ، ومن الشمال الإفريقى حتى أقاصى أو أدانى قارتنا الناهضة .

ثم يجىء أعضاء أوركسترا القاهرة السمفونى، والكورال المصرى ضغثاً على أبالة ، يخدمون على الفرق الروسية والإيطالية واليوغوسلافية ، يشاركون فى أوزارها الفنية ، ويتفردون بأداء ما يسمونه السمفونيات والكونشرتوات والفانتازيات والقصيد السمفونى .

ويضرب المتخلفون أكفاً بأكف ، مستعيذين محوقلين ، يلعنون موجات الحضارة التى جرفتنا فى تيارها المخيف لتبعدنا عن قواعدنا ومراسينا.

ولكن ، نحن شباب ما بين الحربين ، وغلمان الحرب العالمية الأولى، نحن طليعة ضحايا الحضارة الغربية فى هذا القرن العشرين ، ماذا أودى بنا إلى هوة موسيقى الخواجة بيتهوفن ، والهر باخ أو موزار ، والسنيور فيفالدى أو فردى ، والمسيو برليوز أورافيل ، والدكتور بورودين ، والبكباشى البحرى رمسكى – كورساكوف ؟ فلم يكن الفونوغراف فى زماننا سوى خشخشة وخرفشة ،والإذاعة فى عالم الغيب،وكانت الجامعة أملا لن يتحقق وشيكاً . ولم تقم المربيات الأجنبيات على تربيتنا حتى تعوج ألسنتنا وتبلبل أحاسيسنا . نشأنا فى الأحياء البلدية على الطقاطيق والتواشيح والأدوار والبشارف والسماعيات،ورددنا ألحان الشيخ سلامة والخلعى وداود حسنى وسيد درويش . فما الذى غرر بنا ، وحبب إلينا الموسيقى الغربية فى أرفع وأصعب منجزاتها ؟

والجواب ميسر سهل لمن يقرأ لنا ، ويتابع عوامل تطورنا من

شغف بالآداب العالمية ، وهواية للتمثيل والتصوير ، وما ندين به لأساتذتنا فى المرحلة الثانوية من تفتح أذهاننا لما وراء حدودنا من فكر ومعارف بيد أن أستاذاً واحداً من هؤلاء لم يجر لسانه بكلمة الموسيقى — وكانت شبه محرمة علينا —ولا باسم من أسماء عظمائها. ولعل قراء المنفلوطى يذكرون رواية « تحت ظلال الزيزفون » لألفونس كار ، وما يرد فيها من إشارة إلى المدعو بيتهوفن وألحانه . ولعلها كانت أول مرة أرى فيها ذلك الاسم مكتوباً ، وإن كنت قد سمعت به عرضاً من قبل .

كانت الموسيقات العسكرية تتبادل كراسى كشك حديقة الأزبكية : موسيقى الجيش المصرى عصر الجمعة ، وموسيقى البريطانيين عصر الأحد . فمن لا يذكر الصول عامر غزال وبرامجه تداول بين الموسيقى المصرية والموسيقى الغربية . أو الويلش باند وهى تقدم افتتاحيات وفانتازيات (أى منتخبات) من أشهر الأوبرات ، إلى أدوار من الموسيقى الخفيفة ، مثل مارشات سوزا ، و«على ضفاف نهر سوانى» ،وأوبريتات جلبرت وسوليفان؟

وكانت دور السينما الكبيرة وسط المدينة تعمل فى نفوسنا عملها الخفى ، عن طريق مجموعاتها الموسيقية تجلس تحت الشاشة ، وتعزف مختارات توائم الأحداث الجارية فى صمت كامل على الشاشة . ولم يكن يوجد بالقاهرة أو الإسكندرية من فندق كبير أو كازينو أو مشرب شاى دون أن يستخدم عدداً من خيرة العازفين ، الواردين من كونسرفتوارات إيطاليا ، غالباً ، يلتفون حول البيانو ليؤدوا نماذج طيبة من الموسيقى الغربية .

من « تحت ظلال الزيزفون » ، وحول كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية ، وفى ظلام السينما الصامت يسنده أوركسترا قد يبلغ عشرة أفراد أو يزيد ، تنبهت فينا حاسة جديدة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن إحساسنا بأغانينا وألحاننا وكأننا خلقنا خلقاً جديداً .

إلى أن طالعنا ذات مرة على باب سينما كليبر — ركن عماد الدين

وما كان يعرف فى زماننا بشارع بولاق — إعلاناً عن شىء اسمه الأوركسترا السمفونى ، وبرنامج وضعت فى أوله هذه الكلمات : بيتهوفن : السمفونية السابعة .

وكان هذا الأوركسترا يتألف من العازفين المجيدين بالفنادق والسينمات ومشارب الشاى ، لا يجدون متسعاً من الوقت لاجتماعهم إلا بين الحادية عشرة صباحاً والواحدة بعد ظهر يوم الأحد . وكنا طلبة بالمدارس العالية ، لا تقيد حريتنا لحضور المحاضرات ، فارتكبت أول زلة عندما قررت أن أزوغ من محاضرة الكيمياء بما كان يعرف بسنة أولى طب . وهكذا قدر لى أن تعتدى موسيقى بيتهوفن وما إليها على محاضرات الكيمياء ،يوم الأحد ، وكان ذلك أول المنحدر إلى الخلل فى دراستى الطبية الأولى ، حين حرصت على الاستماع كل صباح أحد إلى الحفلات السمفونية بسينما كليبر ، يقودها ميشيل بولياكين ، أو بقاعة الكورسال الكبيرة بقيادة إدجار بونوى .

كنت وحدى فى تلك المغامرة التى حاولت أن أستدرج إليها بعض زملائى ، فطار أولهم منى عندما أخطأ فى قراءة عنوان افتتاحية تأليف ليتولف ، اسمها « كليوبترا » فطالعها « كوليوبترا » ، إذ كنا ندرس فى ذلك الوقت تقسيم الحشرات باباً من أبواب علم الحيوان .

ومال ثانيهم على ، وأنا مستغرق فى الاستماع إلى كونشرتو مندلسون للفيولينة ليقول : هلا حضرت حفلات نادى الموسيقى الشرقى ؟

فلم أكذب خبراً وصاحبته إلى حفلة النادى ذات مساء بعمارة قرب الأزبكية،وهناك رأيت وسمعت أقطاب الموسيقى الشرقية الأصيلة من مؤسسى ذلك النادى طويل العمر ، فعرفت أن طريقى وطريق زميلى يفترقان ، وأن كنوز الموسيقى العربية شىء جدير بأن يعتنى به ، ويدرس ويحفظ ويؤدى على أصوله . ولكن على أن لا يقف فى طريقى نحو التعرف

على تلك الموسيقى الغربية العجيبة ، والتزود بكل ما تقع عليه يداى وعيناى وأذناى من شئونها .

وبدأت — مع زميل الطفولة ، حسن فتحى — دروس الفيولينة على أستاذ إيطالى ، كان العازف الأول بمحل شاى مشهور بشارع بولاق .

وكعادتى فى الاستعانة بالكتب لمعالجة كل مشكل ذهنى لى ، انطلقت أطالع كل ما يقع لى من كتب عن الموسيقى والموسيقيين ، وكان أولها كتاباً استعرته من دار الكتب تأليف جول كومباريو عن « الموسيقى وقوانينها وتطورها » وثانيها تاريخ الموسيقى للمؤلف نفسه فى ثلاثة مجلدات كبيرة ، وغير ذلك من تراجم كبار الموسيقيين .

ولقلة فرص الاستماع فى ذلك الزمان (على العكس من الوقت الحاضر ، حيث تنتشر المسجلات الموسيقية) ، سبقت معارفى الكتابية خبراتى الفعلية بالموسيقى ومع ذلك فقد سمعنا نحو ست سمفونيات لبيتهوفن ، وسمفونية لكل من هايدن وموزار وشوبرت وشومان ومندلسون وبرامز وسيزار فوانك ، وبضعة كونشرتوات وأغنيات فنية « ليدر » لشوبرت وشومان ،وقصائد سمفونية لسان صانس وشهر زاد لرمسكى — كورساكوف و « ليلة على الجبل الأجرد» لمسورجسكى و « فى دهاس آسيا الوسطى » لبورودين ، وأهم الافتتاحيات الإيطالية ، وافتتاحيات موزار و « روسلان ولودميلا » و «كامارنسكايا » لجلنكا ، وما زلت أحتفظ ضمن أوراق بكثير من برامج الموسيقى التى سمعت فى ذلك العهد البعيد .

ثم انطلقت ثورة ١٩ لتخرجنا من عالمنا المدرسى الضيق . وتمهد لنا لقاء المجموعة الطيبة من رواد الثقافة التى ذكرت بعض أسماء أصحابها ، وإذا بأغلبهم من عشاق الموسيقى الرفيعة مثلنا ، وهذه ظاهرة عجيبة : أن تسلك طريقك وحدك إلى بعض وعى تلك الموسيقى ، ثم تلتقى بشباب جدد سلكوا الطريق نفسه . ومنذ تعرفى على محمد رشيد

وآل تيمور ومحمود عزى وحسن محمود وفؤاد مرابط وشوقى بكير وطاهر العمرى والدكتور محمد ولى ويوسف جريس ومحمود شكرى أصبحنا نرتاد الحفلات الموسيقية فئة صغيرة بطرابيشها وسط بحر من الرؤوس العارية ، أعضاء الجاليات الأجنبية ، مع قلة من سيدات وآنسات الأسر الكبيرة خلف النقاب الأبيض ، نشأن بمدارس الراهبات ، ودرسن البيانو فى خدورهن .

عادت الفرق الأجنبية تحيي مواسمها بدار الأوبرا ، والكورسال فكان أول ما سمعت من أوبرات : «حلاق أشبيلية» لروسينى ، و «كافاليريا روستيكانا» لماسكانى بالكورسال . ثم «لوريلاى» لكاتالانى ، و «شمشون ودليلة» لسان صانس ، و «مفيستوفيليس» لبويتو ، و «تانهويزر» لفاجنر ، و «توسكا» و «مدام بترفلاى» لپوتشينى .

وغدت القاهرة مركزاً ثقافياً هاماً ، يمر به كبار العازفين ، ومجموعات الموسيقى العائلية (دا كاميرا) ، من أوربا الوسطى ، ومن إيطاليا وفرنسا ، فتعرفت على الرباعيات الوترية ، وما يقدم فى حفلات العزف المنفرد .

وليس معنى هذا أننا أهملنا موسيقانا القومية ، بل إنها لعلامة من علامات طريق النهضة وشهادة مخلصة لنوابغ الموسيقى المصرية فى أوائل العشرينات ، أن هواة الموسيقى الأوربية الرفيعة هم الذين أحبوا وآزروا وأخلصوا لذكرى الرواد الأول فى تطوير الفن الموسيقى : كامل الخلعى وداود حسنى ، وسيد درويش . ولقد شبت طفولتنا على ألحان الشيخ سلامة حجازى ، وأدوار عبده الحمولى ومحمد عثمان . ويطيب لى أن أذكر بالخير مدرستنا الحديثة فقد كانت أول جماعة تقيم حفل تأبين لسيد درويش بتياترو حديقة الأزبكية .

مرد هذا إلى أننا من أول من أدرك ووعى الخطوات الأولى فى طريق تحرير موسيقانا القومية ، وتطويعها لضروب جديدة فى التعبير . وأتيح لنا

هذا الوعى نتيجة لخبرتنا بما كان يقدم فى مصر من موسيقى المجموعات الصغيرة والأوركسترا والأوبرا .

وهذا ما يسميه بعض المتجنين علينا « عقدة الخواجة » . وليست هناك عقدة ، أو خواجة ، وإنما هو الإيمان بكل ما هو عظيم ، وصادق وجميل فى الحياة .

أفندية بحق وحقيق

أعجب رتبة فى دنيانا قبل الطوفان كانت رتبة « أفندى » : لم تعرف لها براءة ، ولم تحدد الفئة التى يحق لها هذا اللقب . ومع ذلك كنا نسمع بأن قاضى الإسلام التركى ، سيد الجهلاء (راجع ابن إياس) ، يحمل لقب أفندى ، وأن ولى عهد سلطنة البادشاه يلقب بالأفندى حظرتلرى ، وخديو مصر كان لرعاياه المخلصين « أفندينا » ، وبنت البلد إذا تزوجت لابس بنطلون قالت : لفندى بتاعى . وكان غلمان الأزقة إذا رأونا فى طريقنا بالبنطلون القصير ، تندروا قائلين : يا واد يا فندى .

وقد لا يعرف الكثيرون أن كلمة أفندينا ترد فى السلام المصرى القديم (وهو السلام الخديوى فالسلطانى فالملكى) ، الذى زعموا أنه من تأليف فردى . وهأنذا أذيع السر المهول : « أفندينا دخل الديوان والعسكر ضربوا له سلام » ، وتذكرنى هذه الكلمات الجوامع ببيت الشعر المشهور « ربابة ربة البيت ، تصب الخل فى الزيت » .

وسنة الارتقاء جعلتنى أشهد زماناً أصبح فيه كل الناس بهوات إلى درجة أن زميلا حلو الدعابة استطاع أن يخلصنا من البكوية العمومية بلباقة فلم تكن نتخاطب فيما بيننا إلا بقولنا : « فهمت الفولة يا معالى الباشا » ؟ وأن ما لا يعرفه أبناء الجيل الحالى هو أن الرتب كانت موضع

سخرية أغلب أهل جيلى الثائر . وقد أكد الزمان سخريتنا عندما سمعنا فى أواخره بمعالى الست ، ورفعة الهانم ، وفى أوائله بوالدة باشا !

قيل لى مثلا بعد الشهادة الابتدائية إننى آنفاً ، وعلى سن ورمح ، أفندى . وإذا بمدرس اللغة العربية فى أول يوم لنا بالمدرسة السعيدية وقد رأى بعضنا بالبنطلونات القصيرة ، يوجه كلامه إلى ضابط المدرسة : لا يا حمدى أفندى ، دول تجيبوا لهم مرضعات بقى !

ثم أكدوا لنا بعد البكالوريا أننا أفندية بحق وحقيق . . ولم يكن أمر ذلك بأكثر صحة من سابقه .

ولكن أعجب شىء فى زماننا هو أن الناس كانوا يعتبرونك دكتوراً منذ يوم قبولك بمدرسة الطب المصرية ، وكنا أبناء الحضر سواء فى هذا وأبناء الريف . وحدثنى زميل من الريف عن اضطراره ، قبل أن يضع قدمه على عتبة قصر العينى إلى اقتناء سماعة ، وبعض الأدوية ، استجابة لأهله وجيرانه فى البلدة .

ولم يكن أقل عجباً ، حتى وقد تخرجت من مدرسة الطب ، أن يستدعينى صديق من أهل الفن لأعود مريضةمن أهله ، ولما يمض على تخرجى أسبوع ، وأعترف بأنى اضطررت إلى التعجيل بطبع تذاكر الروشتات ، ومراجعة بعض جرعات المادة الطبية التى توقعت أن أصفها . فسوف أكشف على المريضة ، وهذا شىء خبرته ، وسأجريه على أحدث وسائل الكشف الطبى ، وسأتمكن من التشخيص التفاضلى الذى أبلغنا أسراره على لسان نوابغ الطب فى مدرستنا . أما أن أضطر إلى إخراج دفتر من جيبى لأنقل عنه جرعات الأدوية التى أركب منها الروشتة ، فذلك أمر لا يجوز ، بل يعتبر فضيحة لزميلى الفنان أمام أهله !

عندما عينت عميداً لأول كلية علوم بالإسكندرية لم تفوت على أقسى الأعباء التى حملتها وزملائى فى إنشاء تلك الكلية عام ١٩٤٢ ، أن أراقب

الطلبة الجدد ، وهم ينتقلون من قيود التعليم الثانوى إلى حرية التعليم الجامعى ، وأن أقارن بينهم وبيننا على مدى ربع قرن ، أى منذ التحقنا بمدرسة الطب المصرية سنة ١٩١٧ . هل كانت الظاهرة نفسها ؟ لا أظن ، فقد انتظمنا فى التعليم العالى قبل ثورة ١٩ ، ودخلوا هم بعدها ، وبعد غيرها من القلاقل والمظاهرات والاضطرابات ، طلاباً للحرية والاستقلال . نحن دخلنا المعاهد العالية قططاً عمياء ، ودخلوها هم شباباً أبلى ،وكافح فى سبيل الوطن ، ربما أكثر مما كافح فى سبيل العلم والمعرفة.

وفدوا هم على الجامعة فتية وفتيات ، وفى زماننا هاج الكتاب وماجوا فى الصحف ، إذ علموا بأن فتاة مصرية أصيلة . . التحقت بشركة التليفونات . وكانت الفتاة تحجز وراء نقاب أسود أو أبيض ، وتجلبب بملاءة سوداء ، قبل أن يسمح لها بالالتحاق بمدارس المعلمات فقط !

وإذا كنا قد عرفنا الحرية فى مدارسنا العالية ، كما عرفوها فى الجامعة ، فقد كنا نعيش فى مجتمع لا نساء فيه غير أهلنا الأقربين ، وغير خيالات ، وظلال تلمع فيها عيون ساحرات ، خلف النقب ، وخلال شيش النوافذ المواربة .

ومع ذلك فلم يكن الفرق كبيراً فى كلية علوم الأربعينات . فالفتيات ما فتئن يتعثرن فى مشيتهن ، ويعتبرن الفتيان بعابع ، ويمارسن التكتيك الحربى المعروف بالقنفذ ، حين كن يتجمعن فى صف أو صفين بالمدرجات ، أو يقعدن فى ساحة الجامعة متكأكئات ، والطلبة يحومون حولهن كالذئاب ، باحثين عن ثغرة بين أشواك القنفذ اللاذعة ! .

لم أكتشف جديداً بعد اقتحام الطالبات لأسوار الجامعة ، فقد ظل الحب هو الحب ، على البعد ، و « بنت الجيران » ما لبثت اصطلاحاً غرامياً عرفناه فى شبابنا ، ذلك المخلوق البعيد جداً ، نتحدث إليه بالإشارات الضوئية فى الليل ، وبالكتابة الهوائية بالنهار . ونسترق لحظات

محمومة خاطفة ، يحكمها — أو يرفرف عليها إذا فضلت — الطهر والعفاف من الجانبين ، مما أضفى على الحب فى زماننا رومانتيكية حامية متفجرة ، أشبه بما كنا نطالعه من أشعار العذرى والمجنون ، أو ألفريد دى موسيه ، وألفونس دى لامارتين .

ولقد اصطحبت فى زمانى صديقاً من الأسر الكبيرة ، خطب فتاة من بيئته ، فلم تكن ثمة وسيلة لترى خطيبها إلا أن يوضع لها فى بنوار بأحد المسارح ، وتجلس الخطيبة فى لوج خلف نقابها وستائر الدنتلا ، لتفحصه على بعد عشرين متراً من أعلى إلى أسفل ، وآمل أن يكون حياؤها قد حال بينها وبين استعمال المنظار المقرب . أما صديقى فأشهد أنه لم يسمح له حتى بصورة للخطيبة !

وصورت فى قصة قصيرة زواجاً تم بين فتاة أتمت تعليمها بالمدارس الأجنبية ، وهوت الموسيقى ، وأتقنت العزف على البيانو ، زفت إلى شاب من الأعيان توقف عند شهادة الكفاءة ، كل هواياته تدور حول ماديات الحياة . صورة تخيلتها ولم أنقلها عن واقع خبرته . . ثم عرفت بعد سنوات طويلة بوقائع أثبتت لى أن خيالى فى تلك القصة لم يبتعد كثيراً عن الواقع .

وإذا لم أستطع أن أنفذ إلى نفوس أبنائى بكلية العلوم لأعرف أثر انتقالهم من المرحلة الثانوية ، وانتظامهم معاً فى الجامعة ، فلا أقل من أن أصور واقعى أنا منذ أكتوبر ١٩١٧ وأنا أمضى فى شارع مدرسة الطب لأطرق مرحلة الدراسة العالية .

قيل : لا تمش فى الأرض مرحاً فإنك لن تبلغ إلخ إلخ . . وكأن هذا القول موجه إلينا ، فقد كنا ندلف إلى باحة المدرسة نافشين كالدنادى ونجتمع حول تمثال كلوت بك منشئ مدرستنا فى النصف الأول من القرن الماضى ، لنتناقش مسائل علمية عويصة فى الطبيعة أو الكيمياء ، أو علم الوراثة ، أو فكرة النشوء والارتقاء ، وكان يضاف إلى دروس الإعدادى ،

« المادة الطبية » كلها ، ونمتحن فيها . وبعض مقدمات فى علم التشريح الإنسانى ، ولا نمتحن فيها ، انتظاراً لانتقالنا إلى السنة الثانية . ذلك لأن مدى السنة الأولى كان يمتد إلى خمسة عشر شهراً ، فكانت تلك الدراسة الإضافية تعتبر كسباً للوقت ، واستعداداً للدراسات المقبلة .

ومع أن سوء حظنا قد أفقدنا — بسبب الحرب — أساتذتنا الألمان ، فإن كتبهم — ومنها ذلك الكتاب القيم للأستاذ لوس « مقدمة إلى البيولوجيا » — كانت بين أيدينا ، وتلاميذهم قاموا على دراستنا . ولعل حبي لعلم الحياة قد نشأ منذ اللحظات الأولى بمدرسة الطب .

وأعرف بعد ذلك أنى أحببت دروسى الطبية كلها ، وما زلت أحمل لها أقوى مشاعر العرفان بالجميل . فهى التى قومت فى العقلية العلمية ، وهى التى أعانتنى على فهم الإنسان حين أوقفتنى على دخائله التشريحية والفسيولوجية والمرضية . وقد بدأت رحلتى حول الإنسان بالحيوانات الدنيا ، حتى انتهيت إليه . ثم عدت إلى الحيوانات الدنيا عندما انتقلت بعد سنوات إلى دراسة الحياة فى البحار والمياه العذبة . فكأننى رحلت ذهاباً وإياباً ، أو صعوداً ونزولا ، حول الإنسان ، وما قبل الإنسان فى التسلسل الطبيعى للحياة على ظهر البسيطة .

ولكن ، ماذا كان حال الأدب والفن ، وهل اصطدم بالدراسة العلمية؟

أى نعم ، كان صداماً عنيفاً جداً تمزقت له شخصيتى ، وسبب لى بعض الخلل فى خط دراستى ، مما أخرنى عن الصنف الأول . وبعد ثورة ١٩١٩ التى أبعدتنا عن الدرس عاماً كاملا ، عدت إلى مدرستى حطاماً آدمياً ، يتنازعه حب الفن والأدب ، والفروض القاسية التى تتطلب من طالب الطب كل وقته .

ولم أشعر بميل خاص نحو علاج الأمراض ، إلى جانب شغفى بالبحث عن أسباب المرض ، فى دراسة العلوم التى يبنى عليها الطب

العلاجى ، وهى التى تعرف فى كلية الطب بالأقسام الأكاديمية . ولم أك أفسر لنفسى المعنى الداخلى البسيكولوجى ، لهذا الشغف ، حتى عرفت فيما بعد أنه يمثل الاتجاه المعروف نحو البحث العلمى .

إنما بقى لى من دراستى الطبية حب الفحص والتشخيص لكل ما يعرض لى من شئون الحياة ، فردية أو اجتماعية ، سياسية أو فنية أو أدبية .

إن العلم والرومانتيكية صديقان لدودان . ولقاؤنا الأول بالأدب والفن كان رومانتيكياً فى أعنف ما تكون الرومانتيكية ، وهى أقرب إلى المرض من الصحة . وبفضل الدراسة الطبية ، وبممارسة العلوم فيما بعد ، استطعت أن أتخلص من المرض الرومانتيكى رويداً .

ولم أكن وحدى فريسة الرومانتيكية بمدرسة الطب ، فقد عرفت زملاء لى هناك يتعشقون الأدب والفن ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، المرحومين : ناظر مدرستنا الحديثة أحمد خيرى سعيد ، والشاعر المرهف الحس ، إبراهيم ناجى . عرفت ناجى من بين طلبة الدفعة السابقة علينا ، وتبادلنا الكتب والاطلاع ، وأنصتنا إلى صوته المتهدج يتلو علينا أشعاره ، وكأنه يرتجلها فى التو والساعة . وأشهد لدفعتى ، والدفع القريبة منها ، أن تخرجت منها فئة ممتازة فى تخصصها ، ممتازة فى الفن والأدب أيضاً . يكفى أن أذكر من بينها من أملك التحدث عن نبوغه ، وهو أول دفعتنا ، صديقى الدكتور محمد كامل حسين ، العلامة الباحث ، والجراح الكبير ، والأديب الفذ .

إننى إذ أستعرض فى ذاكرتى تلك السنين الرائعة ، وما عركناه فى ثورة ١٩ وقد تحولنا من الدراسة إلى السياسية فى بيت وفدى كبير ، كان واحد من أبنائه رئيساً للجنة الطلبة العليا ، وكان ابنه الآخر زميلا لنا ، نتلقى فى ذلك البيت تعليماتنا اليومية ، من الذهاب كل ليلة لنخطب الآلاف المجتمعة بالأزهر الشريف ، قلب الوطنية النابض ، إلى الانتظام فى

المظاهرات ، أو مقابلة الزعماء ، ومناقشتهم فى ضرورة مقاطعة لجنة ملنر ، أو مراقبة من نخشى أن يخالف الإجماع منهم . . . . . .

وإذ أفكر بانكبابى على دراسة الموسيقى ، ومواصلة مطالعاتى فى الأدب والفن والتاريخ ، وإقبالى على معارض الفن التشكيلى (معرض الربيع الأول) ، وتشتت حالى بين كل ذلك ودراسة الطب ، وأزمة الحب التى انتابتنى وكادت تهد من كيانى ، لا أرى وصفاً لتلك الحقبة فى تكوينى إلا بما توصف به الملاحم . فقد كانت حقاً أول ملحمة من ملاحم حياتى ، لم ينقذنى منها سوى تخرجى من مدرسة الطب سنة ١٩٢٣ ، والتحاق بمستشفيات الرمد الأميرية، وكانت مضرب الأمثال فى حسن الإدارة والنظام ، ونموذجاً للكفاية العلمية والفنية .

حقبة مليئة بعقومات الحياة النابضة المكافحة ، وشبوب العاطفة نحو الوطن ، ونحو الأصدقاء ، ونحو المرأة . . .

ولا أدرى بأيها أبدأ ، وربما كان من الخير أن أقف عندما قدمت ، إلا أن أجمع كل ذلك فى صورة واحدة ، فالعاطفة المشبوبة لا سبيل هنا إلى تصويرها إلا بالاستناد إلى وقائعها العامة ، لا إلى الفردية فيها . فليس الهدف من هذه الصحائف تاريخ حياة فرد بعينه ، وإنما تصوير الظروف التى نشأ فيها جيلنا كله .

يا عم حمزة إحنا التلامذة

بعد أيام من التحاقى بمدرسة الطب المصرية ، توفى السلطان حسين كامل ، وتقرر أن يمشى فى جنازته الأربعة الأول من كل فرقة ، فكنت واحداً ممن شيعوا جنازة سلطان مصر .

ماذا كنت أعرف عن السلطان الراحل ؟ لقد دخل علينا فى المدرسة السعيدية ، وأنا بالسنة الثانية ، فى حصة مطالعة إنجليزية ، وكان عدلى باشا يكن وزير المعارف حينذاك يصحب السلطان . وكلفت أن أطالع أمامهما صفحة من رواية « جزيرة الكنز » لروبرت لويس ستيفنسون وطلب منى الناظر شارمن أن أترجم ما قرأت إلى العربية. وقد التزمت بالنص الذى طالعت ، من حديث القرصان الباحثين عن الكنز ، يحكى على لسان الغلام جيم هوكينس . فسألنى السلطان ذو الطربوش الأحمر الفاقع ، المائل بزاوية منفرجة ، والردنجوت الرمادى ، سألنى بصوت أجش : « هم مين دول ؟ » فأدليت إليه بمعلوماتى عن الكابتن جون سلفر رئيس القرصان وجماعته ، وصراعهم فى سبيل الحصول على الكنز . .

لم نكن ندرى بما جرى فى مدرسة الحقوق من سوء استقبال السلطان ، وهى الواقعة التى سرد حكايتها تفصيلا ، الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تأريخه لثورة سنة ١٩١٩ . ولو عرفنا لترددنا فى ذكر وقائع القرصنة ، فقد تحمل كل تأويل بحضرة السلطان الذى كان الوطنيون يتهمونه باغتصاب عرش ابن أخيه المعزول .

ماذا كنت أعرف عن السلطان حسين ؟ ذهبت غلاماً بالجلابية والصندل إلى ميدان عابدين لأشهد من بعيد الاحتفال بتوليته عام ١٩١٤ ، وكل ما أسمع به هو أن الخديو عباس قد عزل ، وأن بريطانيا أعلنت

الحماية على مصر ، وولت عم الخديو المعزول . وقد أذكر لماماً أنني طالعت إعلان الحماية ملصقاً على الجدران ، وسمعنا بأن القصيدة التي يغنيها الشيخ سلامة فى رواية « هاملت » ، والتي تبدأ هكذا « عم يخون وأم لا وفاء لها » ، قد استبعدت ، أو أن الرواية ذاتها سحبت .

كما عرفنا بأن الدولة المحتلة كانت تنوى إقامة أغاخان سلطاناً على مصر ، وأذكر أنني قرأت منشوراً لزعيم المسلمين (كذا) أغاخان ، يوضح للعالم الإسلامى معنى انضمام دولة الخلافة (تركيا) إلى أعداء بريطانيا ويحل المسلمين من الولاء للدولة العثمانية .

ولا أحسبني كنت أفقه من المعانى المختفية وراء كل تلك الوقائع أكثر من أن الإنجليز هم أعداؤنا بالأمس ، واليوم ، وغداً ، وأن انتصار ألمانيا يعنى نهاية الاحتلال البغيض . وما أكثر ما كنت أحلم أحلام اليقظة — التي لم تتحقق إلا بعد ١٨ يونية ١٩٥٦ — باليوم الذى يختفى فيه من بلادنا كل أثر لتلك الأجناد ذات الوجوه الحمراء . أما حكاية الحماية فلم يكن فى استطاعتى التكييف القانونى لها . فالاحتلال هو الاحتلال ، بحماية أو بغير حماية . وهذا ما عنيته عندما قلت فى فصل سابق بأننا دخلنا المدارس العليا قططاً عمياء .

ولم نلبث طويلا بمدرسة الطب حتى تفتحت عيوننا ، ووعينا ما حل بنا فى آخر المطاف ، ومعنى الانتقال من الاحتلال الغاصب ، إلى الحماية المضروبة علينا بقوة السلاح . وأحسسنا بأنين الحنين فى أغنية الصعايدة بفرق العمال المصريين فى صحراء سينا ، وطريق بير سبع « آه يا عزيز عينى — وأنا بدى أروح بلدى ا بلدى يا بلدى — وأنا بدى أروح بلدى » وما فيها من « نوستالجيا » إلى ضفاف النيل ، وقد انتزعوا منها قسراً . وتكشفت لعيوننا ما كان يعانيه الشعب المصرى فى الريف والحضر من اعتداءات ومصادرات وخطف للعمال والغلال والجمال ،

لخدمة ميدان المعركة البريطانية التركية فى فلسطين .

وحلت سنة ١٩١٨ وتوالت أخبار انتصارات الحلفاء على دولتى الوسط ، فهدنة ١١ نوفبر ، ثم مؤتمر الصلح بفرساى . وهنا تواترت الأخبار ، وتبعتها معلومات صحيحة عن أن أهل الرأى من كبراء المصريين يجتمعون ، ويقابلون المندوب السامى (كذا) يطالبون بسفر وفد مصرى إلى مؤتمر الصلح ، وأن الوزارة المصرية كانت قد طلبت أن يسافر رئيسها رشدى باشا ، ومعه عدلى يكن باشا للتفاوض مع وزير خارجية بريطانيا فى إنهاء الحماية وإعلان استقلال مصر .

لم يكن يظهر من هذا شىء فى الصحف أو كان يظهر مستتراً بأخبار محلية عادية وإنما هى أخبار كانت تجيئنا نقلا عن الأفواه أو فى وريقات نتداولها فى المدرجات . ولا أنسى من بينها خطاباً طويلا ، بلغة إنجليزية ممتازة ، كتبه شاب مصرى ، سكرتير المستشار القضائى البريطانى ، يبين له بأجلى عبارة ، ويدافع فيه عن حق مصر فى الاستقلال . وكانت أول مرة أسمع وأقرأ فيها اسم وليم مكرم عبيد .

وفى مطالع العام التالى ١٩١٩ ، أصبحت الأخبار أكثر دقة ، والتوجيه أوضح ، وبدأنا نسمع بأسماء الزعماء ، وعلى رأسهم سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية المنتخب ، وبأن السلطة البريطانية الحامية رفضت إقامة صيوان يخطبون فيه ، ورفضت الإذن بالسفر للوزارة ، وللزعماء ، ومررت علينا أوراق المطالبة باستقلال مصر لنوقع عليها . وهى الوثيقة المشهورة بتفويض الوفد المصرى لتولى شئون قضية الاستقلال .

وفجأة ، فى صباح ٩ مارس تفجرت العاطفة المكبوتة منذ نحو أربعين عاماً ، وبخاصة منذ سنوات الحرب الكبرى ، إذ جاءنا الخبر بأن سعد زغلول وصحبه قد أخذهم الإنجليز من بيوتهم إلى مكان مجهول . وما إن بدأنا نتدبر فيما نحن فاعلون ، إذ هجمت

مظاهرة من طلبة المدارس العليا الأخرى (الزراعة والمهندسخانة والحقوق) على مدرستنا ، تدعونا للانضمام إليها . فتصدى لها ناظرنا الإنجليزى الدكتور كيتنج ، وكبس الطلبة عليه ، وأوقعوه أرضاً . وخرجنا حشداً كبيراً صاخباً ، واتجهنا إلى وسط المدينة وإذا فوانيس النور تكسر ، وعربات الترام تهشم وتكوع ، وتحرق ، وما هى إلا أيام حتى نعرف بأن ماحدث فى القاهرة تكرر فى مدن مصرية أخرى ، وأن خطوط السكك الحديدية اقتلعت ، والمظاهرات قامت فى كل مكان احتجاجاً على أختفاء زعيم الأمة وصحبه . وسمعنا بعد ذلك بأن الوزارة استقالت ، وأن لجنة الطلبة العليا قررت الإضراب إلى أجل غير مسمى وأمر هذا ميسر فى كل المدارس . إلا بمدرسة الطب ، إذ أن امتحان الدور الثانى للسنة الأولى طب وصيدلة يجرى فى مارس بالذات . فاجتمعنا بمكان ما فى حى المنيرة ونظمنا أنفسنا لإقامة حصار كامل حول جميع الطرقات المؤدية إلى المدرسة ، حتى نمنع من يحاول الوصول إلى لجنة الامتحان ممن لم يبلغهم قرار الإضراب العام . وكان الموضع المحدد لى على رصيف شارع القصر العينى بحذاء المنيرة . وأشهد أن لم يمر بنا فى صباح الامتحان أكثر من طالب أو أثنين ، وضعوا مذكراتهم فى جيوبهم ، وانضموا إلينا دون مناقشة . وكنا نعرف عن يقين أن الأسئلة معدة ، والناظر واقف بالمرصاد ليمكن من يصل إلى اللجنة من أداء الامتحان ، وليجرى قراره فى فصل المتخلفين . ولم يحضر فى ذلك اليوم طالب واحد ، وألغى امتحان الدور الثانى .

ولا أسطر هنا تاريخ ثورة ١٩ ، فأمرها مشروح بالتفصيل فى أسلوب رصين هادئ بكتاب الأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الرافعى . يكفينى أن أستعرض صورة عامة لطريقة قيامنا بالمظاهرات — ولم أشارك من قريب أو بعيد فى أى عمل من أعمال العنف ، فذلك لا يوائم طبيعة خاضعة

للمثالية الفكرية . كنا نخطر بميعاد ومكان قيام المظاهرة ، وغالباً ما كانت تبدأ عند ميدان الجامع الأزهر ، فيخطب الخطباء ، وتلقى الأزجال ، وتغنى الأناشيد . وفى هذه المظاهرات سمعت أزجال الصديق المرحوم عبد الله شداد يغنيها بصوت جميل ، وبألحان من تأليفه ، قوية التعبير . كما انتشر فى وسط الطلبة النشيد البهج الطرير الذى ألفه ولحنه ابن دفعتنا بمدرسة الطب ، الصديق الدكتور محمود أحمد الحفنى ، ويهزج قائلا : « يا عم حمزة ، احنا التلامذة » إلخ .

وفى واحدة أو أكثر من مظاهراتنا — ولا أفهم لماذا اخترنا لها اليوم لفظ المسيرات — أحاط بنا الجند البريطانى ، ونصبوا مدافعهم الرشاشة أمام جبهة المظاهرة ، وقامت طائرة للاستطلاع فوقنا (من تلك الطائرات التى كانت تشبه أقفاص الفراخ) وسقط قتلى ، رأيت من بينهم غلاماً لم يبلغ العشر سنوات . وقيل — ولم أره — بأن طالباً أزهرياً خطف مدفعاً رشاشاً وجرى به حتى هوى قتيلا فى « النومانزلاند » بين صفوف الجنود ، وطليعة المظاهرة الواقفة فى مواجهة باب الجامع الأزهر. ولقد صورت يوماً شبيهاً بتلك الأيام فى قصة لى بعنوان « صاحبى ماكفرسون » (فى كتاب : سندباد إلى الغرب) .

وأذكر مظاهرة أخرى كنا نشيع فيها جنازة الشهداء ، وداهمنا العسكر الإنجليز عند ميدان العتبة الخضراء ، فتفرقنا شذرمذر ، واتجهت إلى شارع محمد على وهناك رأيت ضابطاً مشهوراً بشواربه السوداء الكثيفة ، كان من حراس رئيس الوزراء ، وقد استل سيفه وصاح فينا شحذاً للهمم : قفوا !! الثبات ، الثبات ! . . ولات من ينادى ، فقد واصلنا العدو والاحتماء فى الحوارى ، ونحن نسمع طلقات الرصاص تختلط بأصوات طرقعة أحذيتنا فوق الأرصفة ، وانطلقت شرارة من حديد كعب واحد يجرى أمامنا . . فحسبناها رصاصة .

ولا أنسى زميلى فى الدراسة ، وابن حمتنا المرحوم الدكتور أحمد زكى مطر . وكان يمثل نوعاً من البسالة الهادئة. إذ أنه بالرغم من قدم صناعية تمنعه من العدو السريع ، لم ينكص أبداً عن الاشتراك فى المظاهرات . فإذا ما جرينا للاحتماء ممن يتعقبنا ، كانت تتنازعنى عوامل النجاة بنفسى ، وعامل الزمالة والأخوة فأخفف من عدوى حتى لا أفترق عن صديقى الشجاع .

وسأحكى فى الفصل التالى قصة حصار الإنجليز للأزهر ، لمنعنا من الوصول إليه للاشتراك فى ليالى الوطنية العظيمة . وكيف وقف زملاؤنا الأزهريون على مقربة من الديدبانات الإنجليز يسرون إلينا بكلمة « زاوية العميان » وكيف كان يقودنا بعضهم خلال دروب الأربع القديمة إلى باب خلفى من أبواب الأزهر يعرف بهذا الاسم ، لا يدرى الإنجليز بأمره . وقد تنبه ديدبان إنجليزى نجيب إلى الكلمة وحسبها تعنى « ممنوع المرور » فكان يرددها لمن يفد عليه منا ، بلكنته هكذا «آوت إلميان» فيتلقانا الدليل الأزهرى إلى الممرات الخفية فى ظلام الليل ، على ضوء مسرجة من صفيح .

فى ليلة من تلك الليالى التاريخية ــ حين كان الخطباء من علماء المسلمين ورجال الأكليروس القبطى يتداولون المنصة إنهاضاً للهمم ، وإيقاداً للشعلة المقدسة ــ كانت التعليمات قد ألقيت إلينا بحماية الجبهة الموحدة ضد عوامل التفرقة ، يوم نشرت الصحف نداء للزعماء يطالبون الأمة بالهدوء والكف عن كل مظاهر العنف . لم نكن نعرف إن كانت تلك خطة سياسية مرسومة أو أنهم صدعوا بأمر عسكرى . مهمتنا كانت أن نقاوم التهجم على هذا النداء من قبيل رسل حزب يعارض الوفد . وقد احتدم النزاع بين خطبائنا من طلبة الطب والحقوق ، وبين طالب بالحقوق أوفد من قبل ذلك الحزب ، وكان من أقدر خطباء الثورة بياناً وفصاحة وحماساً . وانفض الاجتماع مبكراً ، مما دعا بعض المتحمسين للسهرة الليلية إلى محاولة الاعتداء على جماعتنا ، التى اعتبرت مسئولة

عن « فشل الاجتماع » فصرخ فيهم أجهرنا صوتاً ، وأقوانا عضلا ، وأثبتنا جناناً — الدكتور محمد حلمي الجيار — ونادى بوحدة الزعامة ، وبسقوط دعاة الفرقة والانشقاق . وكان لموقفه الشجاع الفضل فى نجاتنا من الضرب . . بالمراكيب .

هذا ما كان من أمر الطلبة الذين التحقوا بالمدارس العليا . . قططاً عمياء . وقد قضوا العام كل حسب ما يحسن وما يستطيع القيام به دفاعاً عن مقدرات الوطن ، وطلاباً للاستقلال التام ، ولم يتحقق وشيكاً ، أو الموت الزؤام ، وقد ظفر بشرف الاستشهاد من بيننا غير قليل .

كان أثر الثورة علينا أشبه بالإعصار، وقد جرفت الموجة العارمة زملاء لنا استقروا فى السجون حتى أخرجهم سعد زغلول فى أول وزارة رأسها — وكانت الأخيرة — ورحم الله من قضى منهم على أعواد المشانق ، أو برصاص الغادرين . وعاد من عاد منا إلى مدارسهم، شباباً أنضجته الثورة ، وضمرته المحنة ، وفتحت عيونه على آفاق واسعة من المعرفة .

لأن ثورة ١٩ ، فى صميمها غير الواضح، لا فى أقوال زعمائها ، ولا فى هتافات أبنائها، كانت تعنى فى ضمير الزمن شيئاً أبعد بكثير من التحرك السياسى ، ألا وهو «التحرر الذهنى» . وإذ كنا نلتمس المعونة عند دول أوربا ضد إنجلترا ، فقد حرصنا على أن نفهم ونعى ما يجرى فى أوربا . وكان هذا أول العهد بنا فى قراءة الصحف الأجنبية — وجريدتى « الطان » و « الديبا » بخاصة — لنعرف ماذا تتحدث به عن ثورتنا ، ونتابع أخبار مؤتمر فرساى. وفيها عرفنا لأول مرة ماذا يحدث فى الروسيا ، وسمعنا بكرينسكى والمنشفيك ولينين وتروتسكى والبلشفيك . ومع أن الصورة التى كانت توصف بها الثورة الروسية فى صحافة الغرب كانت صورة مفزعة فى سعارها ، فقد أحسسنا بأن ثمة بركاناً هائلا تفجر فى إمبراطورية القياصرة ، حاولت الدول المنتصرة إطفاءه بكل الوسائل ،

فإذا جنود الروس البيض بقيادة دنيكين وكولتشاك وفرانجل ، تذوب ذوبان الجليد عند مقدم الربيع .

ولم ننقطع منذ ذلك التاريخ البعيد عن متابعة أخبار السياسة العالمية، فالوعي إذا تيقظ لا سبيل إلى إخفاء الحقائق عنه . ولكننا عرفنا مبكراً ، مع الأسف،أن بلوغ الحقائق فى المعترك السياسى بعيد المنال ، وأن الصحافة ذات مقدرة عجيبة على تلوين الوقائع حسب ميولها السياسية وتوجيه الأحزاب لها . ومنذ اليوم الذى اعترف فيه الرئيس ويلسن ، الأستاذ الجامعي صاحب المبادئ المشهورة، منذ أن اعترف رئيس الولايات المتحدة بالحماية على مصر ، أصبنا بخيبة أمل خرجنا منها بشيء كان له أكبر الأثر فى حياتنا المستقبلة . .

هو أن نتحصن دائماً بقوة من أفعل قوى العقل ، وهى الشك ، وأن لا نعتمد فى أمورنا إلا على أنفسنا .

زاوية العميان

— آوت اليميان ، آوت اليميان يا لا !

بهذا نطق الصاجن البريطانى ، وهو واقف خلف الجازباند الحربى المؤلف من متراليوزات كلها على سنجة عشرة ، ضمن كوردون حصار الجامع الأزهر لمنع المواطنين من بلوغه حيث يعقدون اجتماعاتهم الليلية التى اشتهرت بها ثورة سنة ١٩ .

ويظهر أن الصاجن كان ذكياً مفتح الأذن ، فقد لاحظ أن القادمين منا بعد العشاء لاجتماع الأزهر ، يرتدون بسرعة عن مواصلة السير إلى « باب المزينين » قبل أن يوقفهم هو ، وسمع بعض « الوطنيين » يدلون إلينا بكلمة السر .

ـ من زاوية العميان ، زاوية العميان !

فطن الصاجن إلى أن هؤلاء « الوولاد الجيبو » الواقفين بالقرب من نقطة الحصار يتكفلون عنه بمنع مرور مواطنيهم، ورنت فى أذنه كلمة « فى زاوية . . . » كأنها « آوت » ، وقارب بين اصطلاح « آوت اف باوندز » و« آوت اليميان » كأن اللغة العربية فرع من الأنجلوسكسونية.

ولا أنسى أول جندى بريطانى فى الحرب العظمى الأولى ، وجه إلى الكلام يسألنى عن الكلمة الفرنسية المكتوبة فوق لوحات محطات الترام ، وهى « أريه » ، فيقول لى هل معنى « آريت » بلغتكم هو « ستوب » بلغتنا ؟ وصحح الغلام خطأ فارس سان جورج ، وأخبره بأن « ستوب » فى لغتنا « محطة » . فقال له « آه ، أنتم تكتبونها آريت وتنطقونها ميهاتا ! » وهو يظن أننا نكتب لغتنا بحروف لاتينية ، ويحسب أننا كالإنجليز إذا كتبوا كلمة « مطاط » مثلا ، نطقوا بها « لستك » ، وربما « كاوتش » ، والله أعلم .

عرفنا ، نحن طلبة المدارس العليا ، القادمين لحضور اجتماع الأزهر الليلى . أن زملاءنا الأزهريين متكفلون بتوصيلنا إلى داخل جامعتهم العظيمة برغم الحصار ، ونسير قدماً لنبتعد عن « جازباند » الصاجن ، فيتلقانا الزميل الأزهرى ويدلف بنا من شارع إلى حارة إلى زقاق إلى عطفة ، وندخل ربعاً ، وننتقل من سطحه إلى خرابة ، ومنها إلى حوش ، فحارة وكل هذا فى ظلام دامس تضيئه هنا وهناك لمبة صفيح بفتيل غاز . ثم ننتهى إلى بوابة مقفلة ، ندق عليها دقاً خفيفاً ، فتفتح لنا . . . وإذا الأزهر حافل ، مثل كل ليلة ، بعشرة آلاف ، بعشرين ألفاً قل بأكثر أو بأقل ، لا أدرى . . . كأن الصاجن ورجاله لا يحاصرون الأزهر . . و إنما يحاصرون هايد بارك فى لوندرة . . .

يدلف طلبة المدارس العليا : الطب والحقوق ، والمهندسخانة

والمعلمين العليا والزراعة والتجارة ، إلى داخل الأزهر ، ليتفرقوا بين صفوف الجالسين حول منصة الخطابة يستمعون إلى خطباء الحفل تلك الليلة : أصحاب الفضيلة والنيافة المرحومين الشيخ الزنكلونى ، والشيخ أبو العيون ، والقمص سرجيوس . وكان تقليد الحفل يقضى بأن يبدأ زميل أزهرى بتقديم ضيوف الشرف الوافدين ، وهم يجلسون فوق شرفة المبلغ العالية ، يراهم الجمع الحاشد . وبينهم قساوسة من السريان الكاثوليك ، والروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس بطيالسهم السوداء ذات الحواشى الزرقاء وطرحهم السوداء تنفرج عن أكاليل أسطوانية مخنصرة فى وسطها .

وقلبى عند الزميل الأزهرى ، وقد كتبت له أسماء الآباء الروحيين فى ورقة ، يطالعها على الضوء الضعيف ، والبصر كليل ، فيقرأ الإيجومانس حكيم فرفوريوس .. الانجة مانولى فردوسيوس . ويقرأ المونسنيور فغالى ... أبو النسور بغالى ...

العين بالعين ، والسن بالسن . فعندما يقوم نيافة الإيجومانس ليشكر استقبال الأزهر له ولزملائه ، يجيء هو أيضاً « شيخكم زنقلاوى » ... وشيخكم أبو العينتين .. » وتخرج أسماء شيوخنا الأجلاء من بين طاقتى أنفه وقد عراها ما قد عراها ! ماذا يهم ! إنها الأمة الكريمة على شتى أجناسها ومللها ونحلها ، تجتمع فى بيت الله ، مصدر الإشعاع الوطنى ، بعد أن تكون قد أدت واجبها نهاراً فى مظاهرات لا ينقطع سيرها ، احتجاجاً لدى المفوضيات والوكالات ، وتشييعاً لجنازات شهداء الوطنية ، وإذا الجنازات ، كالمظاهرات ، تفرق برصاص المتراليوز من اللوريات البريطانية.

لم تجلس جماعتنا ، كما قلت ، فى مكان واحد ، بل تفرقنا كل فى قطاع وسط الآلاف المؤلفة المتربعة تنتظر الرأى من قادتها .

ذهبنا تلك الليلة موفدين من قبل قواد الحركة الوطنية لنمنع شراً مستطيراً ونوقف خطر تفرق الكلمة والتفاشل . فقد صدر فى صباح ذلك اليوم

بالذات بلاغ وصفته « الأهرام » بأنه « بيان من عقلاء الأمة » وعليه إمضاءاتهم يرجون البلاد أن تخلد إلى السكينة وأن توقف المظاهرات ، وتترك الأمر بين أيديهم يتدبرونه .

ولكن رجال المعارضة أوفدوا خطباءهم ليشككوا فى وطنية البلاغ ، وهم أصحاب رأى راسخ فى معارضة مبدأ المفاوضة قبل الجلاء .

ولم يكن الطلبة الموفدون من رئاسة الوفد المصرى يعرفون شيئاً عما يدور وراء الستار ، ويبدو أن قد بدأت مفاوضات فى ذلك الحين للإفراج عن سعد باشا — وكان منفياً فى مالطة — والسماح له بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر فرساى .

قام خطيب المعارضين ، وكان من طلبة الحقوق ، يندد ببلاغ عقلاء الأمة ، ويطلب أن لا تغمض عين ، ولا تقف يد ، ولا يخفت صوت حنجرة ، قبل أن يعلن الإنجليز عزمهم على الرحيل عن البلاد . وأن يستمر الإضراب ، والمشاغبات والاضطرابات حتى يسلم الإنجليز بمبدأ الجلاء العاجل الناجز .

وكان الشاب — رحمه الله — من أبلغ خطباء الثورة ، يتدفق بياناً وسحراً ،فى لغة عربية نارية ،جعلت الحاضرين يستمطرون اللعنات على الإنجليز ،وعلى «خرقاء الأمة» فتدوى أصواتهم فى مثل هزيم الإعصار.

ويقوم طالب آخر من طلبة الحقوق — ومن جماعتنا — وبلاغته من النوع الهادئ الرصين ، ليدافع فى لباقة بارعة عن « البلاغ للأمة » ويحاول أن يدخل فى روع الجماهير أن الوطنية الحقة هى فى الاستماع إلى صوت العقل أولا ، ومن ثم إلى بيان « عقلاء الأمة » وفى خلال ذلك يتكلم بخير عن الحزب المعارض ، ويثنى على زعمائه ، وما ضحوا فى سبيل الوطن منذ أوائل القرن ، وكأنه يرمى من وراء ذلك إلى تشكيك السامعين فى أن زميله الخطيب الأول يتكلم باسم ذلك الحزب .

وإذا لم يكن قد نجح تماماً فى تهدئة النفوس ، فلا أقل من إشاعة القلق فى الجماهير ، ودفعها إلى ما فى إمكانها من تفكير رصين . . إن وجد !

وقام طالب آخر من جماعتنا — وكان طالب طب — يخطب فى المعنى نفسه ، ولكنه يلجأ إلى العنف ، كالخطيب المعارض ، دون أن تكون له بلاغته ،ويستنزل السخط على الإنجليز ، وأعوان الإنجليز ، فيظن الجمهور أنه سيهاجم بيان عقلاء الأمة ، وإذا به يرد على خطيب المعارضة ، دون أن يشير إلى حزبه بخير أو بشر . ويحاول أن يثبت فى عاطفة جياشة ، وأسلوب حماسى ، أن الثورات مهما حمى أوارها ، فإن من الخطر الداهم أن ينفلت عيارها ، وأن نجاح الثورات رهين بوحدة القيادة ، والانصياع التام لها .

وهنا يحدث أن يقاطع زميلنا من ناحية الخطيب المعارض ، فنقوم — كل فى مكانه من الجمع — لنغطى على صوته . . . وتترى المقاطعات من هنا وهناك ، ويشتد الهرج والمرج ، فيتولى شيوخ الأزهر — وكلمتهم مسموعة — تهدئة الخواطر ويختم المرحوم الشيخ الزنكلونى بخطاب رائع الديباجة ، يحث فيه على وحدة الأمة ، ويحذر من التفاشل ، ويؤازر الوفد المصرى ويدعو له بالتوفيق والنصر . ويحرص على أن يفهم الجميع بأن خطابه هو نهاية اجتماع الليلة

وينفض الاجتماع على غير هوى الجماهير ، موطدة العزم كل ليلة على السهر إلى ما بعد منتصف الليل تستمع إلى الخطب الرنانة ، فكيف يطلب إليها التفرق ، والساعة لم تبلغ الحادية عشرة ! .

وقد أراد بعض المتهوسين أن يفتكوا بخطيب مدرسة الطب ، المسئول فى عرفهم عن فشل الاجتماع . . . فحميناه بصياحنا وتهويشنا عليهم . . . وحماه زميل لنا عرف بصوت كالرعد ، وشدة بأس ، وقوة

عضل . . . بأن رفع ذراعه القوية فوق الرؤوس وأنذر من يلمس خطيبنا بأنه مقتول لا محالة بضربة واحدة على أم رأسه لا ثانية لها .

ولا أذكر تماماً من أى الأبواب خرجنا . كل ما أقطع به أننا وقد دلفنا إلى الأزهر من زاوية العميان ، خرجنا من باب آخر .

وعندما مررنا بالصاجن « المستشرق » . . . حرصنا على أن نناديه فى الهزيع الأوسط من الليل :

ـ آوت اليميان يا جونى !

طبيب العيون ، وعيون السمكة

فى ورقة طائرة بين مذكراتى ، قرأت هذه الكلمات مؤرخة يوم الثلاثاء ١٣ مايو ١٩١٩ : « من يوم أن عاد الموظفون (إلى أعمالهم ، بعد الإضراب العام الكبير) لم نسمع خبراً ساراً . ومن شروط الصلح المقدمة لألمانيا أن تعترف بالحماية البريطانية على مصر . بيد أن الوفد يعمل بهمة واجتهاد حسب ما هو ظاهر » .

« مدارسنا أقفلت لأننا لم نرجع إليها بأمر اللنبى ، والحالة هادئة فى كل القطر ولكن يخرج بعض الناس بعد الساعة العاشرة (مساء ؟) ليتظاهروا فى المدينة وقد سقط عدد من الضحايا » .

وتحت تاريخ يوم الاثنين ٢ يونيه من العام نفسه ، أطالع : « تركت السياسة واجتمعت بأصدقاء قدماء ، اتفقت مشاربى ومشاربهم فى الأدب والموسيقى . الليلة ذهبنا للاستماع إلى قصة الظاهر بيبرس بجى الصاغة يتلوها رجل مليح السمرة ، يلبس جلباباً أبيض . إلقاؤه طبيعى جذاب يغير لسانه عندما يلقى كلاماً يجىء فى القصة على لسان الإفرنج ، فيتكلم بلكنة الجرسونات اليونانيين » .

ترجمة كل ذلك أننا منذ يوم ٩ مارس ١٩١٩ فى إضراب واشتغال بالسياسة وواضح أن حياتنا ابتعدت عن الدراسة تماماً ، وأننا مهددون بأخطر ما يتهدد الشباب : الفراغ والجدة .

وكان عام السياسة هو أيضاً عام القراءة الأدبية المستفيضة ، ودراسة الموسيقى ، كما كان حقبة مغامرات عاطفية عنيفة كادت تدمر حياتنا المدرسية ، التى لم تنتظم تماماً إلا فى سنة ١٩٢١ حين عادت سيرتها الأولى من التوازن بين التحصيل العلمى الجاد ، والاطلاع العام فى الفنون والآداب.

ولكن أزمة النمو العقلى والشعورى تركت آثارها فى نفوسنا كلوماً وندبات ، أشبه بما يبقى فوق وجه الشباب الألمانى بادياً ، من أثر ضربات السيوف فى مبارزاتهم المشهورة .

وإذا كنا قد تأخرنا عن الصفوف الأولى فى دراستنا ، فقد كسبنا خبرة وتجربة ومعارف أكبر مما يحصله الشبان عادة فى مثل سننا . ولعل سر حياتى القلقة ثاو فى فترة الجهاد الوطنى ، والفراغ الذى سمح لى بمتابعة نزواتى الفنية والعاطفية .

ومع أنى أتممت دراستى الطبية فى ميعادها (بعد ضياع سنتين) ، وحصلت على ميدالية فى طب العيون ، هى التى قادت خطواتى إلى قسم الرمد ، فإن صلتى بالفن والأدب لم تنقطع . وذلك بالرغم من أن التحاقى بذلك القسم فرض على مواصلة الدراسة . فلم يكن فى زماننا أقسام تخصص وماجستير ودكتوراه ، وقد حرص قسم الرمد بمصلحة الصحة العمومية على تقويم معارفنا علماً وعملا ، وفرض علينا أداء امتحان عسير يتألف من قسمين ، فى طب العيون ، وإدارة المستشفيات .

بدأت حياتى العملية — على خلاف حياتى المدرسية بالمرحلة العالية — فى توازن عقلى ووجدانى دام سنتين بالتمام والكمال ، أداء لواجباتى فى المستشفى وإعداداً لامتحانات تخصصى ، مع مواصلة دراسة الموسيقى ،

والقراءة الأدبية والتاريخية .

العام الأول قضيته بالقاهرة ، ما بين مستشفى الرمد بالجيزة ، ومستشفى روض الفرج (وكان خياماً منصوبة) . والعام الثانى قضيته بمدينة طنطا (سنة ١٩٢٥) وكان من أسعد أيام حياتى ، بسبب التوازن النفسانى ، ولما خبرته فى أهل طنطا ، بل أهل الإقليم كله من كرم طباع وطيب مودة .

ولقد أوفدت فى مأموريات قصيرة بمستشفيات المحلة الكبرى ، والسنطة ، ثم بنها ، وكان لها أثر عميق جداً فى نفس القاهرى الذى لم يخرج عن مدينته إلى الريف سوى مرة واحدة فى طفولته — ولبضعة أيام — ومرة واحدة فى شبابه — يوماً أو بعض يوم — بصحبة محمود تيمور لزيارة أرض لهم بقويسنا .

عرفت قومى ، وغرست حبى للوطن فى إبليز الوادى الخصيب ، فأينع وأزهر وما فتئ يظللنى حتى يحين الحين فآوى تحت ثراه الأقدس .

وهنا موضع قصة أحب سردها على أصدقائى ، فى صورة ابن المدينة المعترف بضآلته ، الراضى بمهانته ، عقاباً له على جهالته .

لقد رأيت نبات القطن نموذجاً فى قاعات الدرس ، ورقاً ولوزاً وهدباً أبيض ولكنى لم أك رأيت القطن زهراً . . حتى ذلك اليوم البعيد فى طنطا ، عندما ركبت عربة بحصان واحد ، إلى جانب عمدة من عمد البلاد المجاورة ، دعانا لقضاء يوم بدواره . . سألته فى حياء عما يكون ذلك الزهر الأصفر الجميل يزين الحقول على جانبى السكة الزراعية . . أجابنى بلهجة هادئة ، لا تخلو من رثاء : دا قطن يا دكتور !

وما عتم العمدة حتى تحول إلى طبيعة المصرى الصميم ، من كلف بالسخرية . فما برح يسألنى عن كل ما نمر به من أعمدة التليفون ، وقضبان السكة الضيقة ومزلقاناتها : دا إيه يا دكتور ؟ دى أسلاك

التليفون يا عمدة . دا مزلقان يا حضرة العمدة ، أجيب وكأننى الراهب يضرب نفسه بالسياط فى صومعته .

ليتنى عدلت يوم الحسوم ذاك عن رغبتى الملحة فى ركوب الخيل ، فما إن جلسنا نستروح نسمات العصارى فى شرفة سلاملك الدار ، أمام ساحة البلدة ، حتى جىء إلى بجواد عربى أصيل ، لا داعى لتلمس المعذرة فى نقد طريقة سرجه ولجامه فلن يغير هذا من عنوان ذلك اليوم فى لوح القدر : يوم الذلة والهوان .

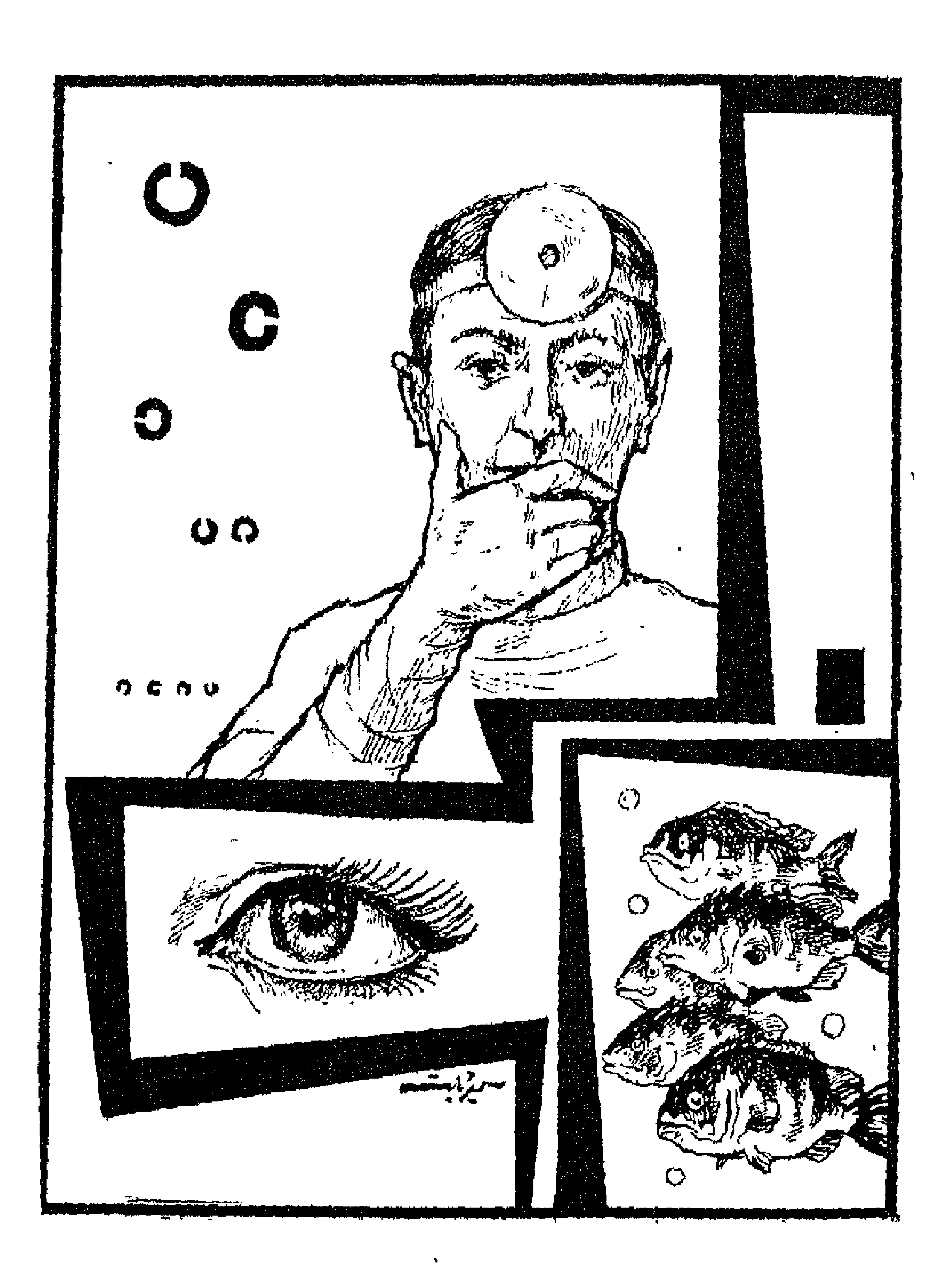
ما إن دار الفرس دورته حتى أدرك وزن ابن المدينة . ولعل العمدة قد أسر إلى جواده بأننى « الهايف » الذى لم يتعرف على زهرة القطن ! فطرحنى الجواد الكريم عن ظهره ، أو كما علمنا أساتذة الإنشاء العربى : نبذنى نبذ النواة. ونهضت من سقطتى لأتلقى تهنئة العمدة على سلامتى ، ولأسمع بأذنى قوله : معالهش يادكتور ولا كل من ركب الحصان خيال .

كانت حياتى مستقرة هانئة ، ومستقبلى مورقاً مزدهراً . . كتلك الأزهار الذهبية اليانعة التى لم أعرف اسمها .

ولكنه القلق المستحوذ على كيانى ، المتربص بى ، ولكنه قلى الركود والرتابة وآثار الرومانتيكية الحادة التى لم أك شفيت منها تماماً ، هى التى قررت مصيرى عندما سولت لى نفسى استحالة ممارستى للمهنة النبيلة حتى آخر عمرى وأن المقلة وحدها لا يمكن أن تحتوى رغباتى ونزعاتى .

وكان قراراً خطيراً ذلك الذى اتخذته بينى وبين نفسى ، ونفذته ضد نصيحة أصدقائى وزملائى ورؤسائى . . وهو هجر عيون البشر إلى دراسة شىء هائل عجيب ، مجهول لى تماماً فى غير ما رأيت من سطحه ، وما قرأت عنه من أساطير . ألا وهو البحر .

ولا تفسير عندى لهذا القرار أكثر من الرغبة العارمة فى العلم والمعرفة ، والتشوق الشديد إلى ورود ينابيع الحضارة الأوربية التى نشأت كلفاً بها ،



معجباً بالقليل الذى رأيته وعرفته وسمعته من آثارها . ولقد أدرك رؤسائى تلك الرغبة فأكدوا لى أن سيجىء دورى فى البعثة إلى مستشفى مورفيلدز بلوندرة ، ولكنهم لم يدركوا طبيعتى القلقة ، ورغبتى فى التغيير .

ثم ما هى سنة أو سنتان أقضيهما فى مستشفى متخصص بلوندرة ، إذا ما قارنت ذلك بسنوات أقضيها ما بين باريس وتولوز وعلى شطئان بحر الشمال ، والبلطيق والأطلانطى ، والأبيض، ناهيك بما تخيلته من ركوب بحار الدنيا ، واتصالى بأهل البحر الذين قرأت عنهم فى رحلات السندباد وفى «عجائب الهند» ، بره وبحره وجزائره ، لبزرك بن شهريار الناخوداه!

ولا أنسى ، وقد تقرر أن أسافر بالبعثة العلمية إلى فرنسا لدراسة الأحياء المائية، وكتمت الخبر إلا عن صديقى ورئيسى المرحوم الدكتور محمد بكرى ، ونحن نعبر ترعة الجعفرية فوق القنطرة الموصلة إلى مستشفى الرمد الأميرى ، إذ تقدم شاب من طلبة المعهد الدينى ، وحيانى بأدب بالغ ، وقدم قصيدة مديح من تأليفه مهداة إلى بمناسبة عملية أجريتها له ، أو كشف نظارة ، لا أدرى . .

سرت والمرحوم محمد بكرى فى طريقنا إلى المستشفى نتبادل الابتسام وأتساءل ماذا يقول هذا الطالب الأزهرى لو عرف بأنى تاركك ، وتارك تخصصنا ، من أجل عيون البحر الزرقاء ؟

أجابنى بكرى ابن النكتة الساخرة : ما أظنه إلا أن يقول : خسئت يا خئون! أتطوى كشحك للعيون التى فى طرفها حور . . من أجل عين السمكة ؟

البعثات وما أدراك ما البعثات

قبل أن أستأذن القارئ فى التوقف عند ختام سنة ١٩٢٥ ، أحب أن أتحدث عن معنى السفر بالبعثة التعليمية ، لما لهذا الموضوع من خطر لم ينقص ، بل زاد بحكم التطور الكبير الذى تمر به بلادنا ، وبازدياد الحاجة إلى إيفاد الشباب لإتمام تعليمه وتثقيفه خارج الديار .

لقد مرت البعثات منذ النصف الأول من القرن الماضى بأدوار من النظم ، بدأت بنظام البيت الواحد « للأفندية » يشرف عليهم مدير للبعثة من أهل البلد الموفدين إليه ، وتؤمهم شخصية دينية كان من حظ هذه البلاد أن يتولاها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى .

وفى العشرينات الأولى من القرن الحالى وبعد افتتاح التمثيل الخارجى لمصر ، انتقلت وظيفة الإمام إلى المفوضيات وعين لإدارة البعثات مصريون ، وإن ظل مدير البعثة التعليمية فى لوندرة بريطانياً حتى آخر الثلاثينات . وتحددت الرقابة على أعضاء البعثات بحدود الإشراف المالى والإدارى والعلمى فحسب . ولا أعرف عن النظام المتبع حالا سوى أنه يشبه فى كثير ما كان متبعاً أيام بعثى . والجديد فيه — بقدر علمى — هو حظر الزواج بالأجنبيات .

ونجاح الطالب فى بعثته أو عدم نجاحه ،وحسن سيره أو سوء سلوكه (فيما ندر) أمورها مرهونة بظروف الطالب نفسه ، لا أحسب المشرفين عليه يستطيعون فيها أكثر من التوجيه والنصح ، فاتخاذ الإجراءات الإدارية المرسومة .

ويمكن القول بصفة عامة أن نظام البعثات نجح تماماً ، وكفل للبلاد مجموعة ممتازة من رجال العلم والأدب والاقتصاد والقانون والطب والهندسة

والتكنولوجيا إلخ . وبفضلهم استطاعت مصر أن تبلغ ما بلغته اليوم من كفاية القائمين على شئونها التكنوقراطية ، ومن أداء الخدمات الجلى للبلاد العربية ، وبعض البلاد الإفريقية .

وقد سألت الأستاذ أرنولد توينبي فى الندوة التى نظمها السيد صلاح دسوقى محافظ القاهرة السابق بين المؤرخ الكبير وبين «عدد من قادة الفكر فى الجمهورية » (راجع مجلة « الكاتب » عدد أبريل ١٩٦٥) « قلت فى محاضرتك الأخيرة إن التطورات فى البلدان العربية متباينة ، وإنك تقدر مدى تقدم مصر على البلدان العربية بمائة وخمسين عاماً ، هلا شرحت لنا على أى أساس تقيم هذا التقدم ؟ هل هو أساس تكنولوجى ، أم فكرى ، أم علمى ؟ »

أجاب البروفسور توينبي : « إن مصر من أحد الوجوه متقدمة بأربعة آلاف عام ، هذا إذا وضعت التاريخ المصرى فى الاعتبار . وأعتقد أن الماضى المتراكم من التاريخ المصرى : القديم والإغريقى ، والرومانى والمسيحى والإسلامى — أعتقد أن هذا الماضى عظيم جداً ، ولقد دخل كله فى حياة شعب مصر . ولكنى حينما قلت ذلك فإنما كنت فى الواقع أفكر من زاوية إدخال الأساليب العصرية ، والثقافة الفرنسية ، ومن زاوية أن المصريين هم أول طلبة من العالم العربى يذهبون إلى أوربا . وأعتقد إذا لم أكن مخطئاً أن محمد على هو الذى أرسل الطلبة إلى فرنسا حوالى ١٨٢٠ » .

وسر نجاح البعثات العلمية هو — أساساً — الدقة المتناهية فى الاختيار ، وتطبيق قواعد علمية تطبيقاً عادلا ، لا محسوبية فيه . ولقد اشتركت بجامعة الإسكندرية فى لجانها لاختيار بعثاتها ، بعد نهاية الحرب العالمية مباشرة . وتصويرى لأعمالنا فى تلك اللجان هو أننا كنا « نزن المرشحين بميزان الذهب » ، سواء فى اللجان ، أو فى مجلس الجامعة .

ولن أجد لنظام البعثات عندنا فى الماضى والحاضر (باستثناء فترة

سوداء إبان الاحتلال البريطانى) إلا كلمات الثناء أزجيها لكل من قام ويقوم على شئون البعثات. فالإحساس بالتبعة التاريخية حيال البلاد واضح فى الماضى والحاضر على السواء .

ولكن ما لم يستطعه أولئك وهؤلاء ، ولعلهم لم يحاولوا حتى التفكير فيه هو موضوعى اليوم :

إننى لا أعرف فى العلوم والآداب والفنون فى العصر الحديث كتلة شرقية أو غربية ، وفيما يتصل بأثر البعثات على الحياة المصرية لا أريد أن أعترف بثقافة لاتينية أو سكسونية أو صقلبية (سلافية) إلا فى بعض صورها الظاهرية.وضيق العقل وحده هو الذى يقيم موازنة بين تلك الثقافات ، ففى دنيا العلم والمعرفة والفن والأدب لا أعرف إلا عالماً واحداً، هو عالم « الحضارة الحية» . وهذا هو المعنى الذى أعربت عنه فى سؤال ثان وجهته إلى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فى الندوة المشار إليها .

فوزى: فيما يتعلق بموضوع البلدان المتخلفة،أو النامية ، أو كاملة النمو،يبدو لى أن هذا يتحدد فى الغالب على أساس اقتصادى أو صناعى ، أو تكنولوجى . فهل لى أن أسأل البروفسور توينبى عن أساسٍ حضارى لتصنيف البلدان: ماذا يمكن أن يكون هذا الأساس فى رأيك،؟ متى تصف بلداً بأنه متقدم،أو آخذ فى النمو ، من وجهة النظر الفكرية أو الحضارية؟

توينبى : « . . فلنأخذ بلداً آخر فقيراً جداً بمعدل الفرد ، إيسلندة : مواردها ضئيلة جداً، فهى بلاد جرداء ، والناس يعيشون هناك على صيد البحر ، وبناء بعض السفن ، وهم يبيعون سمكهم المجفف لإفريقيا الغربية. ومع هذا فهم متحضرون جداً ، ومعظم صيادى إيسلندة يستطيعون أن يتناقشوا مناقشات طريفة حول بعض المسائل الأدبية . حينما كنت هناك سمعت قصة سفير النرويج الذى كانت له اهتمامات بنوع من الأدب الأيسلندى يسمى « الزارجا » وصدرت هناك طبعة جديدة من هذا

الكتاب ، وتردد السفير فى شرائه بسبب ارتفاع ثمنه ، وآثر أن يعود فى وقت آخر . ودخل فى تلك الآونة صياد يسأل عن الكتاب ، ويخرج نقوده على الفور ليقتنيه . وشعر السفير بالخجل ، وعاد بعدأسبوع مصمماً على شراء نسخة ، وإذا الطبعة قد نفدت ! هذا بلد فقير اقتصادياً ، ولكنه يتسنم القمة من الناحية الحضارية . وفنلندة مثل آخر : كل إنسان هناك يقرأ ويقتنى الكتب ، ولا ينفق نقوده على التفاهات » .

وهنا سألته عن بلد قريب جداً منا ، مقرب إلى قلوبنا ، اليونان ، هل هو متخلف ، أو نام ، أو متقدم ؟

توينبى : «أضعه فى نفس الموضع الذى وضعت فيه فنلندة وإيسلندة : إن اليونان قوم ممتازون » .

وعلقت على إجابته بقولى: « إننى حينما أريد أن أحكم على بلد ، أسأل عن عاصمتها ، إن كانت فيها دار للأوبرا ، وجامعة . وهل لديهم قاعات للموسيقى وأوركسترا سمفونى ، وكيف تعمل مجلاتهم ، وماذا يحقق مثقفوهم فى العالم ، هل لديهم روائيون ممتازون ، وما حال المسرح عندهم ؟ وما إلى ذلك ، أعنى لو أن الأمم المتحدة أقامت أساساً من الحضارة الروحية ، وليس مجرد أساس من الآلة ، كما تفعل اليوم ، لكان هذا أفضل : لأن الدول النامية حينذاك ستفكر فى الوصول إلى تفوق حضارى ، أكثر مما تفكر فى إقامة الآلات والصناعات » .

لقد ذهبت إلى أوربا لأدرس علماً من العلوم ، وتطبيق ذلك العلم فى تنمية الثروة القومية ، وقضيت شطراً هاماً من عمرى أؤدى واجبى فى هذه الناحية ، ولكننى كنت مدركاً تمام الإدراك بأن وراء مهمتى العلمية والتطبيقية شيئاً يفوقها : وهو دراسة الحضارة حتى أغوص إلى أعمق أعماقها . وفى كتاب « سندباد إلى الغرب » فصول تصور بعض وجوه تلك الحضارة .

وأثناء بعثتى كنت أود لو تدخلت إدارة البعثات فى توجيهنا إلى الناحية

الحضارية ، كأن تجمعنا فى ندوات عن معنى الحضارة نتبادل فيها الخبرات والانفعالات التى تثيرها حياتنا وسط المجتمع الأوربى.

ويمكن أن أقسم المجموعة الممتازة من المبعوثين الذين عرفتهم أثناء إقامتى فى أوربا إلى فريقين : فريق نبغ فى تخصصه وتعجل الحصول على دبلوماته وعاد « على الطائر الميمون » إلى بلاده . ويغلب على ظنى أن التكنوقراطيين الكبار فى مجتمعنا اليوم ينضوون فى هذا الفريق . وما عليهم فيما فعلوا من حرج ، بل الخير فيما أتوا .

والفريق الآخر أضاف إلى تخصصه تفقهاً بمعانى الحضارة ، فطالع الأدب ، وارتاد المتاحف والمسارح الجادة وقاعات الموسيقى الرفيعة ، والمحاضرات العامة وربما أطالت تلك الاهتمامات ، لسبب أو لآخر ، سنى دراسته . ولكن ما من شك عندى فى أن هذا الفريق هو الذى يجب أن تعتمد عليه البلاد فى تطورها الحضارى .

ولقد لاحظ الممتازون من زملائى فى البعثة أن أساتذتهم الكبار ، ذوى الأسماء الرنانة فى تخصصهم ، واسعو الاطلاع على مقومات الحضارة ، بل يسلك بعضهم فى الحركات الفنية والفكرية . وعندما اشتركت فى جمعية موسيقية للهواة بمدينة تولوز (جمعية شارل بورد) لاحظت أن من أعضائها بعض شخصيات المدينة ، من رجال العلم أو الإدارة أو الطب أو الهندسة . وكان يجلس فى أوركسترا الجمعية ، على قيد خطوات منى ، ويعزف على الفيولا ، أستاذى المساعد فى علم النبات . وما زلت أطالع اسمه بين علماء الإيكولوجيا النباتية الكبار .

وعندما توجهت إلى مونيخ سنة ١٩٢٩ للقيام بدراسة تخصص فى جامعتها ، لم يتردد واحد من أساتذتها — أظنه كان مشتركاً فى الحركة النازية — فى أن ينظر إلى من عل « كواحد من أبناء تلك الشعوب المتخلفة » ولم يشفع لى عنده أننى تتلمذت على علماء كبار فى السوربون وجامعة

تولوز ، إذ كان من الواضح أن ذلك النازى غير حفى بالفرنسيين ، فلم يخف على استهتاره بعلمائهم .

ثم حدث أن التقيت به فى حفل موسيقى خاص بالرباعيات الوترية ، وإذا بالرجل يعدل موقفه منى ، فيناقشنى صباح اليوم التالى فيما سمعنا من موسيقى ، ويعجب إذ يعرف بأنى أمارس ذلك الفن ، ومشترك فى أوركسترا السوربون . وقد أقبل بعد ذلك على ، وأعاننى بكل ما وسع على أداء المهمة العلمية التى أوفدت إليه بها ، ثم دعانى إلى منزله ، وقدمنى لأسرته.

لقد ذكرت هذه الواقعة لأن فيها انتقالا فجائياً من عدم الاكتراث إلى الاحتفاء . والحقيقة أن سر نجاحى فى المجتمعات الأوربية لم يكن مرجعه تفوق فى علم من العلوم ، بل لأن من اتصلت بهم كانوا يحسون منى وعياً لحضارتهم ، فلا يجدون خيراً من أن يقابلوا ذلك بالتحدث عن مجد بلادى القديم وثقتهم بأنها تتبوأ عاجلا مكانتها اللائقة بتاريخها .

كم أود أن تعنى وزارة التعليم العالى بتوجيه أعضاء بعثاتها العلمية إلى إدراك معنى الحضارة التى يعيشون بين أهلها من الكتلة الشرقية أو الغربية . ولا أعنى بالطبع الحضارة فى مظاهرها المادية ، أو فى المعاملات الاجتماعية من طعام أو ملبس أو مرقص ، وإنما أقصد الحضارة بمعناها الروحى والثقافى العميق .

وأعجب ما لفت نظرى أخيراً أن يشجع المبعوثون إلى بلاد إفريقيا على تأليف الكتب عن البلاد التى يعيشون فيها زماناً . فائدة هذا واضحة ، فهى تؤدى إلى تعريفنا بإخواننا البعيدين ، أولاد قارتنا . إنما مصدر عجبى أن لم نفكر يوماً فى الأربعين سنة الماضية بأن نشجع أعضاء البعثات إلى أوربا على التقدم بدراسات عن أصول الحضارة التى نعموا بخيراتها العقلية والوجدانية .

وهل صنع شيخنا رفاعة رافع الطهطاوى غير هذا عندما كتب رسالته « تخليص الابريز ، فى تلخيص باريز » ؟

وإذا شئت أن تعرف رأيى فى رفاعة الطهطاوى ، فإليك ما جاء عنه فى كتاب « سندباد مصرى » :

« وعاد رفاعة إلى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى . عاد ليدرس وينشئ المدارس ، ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . . مضى يكتب ، ويخطب وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ، ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم الآراء الفاسدة ويبذر بذور التقدم . يبصر أمته بروعة ماضيها ، وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها . لا يكل فى ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود ، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان . . لولاه ولولا الفريق الذى رباه ، لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل » .

إنما الدنيا مسرح كبير

« كل قوة تستنفد ، والقدرة على قيادة التاريخ ليست من الخصائص الأبدية . فأوربا التي ورثت القيادة عن آسيا منذ ثلاثة آلاف سنة قد لا تحتفظ بها دائماً » .

المؤرخ إرنست لافيس فى سنة ١٨٩٠

توقفت فى سرد ذكريات الماضى عند التحول الأول فى مسار الحياة ، حينما تركت الطب إلى العلوم ، ثم اتضح لى بعد تأمل طويل أن الأسباب التى تلمستها للتوقف عن سرد ذكرياتى كانت أعمق مما تصورت فقد وقفت عند اختيارى عضواً بالبعثة لدراسة الأحياء المائية وعلوم البحار . ويبدو أن فترة الغربة والتحصيل فى أوربا وقد طالت إلى خمس سنوات ، فرضت على — قبل أن أقدم على استعادة ذكرياتها — أن أعنى بتحليل عام للحياة الغربية ، ومحاولة فهم أوربا لا كما كانت تتمثل لى نتيجة لتربيتى ودراستى فى مصر بل فى حقيقتها التاريخية . ولعل هذا يفسر اتجاهى فى الأشهر الماضية نحو مطالعات فى تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين .

فلم أكن أعرف — ولا يمكن لإنسان فى وقتها أن يدرك — أن فترة إقامتى بأوربا من ١٩٢٥ حتى ١٩٣١ لها حساب فى التطور التاريخى الحديث . فهى فترة الرخاء المضطرب ، و « السنين المجنونة » (تسمية الفرنسيين لها) بعد الحرب العالمية الأولى ، وقبل الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى بدأت يوم « الجمعة السوداء » فى وول ستريت ، واجتاحت العالم كله فى أوائل الثلاثينات .

ومع أنى تتبعت أحداث العالم حولى ، فقد كنت غير مدرب الحاسة التاريخية بحيث أعى خلال الحوادث الجارية علاقتها بمجرى التاريخ العام ، لا سيما وأن قراءاتى التاريخية اقتصرت على حقبات حضارية معينة ، أهمها حضارتى المصرية والعربية وحضارة اليونان فى عصرها الذهبى ، ثم تاريخ عصر النهضة « الرينسانس » فتاريخ الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت حتى أفول نجمه فى واترلو (١٨١٥) ، وحتى وفاته حبيساً فى سانت هيلانة .

ومعنى ذلك أننى لم أكن تعمقت دراسة العصر الأحدث والأقرب إلينا . ولعل هذا يفسر انصرافى منذ بعض الوقت إلى مطالعات تاريخية عن القرن الماضى والحاضر .

أدركت مثلا هذه الحقيقة البسيطة جداً، وهى أن وقوع مصر فريسة للإمبريالية كان أمره محتوماً لا مناص منه ، حتى بفرض أن لم يتول إمارة البلاد تلك الشخصيات المسخ المهلهلة التى تحمل أسماء عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق ، وحتى لو لم تحدث هوجة عرابى . فقد كنا، وكل الشعوب غير الأوربية . نمثل أمام أوربا قصة الحمل والذئب ، مأكولين مأكولين .

وعرفت مثلا أن حركاتنا القومية لمقاومة الاستعمار لم تكن لتؤدى إلى زحزحة الغاصب ، عندما كان الغاصب غولا يفطر بنصف قطر ، ويتغدى بقطرين ويتعشى بنصف قارة . ولكنها كانت الشعلة المتقدة فى أغوار النفوس الأبية ، لا تطفئها البصقة التى قيل بأن السير ريجنالد ونجت قل أدبه وأشار إليها قبل ثورة ١٩١٩ .

وما أصدق كلمة لغاندى انطباقاً على حالنا فى تلك الأيام الخوالى ، بل ما أقربها إلى ما كنا نقوله فى غمار حماسنا الوطنى :

« إن البريطانيين يريدوننا أن نضع جهادنا على مستوى المدفع

الرشاش »، فهم يملكون السلاح ونحن شعب أعزل . وليس ثمة ما يؤكد انتصارنا عليهم إلا أن نبقى على مستوانا نحن ، وأن نحارب بأسلحة لنا لا يملكها غاصبونا ».

ولقد شرحت فى مكان آخر (سندباد مصرى) وبالإفاضة اللازمة ، صراع القومية المصرية ضد الغاصب الرومانى والبيزنطى ، وأن ذلك الصراع إن دل على شىء ، فعلى أن مصر كانت من أقدم الشعوب وعياً وممارسة للمقاومة السلبية .

كان غاندى البرهمى العظيم عميق الاطلاع على كتب الحكمة الهندوكية (كالأوبانيشاد و الباجافاد — جيتا) . ولعل فقرة من « أوبانيشاد الشهندوجيا » تفسر لنا المعنى الروحى الذى كان غاندى يعمل بوحيه :

« الإنسان مخلوق إرادى ، حياته فى الآخرة تنبع من إرادته فى الدنيا . فلتكن إذن عقيدته وإرادته هى أن الإنسان الذكى ، ذا الكيان الروحى ، والتكوين النورانى ، الصادق الفكر ، الأثيرى الطبع ، من يفوح العنبر الزكى من نفسه ، وينبع الذوق الجميل ، والأعمال الصالحة ، الإنسان الذى تنضوى جوانحه على كل ذاك ، دون شقشقة لسان ، أو عجب وخيلاء ، هو "أنا فى قلبه" ، إنه الروح السامى — أى البراهمان » .

فلنتمعن قليلا فيما يحدثنا به تاريخ أوربا فى خواتيم المائة عام التى انتهت عند سنة ١٩١٤ :

كانت أوربا على حد قول اللورد كينس تعيش حقبة فوق العادة من التقدم الاقتصادى للإنسان ، كانت ذروة العالم الرأسمالى اللبرالى . وقد رسم العلامة الاقتصادى الكبير صورة صادقة لأوربا فى رخاء أممها ، وثراء أفرادها ، وبلهنية العيش بها ، والإحساس العام بالطمأنينة .

وكانت الدنيا كلها تقدم لأوربا السلع التى لا تخرجها أرضها ،

والمنتجات الاستوائية النادرة التى لم تعرفها أوربا إلا مؤخراً ، والتى تمثل غاية الترف . بينما تتلقى بلاد الدنيا من « المصنع الأوربى » سلعاً كانت أوربا وحدها هى التى تستطيع إنتاجها بكميات وفيرة . وكان العالم مفتح الأبواب والمسالك ، أزيلت منه الحواجز إلا القليل ، والناس والسلع ورءوس الأموال والأفكار تنتقل حرة فى كل مكان .

ولاحظ أن تلك الدنيا ، أو ذلك « الايلدورادو » الذى يصفه كينس لم يكن العالم فى شموله ، ولا حتى أوربا بأكملها ، بل كان بعض أوربا ، « البعض المسيطر » ، أى مجموعة البلاد الأوربية القائمة فى غربى القارة ووسطها ، وهى التى تضم « بؤرات الحضارة الغربية » . وحتى الدول الجديدة ، كالولايات المتحدة واليابان ، التى تشارك فى استغلال موارد العالم ، كانت بنت أوربا ، تقلدها وتستألف وسائلها ومثلها وطرائق معيشتها .

كانت سيطرة الرجل الأبيض — أو بعض الشعوب البيضاء — تبدو كأن الشعوب المغلوبة على أمرها تستمرئ هيمنتها صاغرة ، وكانت وحدة شعوب الأرض تبدو كأنها قد تحققت ، ونظمها السياسية تظهر كالطود الشامخ متين البنيان .

ولم تمض أربعون سنة على عام ١٩١٤ حتى تغير الموقف كلياً ، وكأنه ديكور مسرحى يبدله ويغيره الماكينست المتجلى فى صورة حربين عالميتين ، وأزمة اقتصادية لم يعرف لها التاريخ مثيلا فى شمولها العالم بأسره.

حرب ١٤ كانت حرباً أهلية داخل أوربا ، دامت أربع سنوات . هزت ثورة الروسيا سنة ١٩١٧ العالم الرأسمالى الكبير هزة لم يعد بعدها إلى سابق عهده ، بل لم يعد فى المستطاع إرجاع الحياة سيرتها الأولى واطمئنانها وأمنها ورخائها .

قبل أن يكمل القدر (أو حتمية التاريخ) ضرباته على أم رأس أوربا فى صورة الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩ ، فالحرب العالمية الثانية ،

كان تدهور أوربا واضحاً لكل من يدقق البصر ، أو يكشف بالبصيرة . فإن النظام الرأسمالى كله، ذلك البناء المشمخر ، أخذ يتصدع منذ اليوم البعيد فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٩ المعروف فى دوائر المال بنيويورك باسم « الجمعة السوداء » .

فما عرفت أوربا ، ولا العالم ، منذ ذلك الوقت هدوءاً ولا راحة . فقد تلاشت الثقة بالمستقبل والطمأنينة. إلى الحاضر ، وترنح النظام اللبرالى تحت ضربات النظم الشمولية فى روسيا السوفيتية وإيطاليا الفاشستية ، وألمانيا النازية ، وكلها تصفع وتركل وتدوس على مبادئ الحرية ، روح الحضارة الأوربية منذ نهاية القرن الثامن عشر .

ودارت رحى الحرب العالمية الثانية ولما تزل آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى، فشلفطت الفاشستية والنازية وأذنابها، بل محتها من وجه الأرض، لكنها آبت بنتائج غير منظورة ولا متصورة . فإن كانت الحرب قد بدأت بين أمبرياليين طماعين نهابين يتناحرون على ملكية العالم ، فقد ختمت على أم رأسهم جميعاً وتخلصت من براثنهم أكثر الشعوب المغلوبة فى إفريقيا وآسيا .

وحتى شعوب أميريكا اللاتينية لم تعد تقبل سيطرة الدولار بروح الاستسلام القديم .

ثورة عالمية لم يتغير بها وجه السياسة والاقتصاد وحدهما ، بل وجه الفكر والعلم والفن أيضاً . فالفيزياء التقليدية انزوت فى متحف العاديات ، والقوبرنطيقا (الإليكترونيات وشبكة الأعصاب فى الحيوان إلخ) وما إليها من اكتشافات وإنجازات قوضت أساس الفكر الفلسفى .

والفنانون والكتاب صرفوا النظر عن تساؤل العبسى القديم « هل غادر الشعراء من متردم » ، لأنهم استغنوا عن ذلك القديم يقلدونه أو يبنون فوقه — وإن حرصوا عليه — وراحوا ينهجون ويقتحمون مسالك جديدة عبدوها

للقصة والتمثيلية والقصيدة والصورة والمصنف الموسيقى والتمثال . فلم تعد الوسائل القديمة تفلح فى التعبير عن العالم الحديث القلق ، ولا هى بمستطيعة أن تمثل علاقة الإنسان بنفسه ، وبغيره ، وبالعالم حوله .

أكتب هذا وأمامى ، تحت لوحة المكتب الشفافة ، إعلان ملون صغير عثرت عليه داخل كتاب قديم ، تدعو فيه شركة سكة حديد باريس ــ ليون ــ البحر الأبيض المتوسط (ب. ل. م) إلى كرنفال نيس وإلى تيرو الحمام بمونت كارلو ، وإلى زيارة نيس وموناكو ومنطون . . . تذكرة ذهاباً وإياباً مداها عشرون يوماً ، إبان شتاء ١٩١٤ ، ويمكن مدها لفترتين كل منهما عشرة أيام (لاحظ مدى تلك الإجازة الشتوية التى لا يقدر عليها اليوم سوى قلة من حفريات العصر الرأسمالى !)

والصورة على رأس الإعلان من أصدق ما يمثل حقبة الرخاء والهناء : أربع سيدات جميلات ، بقبعاتهن الواسعة الأطراف ، طويلة الريش ، وفساتينهن الحشمة لا تكشف إلا عن أقدامهن الصغيرة فى أحذية كحوافر الغزلان ، وفتحات مثلثة بين الكتفين والنحر . أربع سيدات فى ألوان هادئة يهرعن فوق بساط سندسى إلى لقاء النسيم الحالم يلصق أثوابهن بأجسامهن ولكن فى منتهى الحشمة والوقار ، وخلفهن نخيل تمايل أعطافه ، وتهتز أغصانه تحت لمسة الشمأل فوق الريفييرا .

ما أكثر ما أقارن بين هذه الصورة الساحرة فى سذاجتها وحشمتها ، وبين الإعلانات الحديثة ، أو المقالات المصورة التى تنشرها مجلة «لا يف» فى سلسلاتها السياحية . . . ذلك كان عالم الاسترواح والهدوء والأمن ، جنات عدن فوق الأرض ، فى مقابل جمال زائف حتى فى عريه وفحشه وتواليت وأصباغ تحاول كلها ــ دون جدوى ــ أن تخفى القلق والفزع ، والأعصاب المنهكة بالسهر والانحلال .

أولئك السيدات المحتشمات كن يعملن لدنياهن كأنهن يعشن أبداً . .

أما الغوانى العاريات ، فتمثلهن على غلاف « لايف » مانكان رشيقة ، تهوى من يخت إلى مياه البحر الأبيض الزرقاء . . . وكأنها فى طريقها إلى جهنم الحمراء . لأنها تعيش لدنياها وكأنها . . . بل لأنها قد تموت غداً .

ألم تذكرنا الصحافة الأوربية فى هذه الأيام بمرور عشرين عاماً على قنبلة هيروشيما التى قضت على مائة ألف من البشر فى ومضة عين ؟

طالب بالبعثة التعليمية

اكتشفت عرضاً وأنا أستعد للسفر إلى أوربا أن بعثتى كان مقرراً لها الدراسة بجامعة كامبردج ، ثم تحولت إلى جامعة تولوز ، حيث يوجد معهد متخصص للدراسة الهيدروبيولوجيا (وتعنى تقنيا : بيولوجيا الماء العذب) وتربية الأسماك . واستطعت بعد وصولى إلى مكتب البعثات فى باريس ، بطريق الإقناع والبينة أن أعدل برنامج بعثتى ، على أساس أن أبدأ بدراسة التاريخ الطبيعى (الحيوان والنبات والجيولوجيا) والفسيولوجيا العامة والبيولوجيا ، لإمكان التوسع فيما بعد لدراسة شئون الحياة المائية فى البحار والبحيرات والأنهار .

واقتنعت البعثة بأن أسجل اسمى فى كلية العلوم بجامعة باريس ، وأن أحضر الدراسات الحرة بالمعهد الإقيانوغرافى القائم على مقربة من السوربون .

وإذا كنت هنا أخدع نفسى ، فمن غير اللائق أن أكذب على القارئ . لأن قرارى البقاء فى باريس — وإن دافعت عنه أمام البعثة بالأسباب المشار إليها — انتهيت إليه بعد أول زيارة لقاعات الصور بمتحف اللوفر .

وإذا كانت حياتى كطبيب بمصر قد بدأت مزدوجة ، يتنازعها الشغف بالمعرفة وعشق الفن ، فقد أوقعت زيارتى لقصر اللوفر الفاس

فى الراس . ولذلك رتبت أمرى على مواجهة حقيقة مفزعة ، وهى أن حياتى ستكون أشبه بحياة ابن يتنازعه والداه بعد انفصالهما انفصالا نهائياً . والوالدان فى هذه الصورة الكلامية هما : العلم والفن ، أو العلم والمعرفة والأدب والفنون ، إذا أردنا أن نكون أكثر تفصيلا .

وزيارة اللوفر هى أيضاً بحاجة إلى شىء من التفصيل . فقد وصلت إلى باريس فى شهر نوفمبر ١٩٢٥ ، وعتام الشتاء مخيم على مدينة النور أو « المدينة — النور » كما يسميها أهلها . والنهار يقصر ، فلا تنعم بضوئه الخافت إلا بعد التاسعة صباحاً ، وقبل الخامسة مساء . ولا أذكر أنى رأيت الشمس الطالعة بعد ذلك حتى شهر مارس .

دلفت إلى متحف اللوفر بعد ظهر يوم من أيامى الأولى باريس ، ولبثت فيه حتى كسر الحراس قُلَّة خلف الزوار المتشعلقين بشباك الفن ، شايلله يا سيدى لوفر !

لم أك أفهم شيئاً فى الفن التشكيلى — ولا أحسبنى أدرك من أسراره اليوم سوى القليل — كل معرفتى به كانت قراءات ومشاهدة نسخ صغيرة من بعض الصور المشهورة ، وارتياد معارض الربيع الأولى بالقاهرة ، واطلاعاً لا بأس به على العصر الرومانتيكى فى الأدب والموسيقى والتصوير . ولكن مجرد رؤيتى لأصول بعض ما سمعت عنه ، أو رأيته منسوخاً ، وروعة الألوان — برغم اليوم العبوس — ثم بذخ مجموعات اللوفر من الصور ، وبخاصة فى البهو الكبير ، والصالون المربع الشهير ، جعلنى أحس بأن حياتى ضائعة لو ركبت القطار فى بحر ذلك الأسبوع إلى تولوز للالتحاق بجامعتها ، على مدى اثنتى عشرة ساعة من باريس . تولوز إيه وبتاع إيه . إنى باق فى باريس ، أو مطالب بإعادتى إلى مصر .

لم أنته فى قرارة نفسى إلى ذلك القرار لأهدد به — فلم أك غراً يسعى إلى ضياع مستقبله حمقاً — بل لأن قرارى يستند إلى خطة واضحة :

إما أن أبقى فى باريس لأعيش الحضارة التى نشئت على الإعجاب بها ، والإيمان بمقدراتها ، أو أن أعود إلى بلادى لأواصل احتراف مهنة الطب ، وهى طريق ممهد إلى النعمة والثراء ، أتمكن معه من العودة إلى أوربا كل عام ، أقضى إجازتى فيما أختار من عواصم الحضارة .

قضيت ليلتى أستجمع شتات أفكارى وأدبر أمرى مع مدير البعثات ، وكيف أتقدم إليه بمعللات بقائى فى باريس عاماً أو عامين ، قبل الانتقال إلى تولوز .

والعجيب أن المدير – وكان المرحوم الدكتور حسن فؤاد الديوانى – رضى بما عرضته عليه دون جدال . لم أكن أعرف فى تلك اللحظة أن طريقه فى الحياة كان شبيهاً بطريقى . فما إن أتم دراسته الطبية حتى انتقل إلى العلوم وبرز فيها وعاد إلى مصر أستاذاً للبيولوجيا بمدرسة الطب المصرية ، ثم عين مديراً للبعثة التعليمية بفرنسا .

الصعوبة الوحيدة كانت فى إقناع الدكتور الديوانى بأنى جاد فيما عرضته عليه من توسيع قاعدة بعثتى ، وتصحيح البرنامج الهزيل الذى وضعه لها من لم يكن يعرف من أمر الأحياء المائية سوى أنها تربية السمك الأحمر فى الحدائق العامة ، وفساقى رجال الدولة والأعيان !

لم يوفدنى الديوانى للالتحاق بالسوربون فحسب ، بل أوصى بى واحداً من زملائه القدامى ، أخذ بيدى حين طرقت البحث العلمى بإشرافه فيما بعد – وكان هو أيضاً طبيباً تحول إلى البحث العلمى فى التشريح الدقيق للخلية (السيتولوجيا). وعدت بعد سنوات من بعثتى والدكتور بارا فى طريقه إلى المجد . حتى قضى غريقاً فى إعصار الأطلانطى الشمالى مع بعثة القومندان شاركو ، هو وصديقى الآخر كلوفيس جاكيير ، ضمن الأربعين نفساً الذين غرقوا أمام إيسلندة فى مأساة السفينة العلمية «بوركوابا» (سنة ١٩٣٥) .

ولا بأس من أن أذكر هنا مصادفات عجيبة وهى أن أكثر من عملت معهم فى البحوث العلمية ، بجامعة باريس ، والمعهد الأقيانوغرافى ، وجامعة تولوز ، ومتحف التاريخ الطبيعى القومى ، وبعد ذلك بسنوات فى بعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى ، كانوا أطباء تحولوا إلى العلوم . فلم يكن ما صنعت عجيبة العجائب كما ظن بعض الزملاء الأعزاء .

كانت السوربون إذن أول ما عرفت من صور الحياة الجامعية . ولذلك حرصت على دراسة نظامها دراسة وافية ، مع التركيز على كليات العلوم والآداب والطب. فقد عدت إلى مقاعد الدرس أكبر سناً وتجربة من زميلاتى وزملائى الفرنسيين . وعرفت منذ وضعت قدمى على أعتاب الجامعة معنى الفرصة النادرة التى تتيح لى وعى كل شىء حولى ، وأن سنواتى فى أوربا وفى شرخ شبابى هى فترة تخزين النمل فى آخر الصيف من أجل الشتاء . فيها أستجمع ذخيرة العمر حتى أكون أقدر على خدمة بلادى . وأرجو أن لا تؤخذ هذه الجملة على أنها كلام « إنشاء » وروى أشعار ، وأن يعذر لى إغراقى فى المثالية ، فإذا لم يكن المرء مثالياً فى شبابه ، فمتى يكون ؟

لاحظت ظاهرة عجيبة فى محاضرات علم الحيوان ، وهى أنه من غير المعقول أن يرتفع مستوى التعليم هكذا فجأة بعد البكالوريا . فهذا أنا وقد درست فى مصر مواد إعدادى الطب ، وفسيولوجيا الإنسان وتشريحه ، أتساءل حيال مستوى المحاضرات : كيف يتسنى لزملائى الفرنسيين وهم لا يحملون غير شهاداتهم الثانوية أن يتابعوا تلك الدراسة المفصلة . وذهبت إلى أكبر الأساتذة سناً أسأله عن « الكتاب المقرر » فترفق الشيخ الطيب بى ، ولم يسخر منى بل أجابنى بهدوء : لو أن الأستاذ حاضر من كتاب بعينه لما اعتبر هذا تعليماً جامعياً . وأملى على قائمة صغيرة لكتب علم الحيوان بالفرنسية والإنجليزية . وجدير بالملاحظة أنه تعفف عن أن يشير

إلى كتاب من كتبه . وسألني إن كنت أعرف اللغة الألمانية ، فأجبته بالنفي، ودأبت بعد ذلك على دراسةتلك اللغة الأساسية لرجل العلم ، تلقيت دروساً خاصة بها طوال إقامتي بفرنسا ، وعلى حساب البعثة . ونصحني بأن أتابع المحاضرات وأدون مذكرات بها مع الاستعانة بتلك الكتب ، قبل المحاضرة وبعدها ، حتى أتمكن من فهم الموضوع الذى يعالجه الأستاذ بتوسع كبير .

وكانت البعثة تصرف لنا عشرة جنيهات فى العام لشراء الكتب ، وهو مبلغ صغير حتى فى زمانه ، ولكنه كان مغرياً ومشجعاً على اقتناء الكتب، بصرف النظر عن كفاية المبلغ أو عدم كفايته .

وقد حاولت أن أنتفع بمكتبة الجامعة فوجدت لها نظاماً يحتاج إلى صبر أيوب ، بسبب ازدحامها بالطالبين . وعندما انتظمت كطالب باحث فيما بعد ، عرفت أن جل الاعتماد هناك على مكتبات الأقسام وهى حافلة وافية ، لا تلجئ المرء إلى المكتبة العامة إلا للضرورة القصوى .

وساعدنى تدريبى فى مدرسة الطب المصرية (باللغة الإنجليزية) على تدوين المحاضرات بالفرنسية ، ولم يكن ذلك سهلا فى أول الأمر ، ولكن المران والاتصال بالزملاء والزميلات ، وعناية البعثة بنا لنتمكن من اللغة ، انتهت بى سريعاً إلى الالتئام بالبيئة الفرنسية ، واكتساب تقاليدها وطرائق تفكيرها . و « استذكارها » .

وأحب أن ألاحظ هنا أن الأستاذ لم يكن يحاضر فى أكثر من نصف العام الجامعى، محاضرتين أسبوعياً ، يركز فيهما على موضوع أو موضوعين من أبواب المادة ، ويترك للأساتذة المساعدين مهمة تدريس بقية المادة على مستوى الكتب الجامعة (تكست بوكس) . ويختص بالتجارب والتدريبات العملية ـــ تحت إشراف الأساتذة ـــ مدرس يعرف برئيس الأشغال العملية ، يساعده المعيدون وهم خريجون ممتازون مهمتهم الأولى هى

البحث العلمي ، إعداداً لدبلومات الدراسة العليا والدكتوراه ، ويكلفون بالمعاونة فى الأشغال العملية ، مقابل منحة سنوية تسمح لهم بالكفاية المعقولة من العيش .

وملاحظتى على الحياة الجامعية فى كلية العلوم هى الجدية الصارمة ، وقيام علاقات الزمالة بين المجدين. أما من يتخلف عن المحاضرات والأشغال العملية فما أسرع ما يهمله الزملاء ، دون إظهار شيء مما يضمرونه له من رثاء ، أو عدم احتفاء . وكان هذا هو القيد الوحيد الذى يفرض على الطلبة الانتظام فى عملهم، وهو كما ترى قيد أدبى اجتماعي محض .

والامتحانات تجرى تحريرياً وعملياً وشفوياً ، ولا يدخل الطالب الاختبار العملى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى ، ولا الشفوى إلا بعد أن ينجح فى التحريرى والعملى . والشفوى أهمية كبرى فى الامتحانات الفرنسية بعامة ، ويجرى علناً ، أمام الزملاء . ولم ألاحظ فى زملائى ظاهرة الخوف والرعب من الامتحان، ولا محاولة الغش. وكان الطالب يدرك أنه فى هذه الحالة يغش نفسه ، وهو لم يدخل الجامعة إلا ليحقق الكفاية اللازمة لمستقبله .

والطالب يقابل العميد فى ساعات محددة أسبوعياً ، ويدخل عليه حسب دوره فى الطلب ليعرض أمره أو شكايته ، جالساً أمام العميد تصاحبه أهم شخصية إدارية بالكلية . ولم ألاحظ أن العمادة تشغل الأستاذ عن بحوثه فى تفاهات وديوانيات مرهقة . لأن الجامعة حرصت على أن تسند كل تلك الأعمال إلى مختص إدارى يقوم بها « تحت إشراف العميد » ومع ذلك القليل الذى تقتطعه العمادة من وقت أولئك العلماء الأعلام ، فإنهم يعتبرونها ضريبة ثقيلة، فالعمادة هناك تكليف لا تشريف . وتصبح هى والأستاذية شرفاً بعد ختام مدة العمادة ، أو إحالة الأستاذ على التقاعد فى الخامسة والستين، (تمتد إلى السبعين لأعضاء أكاديمية العلوم) وهذه

قاعدة أساسية فى فرنسا : أن يستبقى العمداء والأساتذة ألقابهما شرفياً مدى الحياة .

ولا أنسى منظر العلامة الرياضى الكبير جان بانليفيه ـ وكان قد تولى قبل وصولى رئاسة الوزارة ، ثم تركها ـ منحدراً على سلم السوربون ، حاملا حافظة أوراقه ، ومتجهاً إلى محطة الأتوبوس بشارع المدارس ، ولا المسيو شيرون ، من وزراء المالية السابقين ، وقد شاهدته نازلا من الأتوبوس أمام باب اللوكسمبور (مقر مجلس الشيوخ) ليؤدى واجب عضويته بذلك المجلس .

لا شك أن الكثير من هذا تغير الآن ، وقد غدا لكل خمسة أو ستة من الفرنسيين سيارة ، وزاد عدد الطلبة زيادة بلغت حد المشاكل ، وتغيرت أخلاق الشباب بعد الحرب والاحتلال النازى .

ولكن ما لا أحسبه تغير أبداً هو حرص الجامعة على استقلالها ، فوزير المعارف هو رئيسها الأعلى (صورياً ودستورياً) . والاحترام الذى يحظى به لا أساتذة الجامعة وحدهم ، بل رجال التعليم عموماً فى بلد روحها وحياتها فى المعرفة والثقافة والارتفاع بالذوق الفنى ، والاحتفاظ بالمثل العليا فى العلم والتعليم .

أهلاً وسهلاً بالأحبا

عندما ركبت السفينة « الجنرال مترنجر » من الإسكندرية فى نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، وصحوت ذات ليلة قبل الفجر لأشاهد أضواء مدينتى ريجيو وسسينا على جانبى المضيق بين إيطاليا وصقلية ، ورأيت بركان سترومبولى وجزائر اسكيا والبا وكورسيكا ، وعندما وصلت إلى ميناء مرسيليا ، أيقنت أنى دخلت دنيا الغرب ، أوربا الموموقة المرموقة . هأنذا أضع

قدمى على أرض فرنسا ، وريثة حضارات الشرق والغرب .

كنا جمعاً غفيراً من الشبان على ظهر الباخرة، أغلبنا سيواصل رحلته عبر فرنسا، ليبلغ مقر بعثته فى الجزر البريطانية . ولم يكن فى مجموعتنا القاصدة إلى باريس من سبقت له معرفة مرسيليا ، ولا فينا من له أدنى خبرة بإجراءات الخروج من الميناء ، فاضطررنا إلى الانصياع لواحد من الصياع ، ظل عالقاً بنا حتى خرجنا من المنطقة الجمركية إلى محطة سان شارل ، فى الطرف الآخر من طريق « الكانبيير » ، لنحجز أمكنتنا فى قطار الليل إلى باريس. وحل ميعاد الغداء ، والمدينة التى اخترقناشوارعها عامرة بالمطاعم . فماذا كانت حاجاتنا إلى الدليل الصايع ليدور بنا فى فى دروب وضيعة حتى نبلغ مطعماً لاينذر منظره بخير ، وقف ببابه رجل يلبس قميصاً بدون ياقة من الصنف الذى يزرر أعلاه بزر من نحاس ويبرز من قفاه زرار نحاسى آخر ، هما مربط الياقة ، إن وجدت وكان لها اعتبار عند صاحبها .

ولا أذكر ماذا كان يلبس فى قدميه ، لم يكن حذاء على كل حال ، ربما كان شبشباً ، ولكن السنوات الطوال التى مضت على التجربة المرسيلية الأولى تصوره لى منتعلا . . قبقاباً ! هذا الزرى الهيئة والبزة ، الشبيه بالخواجات الغلابة أيام زمان بشارع كلوت بك أو درب الجنينة، استقبلنا هاشاً باشاً ، وصفق بيديه على الطريقة البلدية ، واحتفى بنا فى عربية لكناء :

ــ أهلا وسهلا بالأحبا !

ودخلنا المطعم البلدى لنجلس إلى موائد من رخام أو زنك أو خشب ، وقدمت لنا قائمة الطعام مكتوبة بفرنسية ماسحة ، وعربية كنغاييش الفراخ ، تزاحم هذه وتلك أصناف من البقع . وأكلنا طبق « مبرومة » ــ أى بامية ! ــ وأرز ، وربما جاء الحلو كنافة أو عيش السرايا ، والله أعلم !

أى أنه بعد خمس ليال قضيناها عبر البحر الأبيض المتوسط ، وبعد معيشة أشبه بما سيجرى فى فرنسا ، وقد بدأنا « نتمرن » عليها ، وبعد مشاهدة المدن الإيطالية والكورسيكية ، ولو على البعد ، ثم مرسيليا . . كأننا يا بدر !

وخرج « الأحبا » للتجول فى مرسيليا ، وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الميناء ، فى أحيائه القديمة ، مباءة للجرائم ، وملتقى أشرار الأرض طراً ، وأن من الخطر على السائح أن يتوه فى الأزقة ، وبخاصة إذا اقتاده إليها دليل يحترف شتى الحرف ، أبسطها القوادة !

اقترحت على « الأحبا » أن نزور متحف المدينة فركبنا إلى قصر « لونشان » ، ولا أذكر مما رأيت فى ذلك المتحف شيئاً ، فلم أعد إليه بعد ذلك أبداً ، برغم المرات الكثيرة التى مررت فيها بمرسيليا . أذكر فسقية جميلة أمامه فى وسطها مجموعة نحت لعلها تمثل بوسيدون إله البحر يسوق خيوله البحرية ذات الأعراف المتماوجة ، أذكرها لأن « للأحبا » صورة على حافة ذلك الأثر لا أجدها تحت يدى توا .

ثم صعدنا آخر النهار فوق ربوة أقيمت عليها كنيسة « سيدتنا الحارسة » . وكان يوم أحد ، فسمعنا ترتيل ألحان باصطحاب الأرغن ، وشاهدنا غروب الشمس فى منظر لا ينسى .

وفى الليل ركبنا القطار ، ووصلنا باريس صباح اليوم التالى فى عيد « الكترينات » حين تخرج فتيات المتاجر فى حلل العيد ويذهبن إلى الكنائس يبتهلن إلى القديسة كاترين أن تنعم عليهن بالعريس الفالح خلال العام المقبل . وفى المساء تزدحم الشوارع بهن ، وبمواكب ملكتهن . ويخطف الشبان القبلات خطفاً ، وكأنهم يخشون أن تتحول القبلة إلى شبكة فخطبة فزيجة .

كل هذا كلام فارغ جرى به القلم وأنا أحاول استعادة ذكرى

سفرى الأول إلى بلاد الغرب ، فترنح القلم بهذه التفاهات . ولكن ماذا يحول بينى وبين إحياء تلك الذكرى ؟ الواقع أن البحر أصبح فيما بعد ، ولسنين طويلة، موضوع دراستى : أمواهه وأمواجه . وتياراته وقيعانه ، ونباته وحيوانه ، وأن أسفارى على سطحه ، وعملى على شواطئه دامت ربع قرن ، ركبت خلاله السفن الكبار والصغار ، عابرات المحيط ومراكب الصيد ، كواتر النزهة وسفن الأبحاث . ومع كل ذلك فإحساسى هو أن أعجب وأجمل وأعمق الرحلات أثراً . . كانت العبور الأول من الإسكندرية إلى مرسيليا .

وهأنذا أسأل نفسى عن تفسير لمجموعة أفعل التفضيل الواردة فى الفقرة السابقة فلا أحير جواباً . فالبحر فى تلك الرحلة الأولى لم يكن أكثر من « توصيلة » ، ولم تحتو الرحلة على شىء غير عادى ، فلا عاصفة هوجاء مما اختص به البحر الأبيض فى الشتاء ، ولا ظواهر أو وقائع مثيرة داخل السفينة أو خارجها .

والعجيب أن روعتها لا تتجلى الآن كمجرد حنين إلى الشباب — ولو أن فيها من هذا ما لا أنكر — بل لأن ذاكرتى تؤكد لى أنها كانت رائعة فى وقتها ، وأننى كنت مدركاً تمام الإدراك معنى ذلك الانتقال من وطنى الحبيب إلى البلد النائى الغريب .

لا محيص إذن عن الالتجاء إلى المذكرات التى كتبتها فى حينها ، مهما كلفنى ذلك من شيل وحط فى كتب ومجلات وأوراق وكراريس وسلبيات صور وخرائط رحلات . . . و . . فلنفحص بعض ما جاء بتلك اللمحات العاجلة :

« كل شىء جديد على : إجراءات الميناء ، الصعود إلى ظهر الباخرة ، البحث عن الكابينة . . . الإعجاب بمنظر السفينة تبتعد عن الرصيف وتدخل البوغاز لتخرج إلى عرض البحر .

« قضينا نحو ساعتين أو أكثر نرى البر ، تعبت من النظر إلى الأرض ، وتحولت عنها إلى تأمل الأفق على مدد الشوف . . استنشقت نسمات خيل إلى أنها جديدة ، وشعرت فى تلك اللحظة بأننى أتخلص من سجن ، وأنى أتنسم الحرية . »

وهذا الإحساس بنسيم الحرية لازمنى طول حياتى البحرية كلما غادرت سفينتى الميناء. حتى أيام رحلة الباخرة «مباحث» فى المحيط الهندى ، حيث كانت هى السجن لثلاثة أو أربعة أسابيع ، والأرض هى الانطلاق والحرية نحو أسبوع . ومع هذا ، فما أكاد أبلغ قمرتى ليلة الإبحار وأخلع سترة المدينة لألبس ما أسميه بدلة القرصان ، حتى أولى ظهرى للأرض ، وأستقبل البحر ، والسفينة ، وطناً للحرية ، لا حرية الجسد ، بل حرية الروح .

« إنها لحياة سعيدة على ظهر السفينة، حياة نسيان . غادرنا أرضاً لنصل إلى أرض ، الماضى والمستقبل ، فترة اتصال بين حياتين . هنا عيشة منتظمة متناسقة ،حركة داخل حركة،حياة طليقة داخل سجن سعيد.

« وقد أفكر بتاريخ البحر الأبيض المتوسط ، بسفن يونان تؤم أرض اليون، أو بسفينة أودسيوس تتيه فى بيداء الماء . أفكر بالأساطير التى قامت حول شواطئه : الهسبريدة، السيلا والكاربديس، الجزة الذهبية بأرض كولخيدة ، وأطلس يحمل عمد الدنيا فى أقصى الغرب . أصاحب سفن فنيقيا من صور وصيدا إلى الموانى البعيدة ، وجحافل هانيبال تعبره لتتحدى روما ، وجيوش سبيون الإفريقى تنحدر من الشمال لتدمر قرطاجة « دليندا كارتاجو» ، وسفن كليوبترة ومارك أنطونيوس أمام رأس أكتيوم، وجاريات جنوا وفنسيا. البحر الذى يبتلع التاريخ ولا يغيره الزمن.

« العاصفة ! (لم تكن عاصفة ولا دياولو) ظهر السفينة الذى كان منذ لحظة ممرحاً وملهى . أقفر فى طرفة عين واختفت الوجوه المستبشرة

وقد علتها غبرة وصفرة ،وآوى كل إلى ركن أو قمرة ، كأفراخ طير ضعاف.
حتى المائدة لم أجد عليها إلا بعض ركاب السفينة .

« والليل حالك ، ولكن البرق يخترق السحب فى خطوط متعرجة ، كألسنة الأفاعى الخرافية من لهب ، أو سيوف تجردها أيدى الجن فى لمح البصر .

« وهدير العباب يغطى على قصف الرعود ، والمطر ينهمر بلا شفقة . . آوى إلى غرفتى فأطمئن إلى وجيب السفينة والمحركات لم تفقد رأسها . وأستلقى على السرير الصغير يتابع حركة السفينة ألعوبة الموج . فما هى إلا لحظة حتى أروح فى سابع نومة !

« كيف كانت العاصفة وكيف انتهت ؟! إن سلطاناً أقوى من العاصفة قد تملكنا ، هو سلطان الجسد . ونحن قبل أن نكون ألعوبة الطبيعة ، لعبة لطبيعتنا ، خلايا الجسم تنشد الراحة قبل كل شىء .

« كنت أرقب كل ليلة قيام البحر قرب انتصاف الليل ، أتأمل فى مقعدى خلال زجاج النافذة تلك الكتلة الهائلة من الظلام ، وأنصت إلى هدير الموج ، كأنه صدر إله من آلهة الاسكندناف يرتفع وينخفض تحت تأثير غضب هائل ، فأقوم مترنحاً لأنزل إلى غرفتى فأشعر بالهدوء والاطمئنان .

« هذه حياتى على ظهر "الجنرال متزنجر" .

« صحوت الساعة الخامسة وكان الظلام شاملا ، والجو فى رطوبة الفجر ، والسفينة لا يسمع فيها غير صوت آلاتها ، وأقدام المبكرين ، وبعض أفراد الطاقم يغسلون المماشى .

«أشباح سوداء فى الفجر الرمادى ، قطع من الظلام كأنها ظهرت توا من قاع البحر . لأننا حتى غروب شمس البارحة لم نر أثراً للأرض منذ غادرنا الإسكندرية ، واليوم أرى الربى على جانبي السفينة ترصعها مصابيح

تضاءل نورها على البعد ، السفينة تجتاز مضيقاً بين أراضين عليها أثر الحياة ، ولو أنها الحياة النائمة . . وكان نور الصبح ينبلج فيكشف عن الأرض شيئاً فشيئاً . والسماء ارتسمت على صفحتها قطع السحاب رمادية اختلطت بها بعض قطع من نور . . إلى أن تبينت شاطئ إيطاليا وشاطئ صقلية ، والمنازل ذات الأسقف الهرمية متناثرة فى الأودية وفوق سفوح التلال ،والطرق منسابة فى خطوط تظهر بسيطة التعريج من هذا البعد . والمصابيح تنطفئ واحداً إثر الآخر ، كتلك النجوم تختفى تحت لمسة الصباح . ثمة قطار يقطع المسافة ، يبدو بطىء السير جداً من هذا البعد ، صغيراً كألعوبة الصبى . »

وتلى فقرات تصف بركان سترومبولى بالطول والعرض . « والدخان يتصاعد من فوهتين كبيرتين ، ومواضع أخرى حولهما ، يصعد أكثره فى عمود ضخم نحو السحاب ، ليتصل به ويندمج فيه ، أو هو صانع سحاب نفسه ، وينساب بعض الدخان كالأفاعى على جوانب القمة إلى مسافة قصيرة ، ليتلاشى بعدها . »

وفقرات عن شواطئ إيطاليا تبدو خطوطاً سوداء يتعرج بها خط الأفق . وقد غدا من النادر أن تمضى لحظة دون أن نرى أشباحاً بعيدة تنتشر فى الأفق حولنا . «هذه هى جزيرة كورسيكا ، ولاسم كورسيكا رنين فى نفسى ، هو ترجيع صوت الابن الذى غادر جزيرته ليحكم على أقدار الممالك فى أوربا . وذكرت والده المحامى البسيط — شارل بونابرت — وأمه ليتسيا تترمل عن ستة أو سبعة أولاد » . وهنا استعراض سريع لما تذكرت من حياة نابليون . « كم وددت أن تسرع السفينة لأصل إلى باريس ، وأقف تحت قبة الانفاليد ، أترك نفسى للذكرى قرب ضالتها : ذلك الجثمان المجيد . »

كنت شديد الإعجاب فى شبابى « بالكابورال الصغير » . وكلما نما

الفكر ونضج العقل واتسعت التجارب ، هبط سحر العبقرية العسكرية . وقد كره زماننا مثيرى الحروب ، عباقرة أو مجانين .

انصرفت إلى تأمل الطبيعة الكورسيكية كما تظهر فى البعد . « تلك الجبال والمنازل ، والطرق المتعرجة والمسالك الوعرة ، والبحر والسفينة ، ليس فيها جديد لعينى ، ولو أنها جديدة على إحساسى . فقد رأيتها فى الكتب والصور والسينما . حالة العالم الآن لاتجعلنا ندهش من شىء لأول وهلة . إنما الإحساس برؤية الأصل والحقيقة هو إحساس بكر أصيل أشبه بتحقيق حلم جميل » .

ثم هذه الخطرة الغريبة نتيجة رؤية المدن على البعد : « يا لله ! ما أجمل منظر المدن من البعد ، حينما نحيط مدينة كاملة بنظرنا . كأن نقف على ربوة ، أو فى أعلى الأبنية الشاهقة . بهذا الفرق هو أن الصورة باقية أمام أعيننا لا تتحرك فإذا هبطنا من المرتفع ابتلعتنا المدينة وابتلعت إحساسنا بها .

« ولكن فى السفينة نبتلع المدن ، ونبتلع الجبال والبراكين . فهناك كان سترومبولى ضخماً مخيفاً ، مكشراً عن فوهات تنفث الدخان الأبيض والأسود . ماذا بقى من سترومبولى ؟ صورة صغيرة ، فنقطة ، ثم لا شىء ، غير الأفق وغلالة الدخان كسحابة واقفة .

« المسافة ! كلمة صغيرة ولكن أى غول هائل ، فهى قديرة على ابتلاع الأرض كافتها . لأتصورنى — مثل بطل قصة إدجار الن بو — مصعداً إلى جرم سماوى حتى أصل إلى حيث أرى الأرض نقطة منيرة ، نجماً بين النجوم . وماذا يمنعنى من تصور وصولى إلى أبعاد لا أرى منها هذه الأرض ؟ »

« بعد اختفاء كورسيكا لم يبق أمامنا إلا الوصول ، وحياة الحلم بدأت تعود حقيقة تبعث على التفكير . ماذا أفعل عند النزول إلى البر ،

وأنّى أذهب ، وكيف أسافر ؟ » سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره !

وفى مرسيليا « نفس الإحساس يتكرر وسيتكرر .. لقد تعودت أن أرى أوربا فى الصور والسينما وأن أتخيلها فى مطالعاتى . ووجودى بالميناء الفرنسى لا أصدقه بسرعة ، ولا أشعر لأول وهلة بأننى حقيقة أمشى فى مدينة أوربية . والأغلب أننى حملت من صالة سينما ووضعت فى فضاء سحرى ، أو أننى صورة صغيرة فى كارت بوستال تتحرك كأشخاص المندل. إنه لإحساس غريب ، ولكنه حقيقى ، لا يتلاشى بسرعة . »

وأخيراً هذا الانطباع من زيارة متحف فن تشكيلى (قصر لونشان بمرسيليا) : « إنها المرة الأولى أرى أصول صور وتماثيل كنت أقضى بعض يومى فى مصر باحثاً عن منقولات ضئيلة على كارت بوستال لأمثالها . هأنذا أرى الأصول لأشباه تلك الصور .

« جعلت أتمتع بهذه المشاهدة فى لهفة ، لا أنظر إلى التفاصيل ، بل أترك نفسى على سجيتها تنفعل وتتأثر . ماذا يهمنى أن يكون لتلك الصور قيمة فنية ؟ . »

الخطوات الأولى بباريس

لست ممن يشجعون على الإطلاق فكرة الاستغناء عن البعوث التعليمية إلى الخارج ، والاكتفاء بالبعثات الداخلية ، أى بما يحصله الطالب من علم وفن وتكنولوجيا فى مصر. ولا أنكر أنها فكرة صحيحة ولكن بقدر ، وفى حدود ضيقة . فلا داعى لتحميل الدولة عبء إيفاد أولئك الذين يكتفون فى الخارج بارتياد قاعات الدرس ، وحيازة درجات علمية يمكن أن يحصلوا عليها فى بلادنا .

وصحيح أيضاً أن سفر الشباب إلى الخارج بشهادة ثانوية أو بأقل منها خطر يجب حماية العيدان الرطبة منه . ولا أعرف فى العصر الحديث بعثات نجحت تماماً ، مع أن أعضاءها أوفدوا غلماناً ، سوى البعثات البحرية التى سافرت إلى إنجلترا فى العشرينات . ويمكن القول دون مبالغة بأن الفضل فى تقدم البحرية المصرية وتطورها السريع يعود أصلا إلى تلك البعوث البحرية الأولى . فرجل البحر — كدارس الموسيقى — يتعين أن يبدأ مبكراً جداً فى تعليمه وتدريبه . وإذا صح الآن أن نهضتنا الحاضرة تسمح بالتدريب الباكر والتعلم البحرى الصحيح فى بلادنا ، فإن ذلك لم يكن يصح فى أوائل العشرينات لضآلة ممكناتنا البحرية حينذاك ، بعد أن جردنا الغاصب المحتل من أسباب القوة فى البر والبحر .

حق إذن أن نقصر البعثات اليوم على شباب ناضج حصل فى بلاده أقصى ما تقدمه معاهدها العليا ، وأن نستمسك فى اختيار أرسالياتنا بمبادئ العدالة الكاملة ودقة الموازين ، مع التوكيد على أهمية إيفاد أكبر عدد من هؤلاء ، لأنهم يتعلمون فى الخارج أشياء أوسع وأعمق وأقوى أثراً من مجرد العلم والتدريب والحصول على شهادات .

فالشاب الناضج يسافر إلى الخارج مدركاً أعباء مسئولياته ، أقدر على قياد نفسه داخل المعهد الأجنبى ، وخارجه ، خلال حياة تختلف اختلافاً شديداً عن حياته فى مصر . والغالب أن يدرك مقدماً ويؤمن بواجبه نحو وطنه ، لا من الناحية العلمية والعملية وحدها ، بل من الناحية الاجتماعية والأخلاقية والثقافية .

ولا يفوتنى هنا توكيد المساواة فى بعثاتنا بين الفتى والفتاة فى كل مهنة اقتحمتها البنت المصرية إلى جانب الشاب ، لأن وعى المصرية لوجوه الحضارة والثقافة العليا أكبر أثراً فى مستقبل البلاد من وعى الشاب ، وأسباب هذا جلية لا داعى فيها لاستيحاء صورة « من تهز المهد بيمينها

أو يسارها إلخ » .

أصدر فى كل هذا عن تجربة طويلة المدى ، وقد عرفت فى أوربا كيف أميز بين زملاء يرجى منهم الخير العظيم – وقد حققوا فعلا هذا الرجاء – والزملاء الذين يجرى عليهم المثل السائر « حمار الصيف حمار الشتاء » ، وهم من لا يتعدى اهتمامهم فى حياتهم بالخارج حدود قاعات الدرس والتحصيل ، دون اضطلاعهم بفهم الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية ، وسر تقدم الغربيين فى مدارج الحياة الفكرية والفنية والعلمية والعملية . ودعك ممن يبخسون قدر هذه الحضارة ، ويتكئون على « روحانية الشرق » ومادية الغرب. فإذا كان معظم الخير فى الشرق هو الروحانية ، فإن خيرات الحضارة الأوربية تشمل الروح والمادة معاً ، فى توازن أخل به الاستعماريون والمغامرون النفعيون ، ولم تتجل الحضارة الأوربية لنا غالباً إلا فى أبشع صورها ، أى فى الرأسمالية والأمبريالية .

والملاحظ – باستثناء التجربة الحية التى يعيشها الطالب فى الخارج – أن كل من تشرئب روحه إلى الرقى الحضارى والتحرر الفكرى يستطيع أن يبلغ الكثير دون أن يغادر بلاده ، والنموذج المثالى هو المرحوم عباس محمود العقاد ، والفئة المشرقة الحية من أدبائنا الشبان. فهؤلاء يملكون القدرة على متابعة الحركات الأدبية فى الشرق والغرب متابعة طيبة بالاطلاع والدرس العميق ، ولا يعتبر نقصاً أن لم تهيأ لهم فرصة الخبرة بالمجتمعات الأجنبية .

ولكن هذا لا يصح دائماً فى كثير من المجالات الأخرى ، كالتمثيل والموسيقى والسينما والفنون التشكيلية ، كما لا يصح فى كل جديد من العلوم والمعارف والتكنولوجيا ، لأن التجربة الحية والمران والاتصال المباشر أمور لا غنى عنها .

ذهبت إلى فرنسا معبأ بمعنى الحضارة الأوربية فى أصولها الفكرية والفنية ، مؤمناً بأن مستقبل الوطن رهين بالتمكن من مقوماتها الحقة فى

الفكر والعلم والفن والأدب ، لا فى مجرد نقل التطبيقات العلمية والخبرة التكنولوجية . فأساس التكنولوجيا هو العلم البحت ، وأساس العلم البحت هو الفكر المجرد ينطلق بحثاً عن حقائق الأشياء فى مجال حر . وقد خرجت بلادنا بفكرة عجيبة ، هى قلة جدوى الدراسات النظرية ، والبحوث الخالصة لوجه العلم ، وهل من داع لوجود كليات آداب فى كل جامعة مثلا ؟!!

معنى ذلك هو إقامة حياتنا القومية على مجرد النقل ، لا على تقييم الوجدان والعقل ، وإعدادهما للإبداع والابتكار . والابتكار فى العلوم يشبه من بعض الوجوه الإبداع فى الفنون والآداب . فإنك فى الناحيتين إما أن تكون مجرد ناقل ناسخ ، ولا قيمة كبيرة لما تنجزه ، وإما أن تكون مفكراً ، أو عالماً ، أو فناناً أصيلا ، فتساهم فى بناء حضارة وطنية قوامها الفكر والإحساس ، وأساسها العلم والمعرفة .

لقد أوفدت فى بعثة كل برنامجها أن أتعلم تربية السمك ، وكان تعليمى الطبى فيه الكفاية وأكثر منها أساساً لما وضعته البعثات برنامجاً لى . أما وقد سافرت على شىء من النضوج ، وعركت بمصر الحياة العملية سنتين اضطلعت فيهما ببعض المسئوليات ، فقد أدركت أن تطوير الاقتصاد القومى فى ناحية الثروة المائية يتطلب شتى المعارف والخبرات . وبذلك تمكنت فى يسر من إقناع الطبيب العالم مدير البعثة التعليمية بباريس بوجوب البدء من أول السلم ، أى بدراسة التاريخ الطبيعى والبيولوجيا والفسيولوجيا كعلوم بحتة أقيم عليها تدريبى العملى بمراكز الصيد ومناطقه ، ومعاهد الأحياء المائية وعلوم البحار لا فى فرنسا وحدها ، بل فى شتى الأقطار الأوربية . وقد كان ، فلا أعرف عضو بعثة أكرم بقدر ما أكرمت حين يسرت لى البعثة تحقيق هذا البرنامج إلى ما يقرب من الكمال فى خمس سنوات .

* * *

ما إن اطمأن قلبى إلى البقاء فى باريس حتى طفقت أبحث عن سكن حرصت على أن لا يبعد كثيراً عن الجامعة ، وفى هذا تقول مذكراتى : « أريد أن أستقر فى مكان لأعود إلى هدوئى الداخلى ، وأبدأ حياة منتظمة »

كان لقائى الأول بباريس مضحكاً بعض الشيء ،عندما اندفعت جماعة « الأحبا » ذات صباح عابس من محطة ليون إلى فندق صغير بالحى اللاتينى فى شارع من أصغر وأقصر شوارع الحى — وما زلت أذكر ليلة حاولت العثور عليه ، فدرت حوله قرابة ساعة ما بين بولفار سان ميشيل وشارعى جى — لوساك ، وسوفلو !

والفندق ما زال قائماً ، وقد طالعت فوق بابه فى العام الماضى لوحة أظنها وضعت حديثاً تشير إلى أن عالم التحليل النفسانى سيجموند فرويد سكن فى هذا المكان سنة كذا ، والغالب أن قد حدث هذا فعلا فى مستهل القرن .

ومما ضايقنى أن اضطرتنا صاحبة الفندق إلى مشاركة كل اثنين فى غرفة ، وكان من نصيبى فتى شامى لا علاقة له لا بالبعثة ولا بالتعلم ، وقد نسيت الهدف من رحلته . لصق بنا منذ صعودنا إلى الباخرة « الجنرال مترنجر » حتى بلغنا الفندق فى باريس .

وعندما جن الليل التأم شمل « الأحبا » وسرنا فى الطرقات تشاهد مواكب « الكاترينات » ، فإذا شريكى فى الغرفة ، وقد رأى الشباب يهجم على الفتيات لاختطاف القبلات ، نزل كالجائع العطشان يقبل هذه وتلك ويسخر من تزمتى ووقارى !

عدت إلى غرفتى وحيداً ، أحمل هم ذلك الرفيق الصفيق ، عندما يعود من تجواله . وإذا به يدخل على ، وأنا فى أول إغفائى ، ويغير ملابسه تأهباً للسهرة ، ويزعق منفعلا « كيف أنام فى باريس والبلد ما بتريد تنام » ، وطار إلى خارج الفندق . . ولم يعد فى ليلته ، بل لم أر

وجهه منذ ذلك الحين !

ولما كانت صاحبة النزل تأبى أن تؤجر غرفها الكبيرة لشخص واحد ، فقد انتقلت إلى فندق حقق لى الانفراد . ثم كان من حسن حظى أن وفقت فى بضعة الأيام التالية إلى بنسيون بورجوازى على قيد خطوات من الجامعة ومن المعهد الأقيانوغراف ، تطل منه نافذتى بالدور الرابع على حديقة اللوكسمبور وقد تعرت أشجارها الباسقة من أوراقها ، وعلى مجلس الشيوخ القائم فى وسط الحديقة ، وأرى أبراج كنيسة سان سولبيس على البعد ، وكذا أسهم أبراج السانت شاپيل ، وأسمع دقات ساعة كنيسة السوربون .

وكان سكان البنسيون يجتمعون حول مائدة طويلة واحدة فى الغداء والعشاء ، وجلهم من الفرنسيين ، ومن بينهم أسرة كاملة جاءت من الأقاليم لترعى أولادها فى المدارس والجامعة ، وطالبة تدرس اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية .

فهذا الاستقرار فى نزل محترم ، وسط فرنسيين ، وشابين من أبناء علية القوم فى اليونان ورومانيا ، ساعدنى كثيراً على ممارسة اللغة الفرنسية واستيعاب الحياة الاجتماعية فيما لا يدرك من الكتب أو الدوريات . وإذ كان تسعون فى المائة أو أكثر من طلبة كلية العلوم فرنسيين وفرنسيات ، فإن خطواتى الأولى بباريس تنقلت وسط أهل البلاد فيما بين المسكن وقاعات الدرس .

تقول مذكراتى فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وقد وصلت إلى باريس فى ٢٣ نوفمبر ، بأننى معجب بالحى اللاتينى ومظهر الطلبة فيه ، وأننى شهدت متحف اللوفر ، وتجولت فى شوارع المدينة العظمى لأتعرف على معالمها ، وزرت قصر الأنفاليد ، وذهبت إلى الحفلات السمفونية ، وسمعت الموسيقى الدينية فى كنيسة السوربون . وإن أول تمثيلية حضرتها هى « تاجر البندقية » بمسرح الأوديون ، إخراج وتمثيل جيمييه ، والثانية

« سانت جون » لبرنارد شو إخراج جورج بتويف ، وتمثل لودميلا بتويف دور البطلة العذراء ، والثالثة رواية « مجتوى البشر » لموليير تمثيل ألبير لامبير على مسرح الكوميدى فرانسيز ، ومعها فارص « الحب المداوى » .
وتصف المذكرات « شعور الرهبة والإعجاب والدهشة ، وهو ما يتملكنى كثيراً منذ حضورى إلى هنا ، عندما دخلت الأوبرا لأرى وأسمع أوبرا "بوريس جودونوف" للموسيقى الروسى الأعظم مسورجسكى » .

وتعددت زياراتى لقصر اللوفر ، علقت على زيارة خصصتها لقاعات النحت فى العصر الكلاسيكى قائلا : « والآن أقوم إلى النوم ومرأى التماثيل البديعة لا يزال ماثلا أمامى وسأغمض عينى لأرى فى الظلام أشباح تلك التماثيل الخالدة تدور حولى كما كنت أدور بينها . فينوس ميلو لن تبرح مخيلتى ، والسعادة التى تشملنى وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأعمال العظيمة هى سعادة تجعلنى أحب الحياة أكثر من ذى قبل ، الناحية العالية من الحياة .

« لنستوح تلك الصخور الحية مرة أخرى ، فهى رسالة الفنان إلينا ، والفنان نزل على الأرض يحمل علم الإحساسات الرفيعة ، والتفكير السامى ، ويتكلم بما توحيه إلينا تلك الأعمال الخالدة .

« سأنظم وقتى لأذهب كثيراً وبطريقة دورية إلى اللوفر ، وسأزور قاعات الصور على مهل . فحياتى لا تجرى على نظام حتى هذه الساعة ، وعلى واجبات كثيرة أريد أداءها : درس العلم أولا ، ودرس الحياة الباريسية ، والاطلاع على كل ما يجرى حولى . .

« أما خطتى فهى بسيطة : أريد أن أعيش عيشة كد واجتهاد ، على اتصال بالفن الذى أحب ، والعلم الذى أحصل . الاطلاع فى المنزل ، وتتبع الحركة الفنية خارجاً : الموسيقى والتياترو والتصوير والحركة الأدبية . وإذا استطعت شراء كمنجة هذا الشهر ، فسأبدأ دروس الموسيقى

عن قريب » .

وختمت مذكرات عام ١٩٢٥ مشيراً بهذه الفقرة القاصرة إلى زيارة جديدة لقاعات الصور بقصر اللوفر : « هذا بعض ما أذكره مما رأيت اليوم . أما أن أتكلم على شيء ، فذلك ما لا أجد فى نفسى ولا على لسانى ، ولا فى قلمى قوة للتعبير عنه . كل ما أستطيعه هو القول بأنى أعيش فى يوم مثل هذا خمس سنين من حياتى » .

ذلك ما كان من أمر خطواتى الأولى بباريس .

دراسة وبحوث وتحصيل حضارة

لا يتوقعن القارئ أن أقحم خصوصيات على هذه الصفحات ، فإنى لا أكتب هنا ترجمة شخصية ، بقدر ما أسجل لمحات عاجلة من رحلة الحياة . أزعم أو آمل أن يجد فيها القراء مأرباً .

هأنذا أحاول أن أستعيد دون ترتيب زمنى بعض ذكريات نيف وخمس سنوات (نوفبر ١٩٢٥ — فبراير ١٩٣١)

بدأتها طالب علم بأوربا ، فتعلمت أشياء ، وحصلت حضارة . ودرست علوماً جديدة ، وأضفت لغة إلى اللغات الأجنبية التى تعلمتها أو بدأتها فى مصر . حصلت أربع مقومات للحضارة : حب العلم لذاته بما يعدل ويوازن حبى للأدب والفن ، وكلف بالرحلات فى البر والبحر ، وقد زرت خلال بعثى عدة أقاليم فرنسية ، ثم إنجلترا وتونس والجزائر وألمانيا والدانيمارك والنرويج وإيطاليا والنمسا . ووعيت الفن روح الحضارة وقلبها النابض ، وعيته فى معناه العام لا فى تخصص بعينه ، ما عدا الموسيقى التى حرصت على دراستها وممارستها إلى أقصى ما فى مقدرة الهاوى الجاد . وأخيراً تمكنت من التغلب على الرومانتيكية ، وانتقلت من المذاهب الواقعية إلى شتى

الحركات المعاصرة فى الفن والأدب ، بفضل المتابعة القريبة لما يصدر من كتب ، ودوريات ، ويلقى من محاضرات عامة،ويسمع فى قاعات الموسيقى والمسرح ، ويعرض فى المعارض .

هذا نموذج — على سبيل المثال — من انفعالى بالأدب المعاصر ، فقد عدت من إنجلترا سنة ١٩٢٩ ومعى كتاب « بنط كونترابنط » لألداس هكسلى ، نبهنى إليه مقال لأرنولد بنيت . وسجلت فى مذكراتى هذه الكلمة،عقب انتهائى من الفصل التاسع لتلك القصة التى كان لها فى العشرينات أثر بالغ : « باريس فى ٧ مايو ١٩٢٩ : الأولى بعد منتصف الليل!سعيد فى جلستى.اكتشفت كاتباً قوياً مفعماً (؟ ؟) ، ألداس هكسلى . لم هذه السعادة ؟ أشعر بالقوة الذهنية يختلج بها الكتاب الذى أطالعه الليلة . يا لله ! كأنى بلغت بئر الحياة (أشير هنا غالباً إلى أسطورة مية المحياة) ، والحياة يتسع مجالها أمام بصرى ، خطوة إلى الأمام ، وتحفز لوثبةأخرى فى مجهول المستقبل . أهو مجهول إلى هذا الحد ؟ ما هذه الآمال الحلى ؟ يا للغضب يملأ صدرى ، وتلك البراكين الثائرة فى جوانحى متى تجد منفذاً ، وإلا فستنفجر فى داخلى لتبعثر كيانى للرياح . »

وهذه مناجاة للمصور الهولندى رمبرانت والألمانى ألبرخت دورر ، عقب زيارة للمتحف الفنى التاريخى بفينا :

« فينا فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٠ : أنت يا رامبرانت صديق قديم ، فى عيونك العميقة وشفاهك المظلمة أطالع سيماء صورتك الأخرى فى اللوفر ، وأحس بأنى أسير سحرك حتى الموت. أمام لوحاتك يا رمبرانت لا أشعر بأى تعب ذهنى ، ولست بحاجة إلى نقلة روحية ، فأنا فى مجال كله صحة وعافية ، أمام المسطاح الذى هو لا شىء ، وهو كل شىء . فى صورتك الشخصية أغوص إلى أعماق سريرتك ، أمسك خلال العينين المفتاح الذى يفتح لى مغاليق الأسرار وراء واحد من المائة باب وباب . .

« وأنت يا ألبرخت دورر ، حبوت إليك حتى عرفتك منذ البناكوتيك فى مونيخ ، ولكنى لم أبلغ سر تطورك . هل العبقرية هى حقاً مواصلة عمل بطىء ؟ ولكن البطء يضفى على الإنجاز الفنى صلابة وتخشباً بينما نرى فى فنك تطوراً وتحولا متواصلا ، مع دقة الملاحظة العلمية فى عصر ربما كنت فيه من أعمق العلميين ، وتصنع يداك مع هذا عملا على قدر هائل من قوة التعبير . كيف أنسى رسومات "الفارس والشيطان والمنون" و "القديس هيرونيموس" و "أربعة فرسان الابوكالبس" (حلم يوحنا الإنجيلى) ، ثم لوحات الرسل الأربع ، وصورتك فى شبابك . أى عالم خاص بك أبدعت !

« حقاً ، نحن حيال اثنين من الفنانين اتخذ كل منهما إلى الخلق والإبداع سبيلا على طرف نقيض من الآخر : رمبرانت ودورر ! »

ونموذج من تعليق على المؤتمر الأفخاريستى بتونس عام ١٩٣٠ ، وقد سافرت إلى هناك لأعمل شهراً فى محطة سالمبو البحرية بضواحى تونس . كنت أسكن فى فندق فرنسى بتلك الضاحية :

« شعورى هنا يغلب عليه الكره للأوربيين المستعمرين . وقد تأملت يوم عيد الفصح ذلك الجمهور السوقى ، برغم ثرائه ، يتغدى بالفندق حيث أقيم . دهشت أن يعتبر هؤلاء الناس أنفسهم أرقى من أهل البلاد » وأنزل إلى المدينة فى أوقات الفراغ لأتجول فى تونس الخضراء ، ثم أنتهى إلى كتبى أمام جامع الزيتونة أتحدث إليه وإلى زبائنه ، وأقتنى من مكتبته بعض الكتب العربية (الأيام لطه حسين ، وزينب لمحمد حسين هيكل إلخ) وهزنى الشوق إلى دخول « حمام السوق » التقيت فيه بطلبة من جامعة الزيتونة أطلعونى على موقف الشعب التونسى من الحكومة الحامية ، وحدثونى عما يزمعون القيام به من مظاهرات احتجاجاً على عقد مؤتمر دينى مسيحى بالمدينة الإسلامية .

« تونس فى ٢٣ أبريل ١٩٣٠ : جلست إلى صاحبى الكتبى أمام جامع الزيتونة بعد جوله طويلة حتى بطحاء الحلفاوين ، وعرفت عنده الكثير من عواطف الأهلين نحو المصريين حباً ، ونحو المستعمر قلى وكرهاً . الحضارة ! هل من حقها أن تدخل حيث تريد ، وأن تعلم وتربى وتدرب فى سبيل تقدم الشعوب ؟ ربما !

« ولكن الاستثمار هو الأساس الاستعمارى ، وللفرنسيين طريقة فى الاستعمار تسعى نحو جعل الشعوب المغلوبة جزءاً من فرنسا ، مثلما فعلت فى الجزائر حين حولتها إلى مقاطعة فرنسية ، فأصبح الإيطالى والمالطى واليهودى فيها فرنسيين يتمتعون بكل الحقوق المدنية الفرنسية ، وبقى الجزائرى المسلم خارج نطاق الوطن الفرنسى . وبهذا قضوا على اللغة والعادات وشخصية الشعب الجزائرى .

« ومع أن تونس حماية فحسب ، فإن فرنسا دائبة وراء جعلها قطعة منها . ولكن ظهر لى أن فى تونس روحاً من المقاومة أحسب أن ستكون لها الغلبة فى النهاية . فها هى فرنسا العلمانية تسمح للمؤتمر الأفخاريستى أن يجتمع فى ضاحية قرطاجة ، وترغم حكومة الباى على دفع إعانة لإعداد هذا المؤتمر الدينى المسيحى فى بلد إسلامى . »

« أجل لست أنسى المظاهرات التى قامت فى تونس احتجاجاً على عقد هذا المؤتمر ، وقمعت بالقوة . ومنظر عساكر السنغال على جانبى طريق المندوب الفرنسى وعلى يمينه مندوب الكرسى الرسولى فى موكب الإثارة والتحدى . والسفن تدخل إلى حلق الوادى محملة برجال الأكليروس القادمين إلى المؤتمر يرتلون أهازيجهم الدينية . تلك هى صورة فرنسا كما تراءت لى فى تونس . فرنسا التى تزعم فوق أرضها أنها علمانية وتحتفظ بشعار الجمهورية الأولى : الحرية والإخاء والمساواة ! »

هذه الفقرات التى اخترتها عفواً قد تلقى بعض الضوء على أنواع

المؤثرات التى كانت تعمل فى نفسى ، فمن كتاب ، إلى حفلة موسيقية ، إلى تسجيل ظاهرة اجتماعية أو سياسية. وقد أتأمل على البعد موقف بلادى الرازحة تحت الاحتلال الأجنبى فأقول :

« لا شك أن تعاقب الحكام الأجانب على بلادى — وجلهم غاشم — كاد يميت فيها كل حياة . ومن المؤكد أن ما عمله محمد على لم يكن إلا لمجد نفسه وفكرة التوسع الحربى . وما صنعه إسماعيل ليس سوى طلاء بقصد الظهور بمظهر المتمدين . . يجب أن يتعلم التلاميذ التاريخ الحقيقى لهذه البلاد فى العصور الحديثة ، وأن يفهموا الحركة العرابية على وجهها الصحيح . . يجب أن يقود أقدار هذه الأمة رجال فى شبابهم وعنفوان قوتهم ، شخصيات نادرة تجمعها الصدفة لتقود أقدار البلاد . وعلينا أن نعمل كثيراً للنهوض بها . وما أراه الآن على البعد ليس كافياً ، فمازلنا نغطى عوراتنا بأوراق الشجر ، لم نفهم بعد ما علينا أن نفعل .

« هذا الفلاح ! فريسة كم من الجنسيات : الإنجليزى واليونانى والإيطالى والفرنسى والتركى والباشا المصرى والأفندى . أمة تريد الحياة ، ولا تعرف سبيلها إلى الحياة لأنها لم تجد الرجل الذى يقودها » (باريس فى ٢٦ يوليه ١٩٢٦) .

توضح المذكرات خطواتى على الطريق الوعر ، ومحاولتى ركوب أكثر من فرس فى آن واحد . كانت حياتى سعيدة فى ظاهرها ، قاسية فى صميمها. يتقاسمها الواجب الأول ، وهو دراسة العلم ، دين الدولة على ، ثم متابعة نزعات محمومة كلفاً بالفن والأدب ، مع فحص المجتمع حولى ، والنفاذ إلى السياسة الدولية ، يمنة ويسرة . كنت أطالع فى الصباح صحيفة يسارية ، وبعد الظهر جريدة الرأسمالية « الطان » أكبر الصحف الفرنسية .

ولقد أدركت منذ أول لحظة — مما سبقت الإشارة إليه فى تشبيه حالى بابن يتنازعه أبوان انفصلا عن بعضهما — بأن من أصعب الأمور إقامة

توازن بين الواجب الأول ، والنزعات والنزوات . شبيه بالموازنة التى حققتها بين أفكار أهل اليمين وأهل اليسار فى السياسة . وأمر السياسة سهل ، إذ لم أكن أكثر من متفرج ، لاتشده إليها سوى فكرة العدالة الاجتماعية ، والحد من شراسة رأس المال ، وجهود أريستيد بريان فى حملته التاريخية من أجل السلام ، يقرن اسمه آناً باسم كيلوج وآنا آخر باسم شتريزيمان . كنت مدركاً تمام الإدراك المأزق الذى وضعنى فيه تعدد نزعاتى ، وشراهتى غير العادية نحو المعرفة ، مقدراً أننى لن أستطيع طويلا تحقيق التوازن فى حياتى .

ولقد أعاننى على اجتياز محنتى ، والاحتفاظ ببعض التوازن أمران :

الأمر الأول : إقامتى وسط شعب يحكمه العقل لا العاطفة — ويبدو قولى عجيباً لمن لا يعرف الفرنسيين فى صميم حقيقتهم ، لأنه يقارن دائماً بين سرعة إثارتهم ، وبين البرود البريطانى — فى بلد حبته الطبيعة بالتوازن : شعب جاد عامل ، ولكنه من أكثر الشعوب إقبالا على متع الحياة ، حسياً وذهنياً وعاطفياً . شعب آلف بين طبيعته الزراعية وتطوره الصناعى ، فلم تطغ الصناعة عليه طغيانها على إنجلترا . بلاد تجمع داخل حدودها الأراضى المنبسطة والجبال الشامخة، تشرف على ثلاثة أبحر ، طبائع أهله شمالية فى الشمال ، وهم فى الجنوب أقرب إلى أهل البحر الأبيض المتوسط .

الأمر الثانى الذى ساعدنى على الخروج من المأزق بين العلم والفن والأدب شىء لم أك أتوقعه ، أنا الذى سلخت سنوات من عمرى أدرس الطب وأمارسه ثم طرقت العلم من أبوابه . حدث هذا الشىء بفجائية درامية ، لو صنعها مؤلف تمثيلى لدمغه النقاد بالافتعال ، وهو أننى عشقت العلم ، وما زلت مقيماً على حبه . ويرجع الفضل كل الفضل إلى إقامتى على شاطئ البحر ببلاد البريتانى ، أشتغل بعمل من أهم المعامل

البحرية الفرنسية ، بقرية روسكوف ، فى إقليم الفينستير .

حدث ذلك فى صيف سنة ١٩٢٧ ، وكان برنامجى أن أعمل مع أستاذ الأحياء المائية بجامعة تولوز فى محطة بيولوجية صغيرة بأعالى جبال البرينيه على ضفاف بحيرة أوريدون . ولظروف خاصة لم يتحقق هذا البرنامج ، وقضيت بعض الصيف سائحاً عادياً فى البرينيه . ولعلى فى قرارة نفسى أردت أن أعوض ما فاتنى على ضفاف بحيرةأوريدون فسافرت من أقصى الجنوب الغربى إلى أقصى الشمال الغربى ، من كوتريه ولورد وبو بجبال البرينيه حتى البريتانى فى رحلة طويلة كثيرة التنقل بين القطارات ، أظنها استغرقت أكثر من ثلاثين ساعة . وعندما وصلت إلى روسكوف أحسست كأنى حقاً بلغت منتهى الأرض « فنيستير » .

وفى روسكوف ، أمام أحواض الأكواريوم ، ثم على ممتد الشاطئ الذى يغطيه المد ويعريه الجزر إلى فراسخ وفراسخ ، والأستاذ المقيم يقود خطانا بين أعشاب الألجا ، نقلب الصخور ، ونجمع الأحياء لنتعرف عليها فى مواطنها . . .

أحسست لأول مرة ، أنا ابن دروب القاهرة القديمة ، الذى لم ير البحر قبل سن العشرين ، وكأننى خلقت للبحر وحياة البحر ودراسة البحر . والعجيب أننى بعد نحو أربعين سنة من صيف ذلك العام ما زلت أحن إلى تلك البلاد البحرية الشمالية ذات التقاليد العتيقة ، وأعود إلى ارتيادها كلما سنحت الفرصة .

أطلت إقامتى ذلك الصيف من خمسة عشر يوماً إلى شهرين . وفى محطة روسكوف البحرية بدأت محاولتى الأولى فى البحث العلمى بدراسة وسيلة بعض الديدان البحرية فى بناء مساكنها الكلسية . وإذا كان ذلك البحث قد سمرنى إلى جدران معملى وربطنى بالميكروسكوب والأكواريوم والمكتبة ، فإن تجوالى بشواطئ البريتانى يعريها الجزر ، دراسة لأحياء

القاع وتوزيعها الأيكولوجى ، كان هو أيضاً ظاهرة من ظواهر الحب العميق للملاحظة العلمية .

تقول مذكراتى : « فى روسكوف تكشف ميلى الشديد إلى العلم ، وذلك لأننى خبرت لاول مرة جمال الملاحظة المباشرة ، وتجلى لعينى فقر الدراسة « إن فيترو » (فى معنى خلف الزجاج). هنا فى روسكوف تمت فجأة ملكة البحوث البيولوجية ، بحكم جو المباراة العلمية بين مجموعة من شباب الأمم تستضيفها المحطة المشهورة كل صيف . بدأت هنا بحثى الأول ، وأرجو أن لا يكون الأخير ، بعد أن انزاح الغطاء عن عينى لأدرك جمال الحياة العلمية » .

أى أن التوازن بين الواجب (العلم) والحب (الفن والأدب) ، وهو الذى حاولت تحقيقه بقوة الإرادة ، لم يعد بحاجة إلى تلك الإرادة ، ما دام العلم هو أيضاً قد استقر بين شغاف الفؤاد . فلم يعد الانتقال من الفن إلى العلم أشبه بالعودة من جو الحرية الطليق إلى قشلاق النظام والواجب ، إذ تحولت حياتى منذ تلك اللحظة إلى هيام متكامل .

ومع أنى قد انصرفت فى عشر السنين الأخيرة إلى الفن والأدب ، بحكم ما ألقى على عاتقى من أعباء رسمية وشبه رسمية ، فإن حبى للعلم باق لم يضعف . أنظر إليه اليوم بشىء من الحسرة على بعاده ، وقد أمسى عندى فى حكم الحبيب الغائب أذكره بكرة وعشياً ، وكل رجائى أن لا يكون العلم قد طوانى من ناحيته فى بوادى النسيان .

خاتمة مطاف طويل

حان ختام هذه الحقبة من حياتى الأوربية ، إلا أن أنقل هنا فصول كتابى « سندباد إلى الغرب » ، وكلها صور وانطباعات وتأملات من الحياة فى صميم الحضارة الغربية ، أو أن أعيد كتابة رحلاتى خلال سنى التحصيل ، من واقع مذكراتى ، وليس هنا مكانها .

فلنتخيل فتى خرج من بلاده لأول مرة سنة ١٩٢٥ ، وأنه على وشك العودة بعد خمس سنوات من الإقامة فى بلاد الغربة ، ماذا يكون شعوره حيال تطوره العقلى والروحى ؟ لا أظنه تغير كثيراً فى مظهره أو مخبره ، ولو أنه حقق بالفعل ما توقع بعضه قبل السفر بالاطلاع والخيال ، مع كلف صادق بالحضارة الغربية .

ومع ذلك فأنت تذكر كلمة وردت فى مذكراته يقول فيها لدى وصول سفينته الأولى إلى مرسيليا : « ماذا أفعل عند النزول إلى البر ، وأنى أذهب ، وكيف أسافر؟ » ، وتذكر تعليقى الساخر على هذه الكلمة بقولى : « سؤال عجيب من طبيب شاب فى الخامسة والعشرين من عمره! »

أتعرف كيف عاد من باريس إلى القاهرة فى ختام بعثته التعليمية ، وكم من الزمن استغرقت رحلة العودة هذه ، فى مقابل الستة الأيام التى نقلته من القاهرة إلى باريس ؟

لقد غادر باريس نهائياً فى ٣٠ ديسمبر ١٩٣٠ ، فلم يصل إلى القاهرة إلا فى أوائل فبراير ١٩٣١ . كلا ، لم تكن ظروف حرب عالمية دارت به سفينته حول كيب هورن أو رأس الرجاء الصالح . كل ما فى الأمر أنه عبر الحدود الفرنسية الألمانية إلى كولونيا ودوسلدورف : « دوسلدورف فى أول يناير ١٩٣١ : عام جديد ، نهاية سنوات التحصيل

فى أوربا ، وبدء الجهاد الأكبر . . قضيت أكثر الأمس فى كولونيا أكتب بطاقات معايدة ، وشاهدت مسرعاً الكاتدرائية القوطية : بناء ذو جمال مؤنث ، ولكن فحص التفاصيل كشف لى عن ترميمات وإصلاحات كثيرة . ثم إنى لم أشعر أمام التماثيل بهزة الإعجاب العنيفة التى عرتنى أمام كاتدرائية شارتر » .

ألقيت نظرة عاجلة على أجمل ما فى كولونيا : كنيستها من النمط الرومانسكى ، ثم سافرت إلى دسلدورف حيث نزلت ضيفاً على أسرة ألمانية صديقة ، عرفت ابنة لها فى باريس . احتفلت مع الأسرة بعيد رأس السنة حسب التقاليد والتقاليع الألمانية اللطيفة : ارتجال الأشعار الهزلية وتبادل هدايا ترفيهية ، « وشوف بختك » فى الرصاص الذائب عندما يتجمد بإلقائه فى ماء بارد ، ولبس الطراطير المسخرة .

وسعدت أسرة الراين بصديقها المصرى عندما شاركها فى أداء موسيقى ، ربما كان صوناتة لموزار أو بيتهوفن .

وسافرت إلى هامبورج لأقضى أسبوعاً فى مركز أبحاث المصايد يديره الأستاذ إرنباوم ، وأياماً أخرى بالمعمل البحرى المشهور فى جزيرة هلجولاند (وهى التى أزالها الحلفاء كلية فى آخر الحرب العالمية الثانية) ، وزرت موانى الصيد فى بريمن وفيزرموند .

وغادرت هامبورج إلى كوبنهاجن استجابة لدعوة يوهان شميت العلامة الدانماركى الأشهر ، وهى دعوة تلقيتها على ظهر سفينة الأبحاث « دانا » عندما زارت ميناء تونس ، وبعد أن استضاف المعمل البحرى فى سالمبو أعضاء البعثة برئاسة شميت .

زرته فى معمله الذى أنشأه صانع بيرة دانماركية ، وأطلعنى على أدوار تطور زريعة الحناشة من بحر السرجاس وسط الأطلانطى حتى بلوغها مصاب الأنهار فى غربى أوربا . ثم دعانى للغداء فى منزله .

ومن كوبنهاجن عبرت السوند — مدخل البلطيق — إلى السويد ، واخترقت أرضها إلى أوسلو لمقابلة العلامة الأقيانوغرافى يوهان يورت ، ثم إلى برجن للقاء هلاند هانسن وسفير دروب وأوسكار سوند ، ولقضاء ليلة بمعمل جزيرة هردلا البحرى وسط فيورد برجن . وعدت إلى أوسلو ، ومنها عبرت البلطيق إلى ميناء شتيتن ، وبالقطار إلى برلين لزيارة الأكواريوم ومتحف العلوم البحرية . وسافرت بالقطار من برلين رأساً إلى البندقية ، لأستقل السفينة « حلوان » إلى الإسكندرية ، بعد شهر من مغادرة باريس .

هذا هو الشاب الذى تساءل عند أول وصوله إلى مرسيليا ماذا يصنع عند النزول إلى البر ؛ وأنى يذهب ، وكيف يسافر !

كنت فى مصر أعالج القصة القصيرة ووضعت نص أوبرا . وحاولت ذات صيف بفرنسا كتابة قصة طويلة . وإذا بأسفارى فى سنوات التخصيل وقد قادتنى إلى أدب الرحلات ، فخرجت كتبى فى أغلبها رحلات مادية فى المكان ، أو فكرية فى الزمان : « سندباد عصرى » جولات فى المحيط الهندى . « حديث السندباد القديم » دراسات الأساطير والقصص البحرية فى الكتب العربية . « سندباد إلى الغرب » صور من حياتى فى دنيا الحضارة . « سندباد مصرى » جولات فى رحاب التاريخ ، تاريخ أم الحضارة .

وقد أغدتنى لكل هذه الكتب أسفار طالب البعثة الشاب إلى عدد من الأقاليم والأقطار ، سجل أغلبها فى مذكراته ، ولم يؤلف فيها الكتب .

والنهج الذى سلكته فى رحلاتى الأولى قضت به ظروف عملى ، فأصبح طبيعة ثانية لى . كانت أغلب تلك الرحلات على حساب البعثة التعليمية ، فكان واجبى الأول فيها العناية بالناحية العلمية ، ثم الانتفاع بأوقات الفراغ فى زيارة المتاحف والآثار الفنية ، والتاريخية ، سواء فى

المدينة التى أقصد لغرض علمى أو فى الطريق إليها . مثال ذلك تونس للاشتغال بمحطتها البحرية فى ضاحية سالمبو . زرت متحفها التاريخى بقصر «الباردو» ، ومتحف لافيجرى بضاحية قرطاجة ، وسافرت إلى القيروان مدينة عقبة بن نافع لأزور مساجدها الأثرية العتيقة (سيدى عقبة ، وأبى زمعة البلوى إلخ) وفى برلين ، تهيأت لى زيارة متاحفها الفنّية الكبيرة الثلاثة : المتحف القديم ، والجديد ، ومتحف الإمبراطور فردريك . وكذلك الحال فى هامبورج ومونيخ وسالزبورج وفيينا . وحتى فى النرويج لم تفتنى زيارة قبر الموسيقى إدوارد جريج ، واكتشاف قصاصها الكبير يوهان بوير .

« برجن فى ٢٣ يناير ١٩٣١ : . . . هذا أنا فى بلادك يا اموندسن ويانانسن . أنا ضيف عليك يا جريج ، ياذا اللحن الرومانتيكى الحلو فى مؤلفاتك للبيانو ، أو للصوت أو للأوركسترا . ضيف عليك يا إبسن ، أيها الثائر ! أواثق أنت من أنك هيأت السعادة لبطلتك نورا ؟ (بيت الدمية) . انظر إلى العالم حولك الآن . أهى سعيدة المرأة فى المكاتب ، وأمام عجلة القيادة ، وفيما تشغله من وظائف دنيا أو وسطى ؟ أنا عرفتها سعيدة ، مختالة بنفسها ، فى الجامعة ، ولكنى لم ألحظ تغييراً كبيراً فى مثلها وآمالها . إنها لا تطلب عن حياة المرأة بديلا . ولكن فى حرية كاملة ، دون خضوع لرجل . . . »

والشاعر القديم لم يهمل شأن الطبيعة فى أسفاره ، لا سيما وأن أغلب ما شهده كان غريباً عليه ، مثيراً لدهشته : الجبال الشوامخ ، والغابات ، ومساقط المياه ، والثلوج والتزحلق على الجليد .

« بورتو — كورسيكا فى ١٥ سبتمبر ١٩٢٦ : . . . فإذا اتجهت ناحية الشاطئ وجدت الغابة مكتسية ألوانها الخضراء زاهية ثم داكنة ، والجبال مشتعلة فى قناتها بتلك النار الحمراء المكونة من صخورها وشمس

الغروب ، والظلال ترتفع لتحتل البقاع التى تودعها الشمس، والألوان البنفسجية تكسو الجبال ، والضباب الخفيف الحالم يغطى بعض الجبهات .

« بين رمادية المغاور وخضرة الأشجار ، وسط انعكاس آخر أنوار النهار فى مياه البحر المائجة، والنهير المنسابة ، وأمام زرقة الماء قرب الشاطئ ، ولونه الذهبي عند مغرب الشمس ، وراء السحب تضيء أطرافها بلون مذهب كأنها تزركش ثوب العروس فى هذا المساء . . فى أصوات تلك السمفونية المؤلفة من حفيف الشجر وخرير النهر يضيع فى البحر ، والأمواج تتكسر فوق الصخر ، فيقوم الرغاء الأبيض فى أشكال سحرية كأن فينوس أخرى تخلق من الزبد . . فى تلك الطبيعة الجميلة المتغيرة المتشكلة أفكر ، وأطالع ، وأتأمل الغروب » .

لم أحدثك فى قليل أو كثير عن الموسيقى ، وكانت هى وحدها ، إلى جانب العلم ، شيئاً أصيلا جداً فى دراساتى . حرصت فى كل مدن الحضارة على ارتياد الحفلات السمفونية والأوبرا وكنت عضواً بأوركسترا الهواة فى تولوز وأوركسترا جامعة باريس .

وتشاء الصدفة أن أختم سنوات التحصيل بمشاهدة أوبرا بيتهوفن الوحيدة « فيديليو » :

« برلين فى ٢٩ يناير ١٩٣١ : "فيديليو" بأوبرا بلدية شارلوتنبرج ، أداء عادى ، ماذا يهم ؟ هؤلاء الألمان يعيشون موسيقاهم العظيمة ، وفيديليو عمل نبيل ، تتخلله وتختمه رنة فرح عارم ، برغم أزمة الفتاة ليونورا تتنكر فى زى غلام لتنقذ حبيبها من الحاكم الظالم ، وتختم القصة بانتصار العدالة . موسيقى جديرة ببيتهوفن مهما تقول القائلون تشكيكاً فى قيمتها كأوبرا . فكرت بالصدفة العجيبة التى جعلتنى أنهى سنى التحصيل فى أوربا بالاستماع إلى هذا العمل الكبير » .

وسافرت فى اليوم التالى إلى البندقية رأساً ، حيث شاهدت كنيسة

سان مارك، ثم متحف الفن، لأترع روحي بروعة الألوان عند مصوري مدرسة الأدرياتيك : جيوفاني بللبني ، بالمافكيو ، جيورجيوني ، فيرونيزي ، تنتوريتو ، تسيانو .

كانت رحلة الإياب إلى الوطن عن طريق الشمال الإسكندناف ، ثم عبر أوربا ، صورة مصغرة مركزة لسنواتى الخمس فى بلاد الغرب .

وأخيراً أتساءل : هل أغرتني تلك الحياة بالبقاء هناك دائماً ؟ يجب أن أصدق مع نفسي : لقد ساورتني فى بعض فترات نزوة من هذا القبيل ، وكان من حظى أن قد تحصنت ضد جرثومة الرومانتيكية ،ولولم أقض عليها تماماً . فاستطعت أن أخضع عواطفى الهوجاء لقياد العقل المفكر المدبر ، وذلك بفضل المنهج العلمى ، والنظام الصارم الذى يقضى به .

خاطبنى العقل بكلام كهذا : استسلامك للحياة الأوربية معناه أنك تجبن أمام قفر الحياة الذهنية والفنية فى مصر . ولا قيمة لحياة الاستسلام للدعة والرفاهية ، حتى ولو كانت دعة الفن ورفاهية الثقافة . الحياة جهاد يا صاحبي ، كتب على الجميع ، لا على الجنود وحدهم فى ساحات الوغى ، والبسالة ليس مكانها ميدان القتال وحده .

بهذا تكلم العقل ، وأخجل أن أضيف قولا تلوكه الألسن حتى فقد جدته : أنت ابن الوطن الفقير إلى الله تعالى ، لا شك أنه بحاجة إلى كل فرد من أفراد شعبه مهضوم الحقوق من السماء والأرض ، والوطن أسدى إليك معروفاً ، مهما صنعت حتى آخر رمق لك فى الدنيا فلن تستطيع الوفاء به .

استئناف رحلة الحياة

مضى العام دون أن أخط سطراً فى هذه الصفحات ، وأنا أتلمس العلل لتأجيل عرض صور من حياتى الغابرة ،وانتهيت إلى أن لا مناص إذن من استئناف مذكرات حياة لا أهمية لها فى ذاتها ، وإنما فيما قد يساعد الأجيال الحاضرة والصاعدة ، على فهم بعض مصادر المجتمع المصرى فى النصف الأول من هذا القرن ، وكيف عاش المحتلون عسكرياً ، المستغلون فكرياً واقتصادياً ، الواقعون بين مطرقة حكومات غشوم ، وسندان الواجب نحو بلاد كانت فى التاريخ القديم والوسيط بلاداً ذات عزة وسؤدد ، وكبرياء .

انتهيت من بعثتى ، وعدت إلى ديار سلمى ، وتسلمت عملى الجديد بمصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك ، وكانت تابعة لوزارة المالية ، مع أنها مصلحة عسكرية فى نظامها وإدارتها ورؤسائها وأغلب مرءوسيها . وكانت مصايد الأسماك (أو ما تعرف اليوم ، كما أردت لها أن تعرف ، بالثروة المائية) تمثل فى إدارة من إدارات المصلحة ، يرأسها ضابط عظيم ، وفيها مكتب لخبير مدنى إنجليزى ، يعمل مستقلا فيما يسمى « مكتب مباحث الأسماك » ، وله كشك برأس التين ، وكشك بالمكس ، هو كل ما كان ينتظرنا للانتفاع بما حصلنا من علم وتدريب واستعداد .

وحكايتى مع الخبراء الأجانب لا جديد فيها ، فهى حكاية ريمة القديمة : موظف أجنبى بمرتب كبير وسلطات لا حدود لها ، يسره أن يجد له أعواناً من بنى قومه أولا ، ثم من أهل البلاد .. إن وجدوا ! ، ويسوؤه أن يطمح هؤلاء وأولئك فى إزاحته عن سدته العلية ، فهو يحرص أن يوقف معاونيه ، والمصريين منهم بخاصة ، عند حدودهم ، آلات تعمل بإمرته ،

ووفق إرادته ، دون أن تحاول أى نوع من التفكير الشخصى ، أو أن يكون لها « بم » فى إدارة العمل ومسئولياته .

ومع كلفى بالحضارة الأوربية ، وحبى للغرب ، علمه وفكره ، وآدابه وفنونه ، فقد لاقيت فى بلادى من تعنت الخبراء الأجانب ، وتعسفهم ، وضيق عقولهم ، ما كان قميناً بأن يردنى إلى التوبة عما تقدم من ذنبى فى التعلق بحضارة الغرب وما تأخر . ولكن الحزازات الشخصية والاحتكاك اليومى فى العمل ، لا يمكن أن يبقى لها أثر فى نفسى ، ولا تردنى عن الحكم الصحيح .

ولن أفهم أبداً أن يجىء الخبير الأجنبى ليتحكم ، بل ليشير ويرشد، لا الهيئة التى يعمل بها فحسب ، بل الوطنيين الذين يعملون تحت إشرافه . إذ يجب أن يعلم أولا ، وقبل كل شىء ، أن هؤلاء باقون لوطنهم ، كما هو عائد إلى وطنه ، وأنه مهما سما علماً ، وطرشق خبرة ، لن يبلغ وعيه لحاجات الوطن المضيف ، وعى العاملين من أبنائه . ونزاهة عمله لا يكفى فيها أداء واجبه العلمى والفنى ، بل يتعدى إلى تدريب الوطنيين ، واختيار أصلحهم خلقاً وعلماً وحسن إدارة ، ليخلفوه ، ويواصلوا عمله ، ويتموا إصلاحاته .

ومشكلتى مع الخبير الإنجليزى الذى وجدته لدى عودتى من البعثة كانت تتعلق بظروفه وظروفى ، وعلمه وعلمى ، وخبرته وخبرتى . لقد أتممت الدراسة الطبية ، وخبرت الحياة العلمية والعملية لمهنتى الأولى ، قبل سفرى بالبعثة . ثم درست العلوم الطبيعية ، وانتقلت منها إلى دراسة أحياء المياه العذبة والمالحة ، فعلوم البحار بعامة . وبذل مكتب البعثات بباريس ، ومديره العلامة المرحوم الدكتور حسن فؤاد الديوانى ، غاية البذل فى تعليمى وتدريبى ، وحقق لى كل ما كنت أطلبه ، ويتطلبه عملى من سفر إلى مناطق الصيد ، ومعاهد الأحياء البحرية والمياه العذبة ،

والمؤتمرات العلمية . لم يستأذن القاهرة فى شىء من هذا ، أكثر من طلب امتداد بعثتى إلى خمس سنوات ، وكانت ستين لا غير ! وتحمل تبعتى شخصياً ، وسمح لى بالتجوال فى أكثر بلاد أوربا تقدماً فى العلوم التى أوفدت لتحصيلها، بل فى إفريقيا (محطتى الأحياء البحرية فى سلامبو بضواحى تونس ، وكاستليونى بالجزائر) لأتابع دراساتى وبحوثى فى موضوع تخصصى .

وكلمة تخصصى تتخذ فى هذا المقام صورة تبعث على الابتسام . فقد كنت أول عضو بعثة لموضوع يعمل فيه اليوم قرابة خمسين متخصصاً، كل فى فرعه ، يشرفنى ويسعدنى أن تكون باكورتهم من تلاميذى الذين بارك الله فيهم لبلدى ولى . كنت مدركاً ، مقدماً ، المدى ، الواسع الذى على أن أعمل فيه لدى عودتى ، ولذلك اجتهدت أن أعى كل شىء فى موضوع تخصصى (١٩) وحوله ، لأكون على استعداد لحل ما سوف يوضع أمامى من مسائل ومشاكل فى ميدان جديد على بلادى ، بل على كل منطقة الشرق الأدنى .

وجدت الخبير الأجنبى أقرب إلى سنى ، يكبرنى بأعوام قليلة ، ولأقلها صراحة ، دون تواضع زائف : لم يكن يكبرنى علماً واطلاعاً ، وخبرة بموضوع تخصصى ، إذ لم يجد فرصة فى حياته البريطانية مثلما وجدت فى بعثتى المصرية بباريس . لم يكن يعرف إلا ركناً من أركان بلاده، وأنا مضطلع بمسائل الحياة المائية والصيد والصيادين فى أكثر من بلد أوربى متقدم .

كان صداماً عنيفاً ، لا فى ظاهره أبداً ، بل فى أعماق نفسى ، لا سيما وقد أحسست بأن الرجل يريد أن يحبسنى فى ركن دراسة محددة، لا أحيد عنها ، هو الذى اختارها لى بطبيعة الحال . ولقد ذكرته فى أدب واحتشام بأن أول دراسة أشعر بمسيس الحاجة إليها فى أول عهدى ،

هى معرفة شىء كنت أجهله تماماً ، أنا العارف بشئون تخصصى فى أوربا ، ألا وهو : بلادى ذاتها . ويجب أن يمنحنى الفرصة لأتعرف على ظروف المياه المصرية وأحيائها ، التى لم أكن أدرى منها إلا القليل .

وأدرك الإنجليزى أن معنى ذلك تقصير أجله فى وظيفته ، وقطع عيشه فى بلادى . فداور وحاور ، وذهب إلى حد التهديد . بماذا فى ظنك ؟ بالتقارير السرية ! ! ! والويل لمن يهددنى ! فأنا مصر مثابر على أن يسمح لى بأداء واجبى الأول نحو عملى وبلدى .

لم أك أعرف أبداً أن إدارة مصايد الأسماك تعجلت عودتى ، وعودة زميلى فى البعثة ، تلمساً لما يعينها على خبيرها المعاند المتحكم ، الذى كان يخرجها من مأزق ليوقعها فى مأزق جديد. طاوعته على بناء سفينة علمية (هى عاطرة الذكر « مباحث ») دشنها سفيرنا فى لوندرة حينذاك المرحوم الدكتور حافظ عفيفى . فلما وصلت السفينة — وكان الخبير قد عمل لهم « البحرطحينة » وأفهمهم أنه بدونها لا يستطيع أن يؤدى عمله — رفض أن يخرج بها إلى البحر حتى يعينوا لها عدداً من الخبراء الأجانب ، فعينوا له اثنين من رجال العلم البريطانيين ، وضابط صيد إنجليزياً متمرساً بتشغيل آلات الصيد فى أعالى البحار . وعدت وزميلى بالبعثة ، فأصبحنا خمسة متخصصين ، وخبير صيد . ولا أدرى بماذا تحجج بعد ذلك ، عندما استمر يرفض الخروج إلى البحر بالسفينة العلمية « مباحث » . ولعل حجته كانت : أن الخبيرين البريطانيين ، وعضوى البعثة العائدين ، خصص كل منهم لبحث معين يركز عليه ، وأنه ما زال بحاجة إلى خبراء . . وخبراء .

ويبدو — دون أن أعرف من هذا شيئاً — أن مدير عام المصلحة حينذاك (الرجل الرزين المرحوم اللواء أحمد كامل ، الذى عين فيما بعد وكيلا لوزارة الحربية) بعد أن قابلنى وزميلى ، أدرك بثاقب فكره أنه يستطيع الاعتماد علينا . وتشاء الظروف المؤاتية أن يكون أركان حرب

المصلحة من زملائى بالمدرسة الثانوية ، وما برحت إلى اليوم جاراً لهذا الإنسان الكبير ، والصديق الوفى الكريم .

فلم يحل صيف ذلك العام – ١٩٣١ ، وقد عدت من البعثة فى أوائله – حتى حدث ما لم أتوقع ، وهو تلقى دعوة فجائية لمقابلة رئيس الوزراء ، ووزير الداخلية والمالية ، المرحوم إسماعيل صدقى باشا ، فى مكتبه ببولكلى . ولقد تكشف الأمر فيما بعد ، وعرفت أنه أراد الاطمئنان إلى الشخص الذى يرشحه اللواء أحمد كامل باشا لتولى مركز الخبير الأجنبى الأول ، وبخاصة ودار المندوب السامى تبذل المساعى بوساطة العميد الإنجليزى لكلية العلوم بالجامعة المصرية للتأنى فى موضوع عدم تجديد عقد الخبير البريطانى .

قضيت بمكتب صدقى باشا ربع ساعة فى حديث هادئ ، مشوب بالعطف على الشاب ابن الثلاثين المرشح لتحمل تبعة فنية ثقيلة ، وخرجت مستبشراً بالروح التى لمستها فى رئيس الوزارة ، ووزير المالية التى أتبعها ، وقد أمر مدير مكتبه بأن يذهب بى تواً إلى مكتب وكيل الوزارة . لم أك أتوقع بعد الأدب والذوق والعطف ، إلا أن أقابل بالمزيد عند الوكيل . وإذا بالرجل يجابهنى بلهجة التحدى : بقى هو انت ، ولم تكد تترك قاعات الدرس ، اللى عاوز تقعد محل الخبير الأجنبى ؟

أجبته بأنى لا أعلم شيئاً عن موضوع إحلالى محل الخبير ، لكنى أحب أن يعلم سعادته بأنى لم أترك قاعات الدرس ، كما يتصور . فقد أنهيت دراستى العليا بمصر منذ سبع سنوات ، واشتغلت عامين طبيباً بمستشفيات الرمد الأميرية ، وسافرت بالبعثة موظفاً مثبتاً . ثم سردت عليه ما قمت به خلال بعثتى من دراسات وبحوث وأسفار . ولم أستطع التغلب على انفعالى ، ولا أن أخفف من عنفى فى الرد على حكاية « قاعات الدرس » تلك .

تقول صفحة من مذكراتى هنا : « استقبلنى وكيل وزارة المالية ، رجل فى شرخ الرجولة ، وإن اختلط البياض بشعره الأسود . يقال عنه بأنه كفاءة ممتازة . ولكن ، رباه ! لماذا يبدو على هؤلاء المواطنين الكبار وكأنهم متخشبون بنشاء المكوى ! جلسة عاصفة ، انطلقت فيها أتحدث بعنف ، لأننى ، أخيراً ! أمسك بيدى تلك "الهيدرا" ذات الرءوس الكثيرة ، ألا وهى البروقراطية المصرية ، وأنفث مدى ربع ساعة بكل ما فى نفسى من كره لها . . واستمرت الجلسة أكثر من ساعة ، قلت فيها ما قال مالك فى الخمر ، وأمام رئيس من أشهر رؤسائها . . يا لله ! أهو عالم الزيف والمبالغات المضحكة ، نعيش فيه هنا ؟ . . . إلى أى مسار يتجه هذا البلد ، المحتاج إلى قوى أبنائه ؟ . . . ربما تركت عند وكيل وزارتى أسوأ فكرة عنى ، ولكنى استطعت ،أخيراً ! أن أهيل ما عندى من نقد للطريقة التى يدار بها بلدى على أم رأس واحد من أكبر ممثلى تلك الإدارة ! »

لقد ظلمت الرجل الكبير ، رحمة الله عليه ، ويمكننى أن أعترف بهذا الآن ، وأنا شديد الأسف إذ أسأت الظن به ، وهو يسحب فرخ ورق يسود صفحته بكلام كثير ، عرفت فيما بعد بأنه موجه للوزير ، يقترح فيه أن تؤلف لجنة برياسة الوكيل الثانى للوزارة ، المشرف على مصلحة مصايد الأسماك ، وعضوية ممثلين لتلك المصلحة ، ولوزاة المالية. ولكلية العلوم بالجامعة المصرية ، أتقدم إليها ببرنامجى ومقترحاتى !

ملحوظة : نشر هذا البرنامج بمجموعة « مذكرات ومباحث » معهد الأحياء المائية والمصايد ، بقايتباى ، تحت رقم ١ .

ولم تجتمع اللجنة إلا فى أوائل العام التالى (١٩٣٢) ، وعقد الخبير الأجنبى ينتهى فى ١٤ ديسمبر ١٩٣١ . ولاحظ أن كل هذه الأمور كانت خلف ستار كثيف ، لا أعلم عنها شيئاً !

وفى يوم ١٨ نوفبر ١٩٣١ ، عام عودتى من البعثة ، وأنا على شاطئ البحر قرب قرية المعدية ، أمام بحيرة أدكو ، أقضى نهارى فى فحص ما تصيده الجرافة الساحلية ، وبعد أن نظفت آلات التشريح والفحص ، وأقفلت كراسة مذكراتى ، فتحت صحيفة «المقطم» ، فإذا بهذا الخبر يطالعنى :

« الاستغناء عن خبراء أجانب : كانت وزارة المالية قد استخدمت ثلاثة من الخبراء الأجانب فى الشئون الجمركية ، أحدهم إنكليزى والثانى فرنسوى ، والثالث إيطالى ، وذلك بمناسبة تعديل التعريفة الجمركية . وقد استقال الأول منذ مدة ، واستقال الثانى أخيراً . فقررت الوزارة الاستغناء عن الخبير الإيطالى ، لا سيما أن العمل المطلوب منهم قد انتهى .

« وتقرر أيضاً عدم تجديد عقد خبير الأسماك الأجنبى بمصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك » .

أى أن الأمر قد انتهى وراء الستار بإصرار الحكومة على عدم التجديد ، وتعيينى مكان الخبير الأجنبى الأول ولما يمض العام على عودتى من البعثة ! أدرت بصرى فى الشاطئ الرملى الممتد ، وجمعت ثلاث قواقع جميلة ، احتفظت بها ، وسلمتها فيما بعد لوالدتى بالقاهرة .

لم أتآمر ، أو أدس ، ولم أخطب ود رؤسائى ورؤساء الخبير الأجنبى على حسابه . وإنما كان شعورى بقوة حقى ، وبواجبى نحو بلدى ، هو الذى جعل منى — كما أرى الآن — صورة جيل طالع ، جيل جديد ، اعتزم أن يأخذ أمور بلاده بنفسه ، وأن يوفى بدينها عليه ، وليس الدين فى عنقى لمجرد أننى ابن هذا الوطن فحسب ، بل لأن الوطن علمنى فى الكتاب ، والمدارس الابتدائية والثانوية والعليا ، وبالمجان فى أكثرها . ثم صرف على بسخاء منقطع النظير ، مدى خمس سنوات بأوربا ، مصاريف جامعية ، وأثمان كتب وأدوات علمية وملابس ، وتكاليف رحلات ، وللعلاج الطبى ، إن لزم الأمر ، ولم يلزم !

عندما عدت إلى مصر سنة ١٩٣١ وجدت الموظفين يشغلون نصف الوقت ، إن كانوا يعملونه ، وكنت فى أوربا أعمل طول النهار وبعض الليل . فلم يكن عجيباً أن أحس بالقوة الدافعة ، والاطمئنان إلى أن من يعمل ثمانى ساعات أو عشراً ، يجب أن يغلب من يعمل ثلاث أو أربع ساعات فى يومه . فإذا أضفنا إلى العمل ما تلقيته من علم وخبرة فى دائرة اختصاصى ، فقد يعذر لى شعورى بحتمية انتصارى فى النهاية .

وما أكثر ما حققت من فوز فى حياتى . أقولها مرة أخرى دون تواضع زائف . ولكنه فوز جاء نتيجة الكدح ، والإخلاص الكامل لعملى ، لا يعنيني إرضاء رئيس ، أو حب مرءوس ، بل إرضاء لضميرى وحده .

ومهما استنزف ذلك الجد والكد من عقلى وجسمى ، ومهما كلفنى كفاحى من مشاكل ومصاعب ومقالب وحبائل تنصب لى ، فإنى وقد خدمت حكومتى سبعة وثلاثين عاماً ، ذقت فيها المر أكثر من الحلو ، أستطيع اليوم فى هدوء الشيخوخة التوكيد بأنى لم أعمل عملا وأنا مدفوع إليه بترغيب ، أو أوامر أو رهبة . ولعل سر صفائى وأنا أستعرض هنا حياتى العملية هو فى أنى أحببت عملى دائماً ، فيما عدا فترة القلق التى انتابتنى بعد سنتين من العمل فى طب العيون ، والتى غيرت مجرى حياتى . وحتى تلك الفترة ، أذكرها الآن بالخير كل الخير ، وأحن إليها حنينى إلى كل سنوات التكوين والإعداد للحياة . فلم تكن العلوم وحدها هى التى عودتنى الدقة و « المكنية » ، بل كانت أيضاً السنتين اللتين أمضيتهما فى رعاية رؤسائى بمستشفيات الرمد الأميرية ، يقدمون لى خبرتهم وعلمهم لأضطلع بعضو من أدق وأرهف أعضاء الجسم ، بل بحاسة من أهم وألزم حواس الإنسان ، ولفائدة من ؟ لفائدة تلك الطبقة العاملة الفقيرة التى كانت تحتشد أفواجها كل صباح بباب المستشفى .

خلا لك الجو فبيضى وصفرى

فلنواصل « رحلة الحياة » ، وقد خلا « مكتب مباحث الأسماك » من كل خبرائه الإنجليز ، بقدرة القادر علام الغيوب .

يحدث أن إنساناً متهيباً مهيض الجناح يستجمع شجاعته مرة واحدة ، وينفذ أمراً فإذا به يتعدى حدود التنفيذ المفيد ، إلى ما لا يفيد ، وقد يضر . وهذا ما حدث فعلا عند ما نجحت مصلحة مصايد الأسماك فى إزاحة الخبير الإنجليزى الأول بالرغم من محاولات السلطات المحتلة الضغط عليها . فقد أتبعت إجراءها بعدم تجديد عقد الاختصاصى الثالث ، وعقد خبير الصيد فى أعالى البحار ، وكلاهما إنجليزى ، أما الاختصاصى الثانى ، وكان أسكتلنديا فقد ترك الخدمة قبل نهاية عقده ، ليلتحق بوظيفة جامعية بالولايات المتحدة الأميريكية .

وبذلك تضاءل عددنا إلى اثنين هما الأول والثانى فى بعثات الأحياء المائية المصرية . وإذا رضينا بهذا ، انتظاراً للثالث والرابع ، ولن يعودا قبل عام أو عامين ، فإن إنهاء عقد خبير الصيد قبل أن نستفيد فتيلا من خبرته ، كان إجراء لا مبرر له ، لم يؤخذ فيه رأينا بطبيعة الحال ، فقد كانت الأحداث تترى بسرعة كأنها تخلى الطريق أمامنا بفعل السحر . وربما كان هذا السحر هو الباعث على حركة اللاوعى التى بدرت منى بعد أن طالعت خبر إنهاء خدمة الخبير الأول فى « المقطم » كما جاء فى الفصل الماضى ، حينما أجلت بصرى فى الشاطئ الرملى عند قرية

« المعدية » والتقطت ثلاث أصداف جميلة .. نبين زين ، ونضرب الرمل ، ونشوف الودع ! .

رجوت المدير العام أن يسمح بإبقاء خبير الصيد معنا بعض الوقت ، بعد نهاية عقده ، واستجاب المدير الطيب الحازم ، ورضى الخبير .

وخرجنا بالسفينة « مباحث» إلى عرض البحر ، ليبدأ الرجل فى عمله ويلقط الصنعة ضباط السفينة وطاقم بحريتها . فعملية الصيد بشباك الجر ، المعروفة بجرافة « أوتر» لا تعدو أن تكون عملية مهارة بحرية « سيمانشيب » وملاحية : تحرك السفينة فى اتجاهات معينة لها علاقة باتجاه الريح ، وتشغيل ونش الصيد لإنزال طَبْلِيتَىْ « الأوتر » والأسلاك ، والشبكة الكبيرة . وكل هذه تمتد فى البحر خلف المركب إلى مئات الأمتار حتى تستقر على القاع ، دون حدوث تعقيدات واشتباكات « فاولنج » بين الحبال من الصلب المجدول والشباك ، وبين الشباك « وطبالى الأوتر» ، وأهم من كل هذا تجنب خطر التفاف الأسلاك أو الشباك حول الرفاص، روح السفينة النابض .

وأظهر الخبير الإنجليزى كفاءة وخبرة على طول رحلتنا ما بين غربى الإسكندرية وشرقى بور سعيد .

ولا بأس من ذكر واقعة تبين مدى بيروقراطية ذلك الزمان، حتى فى عرض البحر. فطبيعى أن تسجل المحاضر، ودفتر الأحوال ، كل تلف يحدث « للعهدة » ، وأقله كسر الصحون وما إليها ، نتيجة « درفلة » السفينة فى البحر الغاضب . أما إذا ضاع جهاز أو « عهدة مستديمة » فى البحر ، فالغالب أن يحتسب ذلك على أنه إهمال قد يقبل من ابن الأرض الثابتة ، ولكنه غير مقبول من رجل البحر .

بيد أن عمليات الصيد والكشف البحرى لا يمكن أن يجرى عليها مثل هذا الحساب. وقد حدث فى رحلة التجارب الأولى « لمباحث » أن

اشتبكت « طبالى الأوتر » بقاع البحر أمام الدلتا ، فيما بين برج البرلس ورأس البر. والطبالى ببيان خشبية ثقيلة ذات إطارات وحمالات من الصلب السميك . وبعد محاولات طويلة مضنية، وفى حرص كبير لاستخلاصها ، انقطعت الحبال الصلب ، فضاعت الطبالى والأسلاك والشبكة بقضها وقضيضها أو « كل ما فى جراب الحاوى » كما يقول الإنجليز ، أى فقدت من « العهدة المستديمة » وفى ثوان ، أدوات يقدر ثمنها بنحو خمسمائة من جنيهات ذلك الزمان . والأمر أفدح من صحن أو كوب يكسر ، فتحرر له المحاضر من كذا صورة ، واستمارات خصم معرفش إيه ع . ح.

ولا أنسى صورة القلق ترتسم على وجه القومندان وضباط الممشى ، ومنظر البحارة فاغرين أفواهم ، عندما حدث الحادث ، مقارنة بوجه ضابط الصيد الإنجليزى المشرف على العملية فوق الكويرته ، وهو يرفع بصره بكل هدوء نحو القومندان فوق الممشى ، ليقول له : « جو آهيد ، سير ! » وكان الله يحب المحسنين.

كنت وزميلى نشعر بالأسف على ضياع الأدوات الثمينة ، عزاؤنا فى أننا نملك غيرها فى عنبر السفينة ! وفى مخازننا على البر . فما كان أكرم الخبير الإنجليزى الأول فى اقتناء الآلات والعدد والأجهزة والشباك ، وهى فضيلة من فضائله ، رفض أن تؤتى ثمارها .. إلا أن تعين له الحكومة كافة الخبراء اللازمين .

ولكنى وزميلى لم نفكر أصلا بأن ما حدث أمر خطير ، سوف يتأتى منه سين وجيم . فأفهمنا إخواننا الضباط بأن الأمر طبيعى وأن الضياع والخسارة والإخفاق فى تجارب البحث العلمى ، هى والنجاح سواء بسواء . حسابهما يجئ غالباً فى خانة الكسب .

ولقد كشفت لنا الحادثة عن قيعان تراكم فيها طمى النيل إلى درجة

هائلة ، وتماسك بضغط الماء فى الأعماق حتى أصبح كالأسمنت المبلل . فلما أن غرست فيه « طبالى الأوتر » بثقلها ، وحلت تماماً . وذهبت محاولات خبير الصيد فى استخلاصها سدى .

ولو حدث وقطع حبل السلك المجدول قرب سطح السفينة ، لا فى الأعماق ، وأصاب رجلا ، فإنه قاتله لا محالة . ولأذكرن حادثة على السفينة « مباحث » فى عرض البحر الأحمر ، انقطع فيها السلك فوق سطح البحر ، وطارت عجلة القياس ، وآلة الديناموتر — الذى يقدر قوة الشد فى السلك — على قيد ذراع أو أقل من رأس الكولونيل سيويل ، رئيس بعثة السيرجون مورى إلى المحيط الهندى . ولما كنت ، بالإضافة إلى عملى العلمى ، قائماً بأعمال طبيب البعثة ، فإن مجرد التفكير بوفاة رجل أثناء رحلة التسعة أشهر كان يقض مضجعى بكابوس ثقيل ، ينتابنى أحياناً ، وهو الرعب من أداء كل الإجراءات التى يقتضيها الحال على جثمان المتوفى . ولم أجرأ أن أسأل قومندان السفينة الأسكتلندى مقدماً عن مدى تطبيق قوانين البحر فى هذه الحالة ، وهل يكون « قبر حرب بمكان قفر ، وليس قرب قبر حرب قبر » ، أو كما يحفر الإنجليز على النصب التذكارية لبعض أبطال البحر : « وليس له قبر . . غير العباب » !

ومما كشفت عنه تلك الرحلات الأولى « لمباحث » ، أن الأحياء التى تعيش لاصقة بالقاع أمام الدلتا ، كالصدفيات مثلا ، كانت كلها ضئيلة الحجم ، وأكثر منها آلاف مؤلفة من الأصداف الصغيرة الفارغة . وهى ظاهرة متوقعة ، لأن الوقت الذى يمضى بين إقامة سدى أدفينا وفارسكور على فرعى الدلتا فى فبراير ، وبين قطعهما فى نهاية الصيف أمام الفيضان ، أى الفترة التى تكون فيها مياه البحر أمام الدلتا بحرية خالصة ، هى كل ما يباح فيها ليرقات الأحياء بالالتصاق والنمو . ثم تتدفق مياه الفيضان إلى فراسخ فى البحر الذى يتحول إلى مياه عذب أو شروب ،

لا تستطيع معه تلك الأحياء البحرية اللاصقة أن تعيش ». بعد عمر لا يزيد عن نصف عام . وأذكر وصفى الشعرى لهذه الظاهرة فى دفتر الأحوال « اللُّجْ » الخاص بى ، حينما قلت بأن القاع هنا « أشبه بمقبرة فى قاع البحر» ولا شك أن مصدر هذا الوصف هو عنوان قصيدة بول فاليرى المشهورة ، يستوحى فيها جبانة مدينة « سيت » فوق ربوة عالية مطلة على البحر الأبيض ، وعنوان القصيدة هو « المقبرة البحرية ».

وأرجو أن لا يفوت الأقيانوغرافيين المصريين الاهتمام بما يجرى من تحول هيدرو دغرافى وبيولوجى أمام الدلتا ، بعد الحجز التام على مياه الفيضان أمام السد العالى .

وواقعة فقد طبالى « الاوتر » والشباك فيما بين برج البرلس ورأس البر أوضحت لنا أمراً هاماً ــ متوقعاً ومعمولا به ــ وهوأن مناطق القاع الأبليزى بفعل طمى النيل لا تصلح للصيد بجرافات « أوتر » من الحجم الكبير ، وطبالبها الثقال . والواقع أن الصيادين الإيطاليين من أهل الجنوب « مولفيتا وبارى » الذين كانوا يرتادون الإفريز الإقليمى لبحارنا قبل الحرب الأخيرة ، درجوا على الصيد بشباك الجر من سفن « موتور » صغيرة نسبيا ، وهى التى يستعمل الصيادون المصريون الكثير منها فى البحرين الأبيض والأحمر .

وتعود بى الذاكرة إلى العشرينات ، عندما أنشأ بنك مصر شركة مصايد الأسماك ، فشمرت عن ساعد الجد ، والمثل يقول « أول ما شطح نطح » ، واشترت أربع سفن كبار من التى تعمل فى الاطلانطى بخليج غسقونيا « بسكاى » ، بدأت بها شطحها فى البحر الأحمر ، فنطحتها الخسائر ، حتى لجأت إلى خبير ألمانى ، الدكتور لوبرت ، قابلته فى بلدته « كوكسهافن » على بحر الشمال ، عقب عودته من مصر ، وكنت على وشك الانتهاء من بعثتى الدراسية ، فحدثنى طويلا عما رآه فى بلادى ، وما نصح به ، وهو لا يخرج عن استخدام السفن الموتور الصغيرة ،

كالتى كان يعمل عليها الإيطاليون فى المياه المصرية .

عاد الخبراء الأجانب كلهم إلى بلادهم وبدأت وزميلى فى البعثة ، نواجه وحدنا مشاكل الثروة المائية فى مصر .

وآن أن أقدم للقارئ هذا الزميل الكريم ، وهو صديقى الدكتور إبراهيم عبد الجليل أبو سمرة ، مدير عام معهد الأحياء المائية والمصايد ، الأسبق . وزمالتنا التى امتدت طوال عملى بذلك المعهد ، أعتبرها مضرب الأمثال فى التعاون العلمى والفنى والإدارى تعاوناً صادقاً ، يكمل فيه كل منا أخاه ؛ أبو سمرة باتجاهاته العملية ، وأقدامه الثابتة على الأرض الطيبة ، وهو ابنها الفلاح الطيب ، اجتمعت فيه سجايا المصريين العتيدة : الأناة ، والاتزان ، والهدوء ، والاعتزاز بالكرامة ، والأنفة من ارتكاب الصغائر . وأنا ابن المدينة ، وحوارى القاهرة ، الهارب إلى الخلاء الفسيح والبحر الواسع ، يشدنى الخيال إلى طباق الجو العليا ، ويمسك العقل بتلابيبى حتى لا أطير . . أو يطير عنى !

ياللفرق الشاسع بين الفتى ابن الثالثة والعشرين يتخطى عتبة مستشفى الرمد بالجيزة ، ليتسلم أول شغل له فى الحياة العملية . كان يشعر فى داخليته بالرهبة ، ولا داعى لها ، فقد تمرن ثلاثة أشهر فى قسم الرمد بقصر العينى خلال دراسته ، وحاز فى امتحاناته النهائية على مدالية طب العيون وسيعمل بإشراف جهابذة التخصص الرمدى فى البلاد . . . .

وبين ابن الثلاثين يتسلم عمل « مدير مباحث الأسماك » بعد سفر الخبير الأجنبى ، وليس معه غير زميل بعثته ، وعلى عاتقهما أداء ما كان ذلك الخبير يستكثره على خمسة ، فيطالب بالمزيد . لم يكن مخطئاً فى مطالبه ، ولا متغالياً . عيبه أنه كان مثالياً مغالياً !

وذلك عيبى أنا أيضاً ، ولكن ماذا أصنع وقد وقع الفأس فى الرأس ؟ المهم أننى لم أشعر برهبة داخلية أو خارجية ! وأننى والحق لشديد

التعجب اليوم من قوة ثقتى بنفسى ، وبقدرتى على اقتحام كل الصعاب ، وتحريك الرواسى . أو هى الرواسب ، رواسب الماضى المتخلف والحاضر البيروقراطى . وأحب أن أكرر ما قلته فى الفصل السابق ، لأختم هذا الفصل ، وهو أننى :

« عندما عدت من بعثى وجدت الناس يشغلون نصف الوقت ، إن كانوا يعملونه ، وكنت فى أوربا أعمل طول النهار وبعض الليل . فلم يكن عجباً أن أحس بالقوة الدافعة ، والاطمئنان إلى أن من يعمل ثمان ساعات أو عشرا ، يجب أن يتغلب على من يعمل ثلاث أو أربع ساعات فى يومه . فإذا أضفنا إلى العمل ما تلقيت من علم وخبرة فى دائرة اختصاص فقد يعذر لى شعورى بحتمية انتصارى فى النهاية » .

جزاء ليس من جنس العمل

واصلت أعمالى مديراً لمباحث الأسماك ، فلمعهد الأحياء المائية والمصايد ، ثم أضيفت إلى وكالة مصلحة المصايد . وذلك من فبراير ١٩٣١ حتى آخر أغسطس ١٩٤٢ دون ملال أو كلال .

لا يتوقعن القارئ أن أسرد قصة همى وغمى ، منذ أن ولدتنى أمى ، كما يقال فى الحواديت . ولا يتوهمن أننى سأبحث له عن الطارف المعجب لتسليته . إنما هذه صور خاطفة ، أو « سندباديات طيارى » إذا فضلت من حياة مصرى كان عمله على رأس تساليه ، وليعلمن من لا يعلم أن المرء الذى لا يشعر بلذة العمل والكفاح ، الذى لم يدرك بأن معنى الحياة هو فى الحركة وعمق التجربة واتساع الخبرة والمعرفة ، لا يلومن إلا نفسه على شقائه ، وسوداوية فكره .

قال الفيلسوف اليونانى ، وقد وقف بقبر ملك شرقى (أظنه بختنصر) ، يطالع المحفور على نصبه : « أكلت وشربت و . . و . . . وتمتعت » : هذا نصب تذكارى جدير بخنزير !

فى أخريات السنوات الاثنتى عشرة بدأ أقرب أصدقائى ، وحتى بعض زملائى يرثون لحالى . سألنى زميل بلغ مرتبة الأستاذية بالجامعة عن درجتى المالية بعد خدمة نحو تسع عشرة سنة ، وضرب كفاً بكف عندما عرف بأن مدير معهد الأحياء المائية ، ووكيل مصلحة المصايد فرمل فى الدرجة الرابعة بمرتب أربعين جنيهاً !

سمعة طيبة ، وجهد لا ينى ، واعتراف له بالكفاية ، وأسفار بعيدة وقريبة أداء لواجباته . . . لا يقابلها من ناحية الحكومة ما يدل على أن الجزاء من جنس العمل . . إلا أن يكون ذلك الجزاء هو تمثيل الحكومة فى لجنة دولية دائمة (القومسيون الدولى للكشف العلمى بالبحر الأبيض المتوسط) يسافر إليها سنوياً ، أو ندبه لبعثة السير جون مورى إلى المحيط الهندى ، على السفينة المصرية « مباحث » . أو نتف أخبار فى الصحف السيارة عن تحركاته ودراساته ، أهم ما فيها الطرافة والتشويق . دراسة وحش بحرى نادر « قرش ـــ بالمينى » نفذ إلى قناة السويس مصاباً (بضربة رصاص غالباً) وجنح قرب محطة « كبريت » . وتشريح حوت يافع ، طوله سبعة عشر متراً ، بواسطة عشرة جزارين من رشيد وبرج مغيزل ، شحط على رمال الشاطئ على مبعدة أميال إلى الشرق من رشيد (وقد ذهبت جريدة « المقطم » فى خبرها إلى أن هذا الحوت ، فيما يقال ، يستطيع أن يبتلع سفينة بركابها !! وقرأت الخبر « السندبادى » فتوجهت إلى الأستاذ خليل ثابت ، دون سابق معرفة ، ولم أتكلم قبل أن أضع قصاصة « المقطم » بين يديه . فذعر الرجل العلامة ، واعتذر عن هفوة مراسله) . أو السفر بالبحر والبر ، وبطائرات السلاح الجوى البريطانى ،

فالسلاح الجوى المصرى عقب إنشائه ، إلى واحة سيوة للكشف عن عيونها ومجارى مياهها توطئة لأمدادها بأسماك حية .

أو مقابلة الملك فؤاد مرة فى العام للإدلاء بما تم من أعمال اللجنة الدولية ، أو بخطوات العمل بمعهد الأحياء ، وتقديم تقاريره ومذكرات مباحثه المطبوعة .

عندما توجه مدير مباحث الأسماك يشكو إلى وكيل وزارته قرار اللجنة المالية بترقيته إلى الدرجة الخامسة (بعد ثمان سنوات بالسادسة) مكتفية بإضافة حق مالى له ، على أساس أنه طبيب سابق ، فكان مجموع ذلك ٣٢ جنيهاً قال له الوكيل متعطفاً فى ابتسام : أهو يا أخى مرتبك قد عمرك !

وحتى بعد عودته من المحيط الهندى وعلى رأسه ريشة ، والجميع يثنون عليه من رئيس لجنة بعثة مورى بجامعة كمبردج ، إلى آخر عطشجى بطاقم « مباحث » ، ذهب يحيى وزير المالية ، فلطعه صباحاً عند مدير مكتبه ، حتى اضطر المسكين إلى العودة إلى الإسكندرية بعد أن رجا مدير المكتب أن يحمل عنه التحية إلى معالى الباشا ، وأن يتفضل بإخباره « أننى لم أجئه متسولا ! »

وكان أمراً طبيعياً بعد مقابلتى للملك فؤاد منفرداً ، ومع أعضاء البعثة المشتركة ، وبعد احتفاء وزير المعارف العمومية بنا فى حفل عام بالجمعية الجغرافية ، أن يتعثر طلب ترقيتى استثنائياً إلى الدرجة الرابعة وأن يوقف بالتالى اقتراح الإنعام على بوسام (لا يمنح إلا لموظفى الدرجة الرابعة فما فوق !!) .

ما معنى الاسترسال فى هذا الحديث البايخ ؟ ألا يكفى أن تعرف الأجيال الحاضرة والطالعة نصيب العاملين المجدين فى الأزمنة الخالية ، الذين لانصير لهم من قرابة أو نسب ، يقذف بهم فى العلالى ، ولو بالشلوط !

لقد ابتسم له القدر وتعطف — فإذا به ينقل بدرجته الرابعة ، ومرتب الأربعين وسن الأربعين عميداً لكلية العلوم وأستاذاً لعلم الحيوان بجامعة الإسكندرية حال إنشائها في أغسطس ١٩٤٢ . كان ذلك بفضل أستاذ الجيل الدكتور طه حسين ، المستشار الفني لوزارة المعارف حينذاك ، ومدير الجامعة الجديدة بالإضافة ، وبفضل تأييد أستاذي المرحوم الدكتور على إبراهيم ، مدير جامعة القاهرة .

ثم يرقى خادمكم المطيع إلى الدرجه الثانية استثناء ، ضمن نظام عام وضعته وزارة الوفد لتكافئ أعضاء هيئة التدريس الذين نقلوا إلى الجامعة الجديدة في أسوأ الظروف وأحرجها : الماريشال إروين رومل واقف بالعلمين ، على أهبة الوصول إلى الدلتا ، والجامعة الجديدة مجرد مراسيم وقرارات تبرطع فوق بلاط مدرسة ثانوية بالإسكندرية !

ولا يمضى عامان حتى « ترفت » وزارة الوفد ، فتجيء الوزارة المعادية وتلغى ترقيات الجامعة كلها بجرة قلم ، ويعود محسوبكم إلى درجته ومرتبه . أى يحدث شيء لا أظن له شبيهاً في تاريخ جامعات الدنيا : وهو أن عميداً لكلية العلوم ، وأستاذاً بها ، ورئيساً لمجلس إدارة معهد الكيمياء الصناعية ، ينزل إلى الدرجة الرابعة بمرتب أربعين جنيهاً .

والأدهى والأعجب ! أن أبقى عميداً، بل وتجدد عمادتى لثلاث سنوات أخرى . .

وتتخشى وزارة معادية تالية فتعيد بعض الحق بلجميع أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية ، فيما عدا اثنين رفض مجلس الوزراء إعادة حقهما إليهما . . بحكم علاقة صداقة ووفاء بينهما وبين المغضوب عليه من القصر والحكومة . . صديقى وأخى الكبير الدكتور طه حسين !

وعندما انتهت عمادتى ، استقبلنى الملك فاروق، بمناسبة عودتى من مؤتمر علمى كبير ، فأدليت إليه بخبر إنشاء كرسى « الاقيانوغرافيا » ،

أى علوم البحار ، وانتقالى إليه ، أى عودتى إلى موضوع تخصصى ، بعد أن « خلصت » من متاعب الإدارة والعمادة . . . فقاطعنى الملك وهو يقهقه ضاحكاً ضحكة غير ملكية . . « خلصت ، وإلا خلصم منك ... هاهاها ... ها ! »

نكست رأسى لأخفى ما بنفسى ، وقلت بمنتهى التواضع المادئ : لكل وجهة نظر يامولاى . ست سنوات تحملت أعباء إنشاء كلية العلوم بالجامعة التى تحمل اسمكم (وصورت له بعض لقطات مضحكة مبكية من أشهر الإنشاء الأولى) تخرجت منها دفعتان ، وأنشأت معهداً للكيمياء الصناعية ، انتقل طلبة دفعته الأولى إلى السنة الرابعة . . وأصبت من جراء كل ذلك فى حاسة من أدق حواسى وجلالتكم تعلمون بأمرها . أفلا يكون انتهاء عمادتى خلاصاً لى ؟ . . لا سيما وأننى سأركز جهودى فى عمل أحبه وتخصصت له ، يتوقف عليه مستقبل الثروة المائية بمصر ، وهو العمل الذى يعود الفضل فيه إلى والدكم المعظم . وقد جئت أطلب إليكم أن تساعدوا جامعتكم على المضى قدماً فى إنشاء معهد أقيانوغرافى جديد بها وبمدينة الإسكندرية .

النطق الملكى الكريم : حانشوف . . هع ، هع . . هع !

كان ذلك فى خريف ١٩٤٨ ، وأشهد أننى منذ تلك المقابلة لم أضع قدمى فى قصور الملك ، بمناسبة أو بغير مناسبة فيما عدا حفلة شاى عامة دعى إليها الموظفون و « الأعيان » والحكام للاحتفاء بمولد وريث الملك .. بينما الأرض تميد من تحته ، وتتلو بصوت القدر آيات الذكر الحكيم : (إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

فلنترك هذه الصفحات السود تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، فوالله ما عرفت شقاء المظلوم ، وبؤس المحروم إلا عند ما قرر مجلس وزارة محمود فهمي النقراشي بكامل هيئته استثنائى وزميلى من التسويات التى أعادت بعض حقوق نحو ثلاثمائة من أعضاء هيئة التدريس ، الذين قام على اكتافهم بناء الجامعة .

ومع أنى رفعت بعض الستر — ذكرى وعبرة — عن بعض ما جرى على بتلك الجامعة ، فمازلت متردداً فى أن اكشف عما بقى ، وهو أفدح ، وما خلفته حياتى فيها ، وبعد تركها ، من غصة ومرارة . وأحسب التردد منتهياً بى إلى إرخاء الستر ، عفا الله عما سلف .

فلنعد إلى حياتى بمباحث الأسماك ، ولم تك ظروفها البيروقراطية إلا منمنمة لصورة عامة شاملة لإدارات الحكومة .

بالبيروقراطية أو بغيرها سار عملى من نجاح إلى نجاح ، وإن كان بخطى السلحفاة ، ينوء به صبر أيوب ، فما بالك بمن لم تبق الأيام فى قوس صبره منزعاً !

تحولت إدارة مباحث الأسماك إلى « معهد الأحياء المائية والمصايد » والبناء الصغير الذى أعده لنا الخبير الأجنبى ، قد تمكنا من تحويره وتعديله ، وبناء أجنحته ، مما تحقق معه لنا عدد من معامل البحث الفردية ، وقاعة متحف ، تواجه قاعة مكتبة ، ما برحت تعتبر أهم مكتبة متخصصة فى علوم البحار والمياه العذبة وتربية الأسماك .

وأعددنا قاعة للأكواريوم لاقينا فى إتمامها متاعب لا تصدق : فزجاج الأحواض لا سبيل إلى إقامته ولصقه بالحائط دون أن يتهشم . وإن سلم ، تسربت المياه من بين الحائط وبينه . مهندس يروح ومهندس يجيء ، وألواح تتشقق ، ومعجون تخترقه مياه البحر كأنه رمل ترشيح ، مع أننا قدمنا للمصلحة القائمة على البناء أكثر من روشتة لمعجنة زجاج الأكواريا .

وضاع عام بأكمله ، وتلك المصلحة عاجزة عن تركيب طلمبة لرفع مياه البحر إلى الخزانات العليا ، وأحيل الأمر فى النهاية إلى مصلحة الميكانيكا والكهرباء ، مع صيانة ماء وجه مصلحة المبانى ، فلم يمض شهر حتى كانت خزانات الماء العليا مملوءة والطلمبات تؤدى عملها .

وسنوات الأزمة الاقتصادية العالمية اتخذت فى بيروقراطيتنا صورة من أعجب الصور ، ربما كانت هى الصورة المثالية بعد أن لجأت حكومتنا « السنية » إلى خبير بلجيكى شهير « فان زيلاند » مع ملاحظة أن وعلمى بالاقتصاد أقرب إلى معارف بياع الترمس !

كل ما أعرفه أن التعليمات صدرت بإيقاف الترقيات والعلاوات وإلغاء الدرجات واستعمال « الظروف » الحكومية أكثر من مرة ، والكتابة على الورق وش وظهر ، وأن لا يصرف من اعتمادات الميزانية سوى الضرورى ، والشاطر من مصالح الحكومة هو الذى يعيد إلى الخزينة أكبر مبلغ من اعتمادات لم تصرف . لأى هدف ؟ لتضاف إلى الثلاثين أولا أدرى كام مليون جنيه التى تغط غطيطاً فى مكان ما . .

مع أنى على طول خمس سنوات قضيتها بفرنسا ، والمشروعات قائمة على رجل ، والنشاط العلمى والفنى والاقتصادى والترفيهى بالغ أشده ، وفى آخر كل سنة مالية خزائن الدولة أفرغ من فؤاد أم موسى ، والحكومة مضطرة إلى الاستدانة من كل من هب وما دب ، فأتصور أن الحكومة الفرنسية على وش إفلاس . لأننى لم أتعود هذا النوع من الحيوية والحركة وقد نشأت على اعتبار أن نقص احتياطى الدولة بمعناه : يا خسارة مال الخواجة ! على أونا ، على دوى !

وماذا تستطيع مصلحة خفر السواحل ومصايد الأسماك أن توفره ؟ لا من علف الخيل ، ولا فى مرتبات الموظفين ووقود الطوافات . ما أسهل أن تنزل على إدارة مباحث الأسماك تشطيباً فى ميزانية الكتب والأدوات

والأجهزة العلمية والدرجات .

وبالرغم من كل شيء ، فما زلت أعتبر سنوات عملي بمعهد الأحياء المائية من أسعد أيامي ، ففيها ذرعت بلادي بطول الوادي الخصيب ، وعرض الصحاري حتى أقصى الواحات شمالا وجنوباً ، وعرفت ما يكاد يكون كل ركن من بحيرات الدلتا ، والبردويل ، وقارون . وكانت أحب رحلاتي تلك التي أجتمع فيها بالصيادين فوق ميدان عملهم المائي ، وأنزل إلى سفنهم ، أو أصعد على سطح اللنش لأخطب جمهورهم وقد احتشدوا في فلايكهم حولي . فتنكشف لعيني صورة بانورامية للنظام الرأسمالي في بداوته وضراوته ، صورة مصغرة للفلاح فريسة الاستغلال والجهل والفقر والمرض . وما أكثر ما حاولت للصياد فكاكا من ربقة مستغليه دون جدوى ! لأن فهمي قصر عن إدراك شيء بسيط جداً ، وهو أن النظام كله لم يكن يسمح بتحرير عمال الأرض ، وهم عماد ثروة البلاد . فما بالك بعماد الثروة المائية ، وكانت لا تعد شيئاً مذكوراً ولا حساب لها في دوائر الحكومة ، ولا في دوائر المال والأعمال ، ولا حتى في غذاء الشعب !

يدخل سندباد العصر والأوان

صورت فى الفصل السابق ــ بالطريقة السفنجورى ــ اقتصاديات الحكومة المصرية فى سنوات الأزمة العالمية ، ومن جراء انهيار سوق المال فى وول ستريت عام ١٩٢٩ وتعطيل السفينة « مباحث » عن عملها الأصلى فى مطالع الثلاثينات . وكنا قد وضعنا لها مخطط عمل يتناول الإفريز الإقليمى للبحار المصرية من السلوم إلى رفح ، ومن بورسعيد حتى مرسى علم ، على أساس رحلات قصيرة ، إذ كان مستحيلا على وزميلى أن نغيب كلانا فى البحر طويلا . ولكن ، بحجة وأخرى ، كانت تؤجل الرحلات حتى تأكد لدينا أن لا سبيل إلى وضع سفينتنا فى خدمة العلم وتطبيقاته . واعتقادى اليوم أن تنفيذ مخططنا فى ذلك الزمن البعيد كان من الممكن أن يضع لنا ولمن جاء بعدنا صورة علمية ، وخريطة عملية لاستغلال ثروتنا البحرية .

ولا يتصورن القارئ أن الحيلولة بيننا وبين سفينتنا أوقف حالنا ، فما كان أوسع أعمالنا وأكثرها . وحتى يومنا هذا ، يكفى أن يضع الطالب يده فيما تخرج شباك الصيادين ليجد مائة موضوع وموضوع للبحث العلمى . ولشد ما كانت أمنيتى فى تلك الأيام الخوالى أن تعنى جامعتنا الوحيدة ببعض تلك الموضوعات ، إعداداً لرسائل الماجستير والدكتوراه . وسرعان ما تحققت ، فقد أنشأت كلية العلوم محطتها البحرية المشهورة بالغردقة ، عمل بها خبير بريطانى ، وخلفه فيها الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر ، وأخيراً الدكتور عبد الرحمن الحولى ، وخرجت من تلك المحطة أعمال علمية هامة ، كما اتجهت فى السنوات الأخيرة إلى التطبيقات



العلمية مما قربنا كثيراً من الإحاطة بخصائص البحر الأحمر وأحيائه ، وممكنات استغلالها ، وخاصة إذا ما امتد إليها العمران سياحياً وتجارياً وصناعياً ، بتمهيد الطرق وتعمير المرافئ ، وإنشاء الموانى وإقامة مخازن التبريد على طول الشاطئ الساحر لبحرنا الشرقى .

وبينما تعمل « مباحث » كطوافة للحراسة والمراقبة ، وصل إلى وزارة المالية ، عن طريق المرحوم الدكتور حافظ عفيفى ، وزيرنا المفوض بيلاط سان جيمس ، اقتراح لأستاذ علم الحيوان بجامعة كمبردج بأن تعار « مباحث » إلى بعثة بريطانية نظمت لدراسة البحر الأحمر ، والبحر العربى وشمالى المحيط الهندى ، بأموال للسير جون مورى بطل أهم بعثة جابت بحار العالم فى القرن الماضى على السفينة « تشالنجر » . رصدها قبيل وفاته سنة ١٩١٤ للكشوف الإقيانوغرافية ، وعطلت الحرب الأولى تنفيذ الوصية ، وتجمع منها مبلغ أربعين ألف جنيه . فتألفت لجنة علمية برئاسة البروفسور جاردنر ، اختارت المناطق التى ذكرت ؛ ووضعت برنامج الكشف العلمى بها .

استدعانى مدير مصلحتى وسألنى رأيى فأوضحت له أهمية تلك البعثة من وجهة نظرنا القومية : تدريبنا وتدريب ضباطنا البحريين وبحارتنا على تنفيذ الخطط الكبرى فى كشوف البحار ، بالإضافة إلى دراسة البحر الأحمر . ولما أبدى المدير العام اعتراضه على الإعارة ، أجبته بأن الأمر يتعدى المصلحة إلى وزارة المالية ، والحكومة هى التى تقرر ما يتفق والصالح العام .

ولم تعجب المدير إجابتى .

وقد كان ، إذ جاء قرار وزارة المالية بالموافقة المبدئية . وجرت المفاوضات بين القاهرة وكمبردج فى أوائل سنة ١٩٣٣ . وتألفت لجنة بمصلحة خفر السواحل برئاسة مدير البحرية للاتفاق على شروط الإعارة . وانتهى الرأى

إلى أن تؤمن البعثة عند اللويدز على سلامة السفينة وركابها ، وأن تقوم هى بأداء مرتبات ضباط السفينة ومهندسيها وطاقمها وبدل سفرهم .

واشترطت البعثة أن يقود السفينة قومندان ، ويشرف على آلاتها باشمهندس تعينهما البعثة فى إنجلترا ،واقترحت لجنتنا أن يصطحب قومندان البعثة قومندان مصرى يقوم بواجب تمثيل الحكومة المصرية فى الموانى التى تزورها «مباحث» ، فردت البعثة بأنها لا تستطيع أن تكل أمر القيادة إلا إلى شخص واحد ، هو القومندان الذى تعينه ، وأنها تخشى أن تقوم سلطتان على ظهر السفينة بما يتعارض والمبدأ الأساسى لسلامة القيادة .

وتمد البعثة السفينة « مباحث » بالأجهزة العلمية والأدوات اللازمة ، وثلاجة للأطعمة بالعنبر الكبير ، وجهاز قياس الأعماق بواسطة الصدى (من الطراز المستعمل فى سفن البحرية البريطانية) . وكلها تبقى ملكاً للسفينة . كما أن الحكومة تحصل على نموذج من جميع الأحياء والنماذج العلمية وجميع ما تصدره البعثة من تقارير علمية .

وتصطحب البعثة اثنين من الإخصائيين المصريين يضمان إلى عضويتها (ولكن مرتباتهما وبدل السفر على حساب الحكومة المصرية) .

ولقد نفذت البعثة كل الشروط بأمانة، وأشركت — بعد عودتها — مصريين من أعضاء البعثة العلمية فى بريطانيا لدراسة بعض نتائجها بجامعتى كمبردج وليفربول .

وشرط عدم تحمل مرتبات العضوين العلميين — مع أن البعثة تحملت كافة التكاليف — غريب فى بابه ، إلا أن يدرك المعنى المفهوم من إشراكنا ، وهو أنها إنما تضم العضوين المصريين « للتعليم والتدريب » وقد حاول عميد كلية العلوم (البريطانى) بالقاهرة أن يثنيني عن الاشتراك فيها بحجة أنى خبير «قد الدنيا» فأجبت ، على رسالته بأننى أحوج من

كل أعضاء هيئة التدريس بكليته إلى التعليم والتدريب، فلا يتشسن لحالى ا

وأشهد أن مصلحة خفر السواحل كانت أحرص منى على أن أمثلها بل أمثل حكومتى ، بحكم أنى أكبر موظف مصرى على السفينة أتحمل تبعة الجميع . وقد نشأ عن هذا موقف عجيب حقاً ، وهو اضطلاعى بمسئولية فعلية ، دون أن يكون لى أكثر من السلطة الأدبية . ومع أن رئيس البعثة اختارنى لأكون طبيب السفينة أيضاً فإننى لم أكن مرءوساً له فحسب، بل « مصريا » ضم إلى البعثة « للتعليم والتدريب » .

كما أشهد أن المصلحة قد أحسنت اختيار ضباط السفينة ومهندسيها وطاقمها .

لقد نشرت فى كتابى « سندباد عصرى » صوراً إنسانية من الرحلة ، لا علاقة لها بعمل البعثة العلمى ، كما سجلت تاريخ البعثة وتفاصيل تكوينها ورحلاتها العشر فى التسعة الأشهر ، وتقاريرى السرية التى كنت أرسلها إلى رؤسائى من ميناء الوصول عقب كل رحلة . ونشرته الحكومة فى كتاب ، سنة ١٩٣٩ ، بعد عودة البعثة بخمس سنوات ، وهى المدة التى اشترطت بعثة مورى على كل أعضائها أن لا ينشروا شيئاً عنها . وربما عدت إلى هذا « الكتاب التذكارى » فيما يلى .

إنما أعجل بالإشارة هنا إلى الجو الذى اشتمل المصريين فى الشهرين الأولين من تلك الرحلة التاريخية التى رفرف فيها العلم الأخضر على طول البحر العربى وعرضه ، وفى خليج عمان حتى مدخل الخليج العربى ، وشمالى المحيط الهندى حتى خط عرض ١١ درجة جنوبى خط الإستواء . كانت سفينتنا « مباحث » موضع إعجاب كل من التقينا بهم من رجال البحر ، أو الرسميين بالموانى الأجنبية ، وجرت بذكرها صحافة العالم ، ولم يفت الجرائد البريطانية أن تمعن فى المعجب الغريب من أعمال البعثة ، تزيداً واستثارة ، كأن تتحدث عن اكتشافنا للقارة الأسطورية الغارقة

« ليموريا » فى قاع المحيط الهندى ، وهى التى تشبه أختها « أطلانطيس » الغائرة فى المحيط الإطلانطى !

وعلى الرغم من أن جميع المصريين دون استثناء كانوا مثالا رائعاً من الخلق والكفاية والتفانى ، فإن سلوك الضيوف فى الفترة الأولى كان صورة من أسوأ صور السيطرة والعجرفة وضعف الثقة «بهؤلاء المصريين» . فمن يكونون إلى جانب أبناء دولة البحار السبعة التى لم تكن الشمس قد غربت بعد عن ممتلكاتها !

ونالنى الكثير من العنت والاضطهاد بحكم إحساس الضيوف بأننى أمثل أصحاب السفينة ، وبما بدا لهم من نفوذى الأدبى على جميع مواطنى ، وقد ثبت لنا أن زملاءنا العلميين فى البعثة البريطانية كانوا شباناً حديثى التخرج من جامعة كمبردج ، ولكنهم فى الحق كانوا على قدر كبير من متانة الخلق والكفاية العلمية . وأما رئيس البعثة فهو من أكبر خبراء المحيط الهندى بحكم اشتغاله بحكومة الهند سنوات طويلة على سفن الأبحاث فى بحر بنغال وبحر الهند .

وإذا كنت كبحت جماحى بأقوى ما يتحكم إنسان فى أعصابه ، فلأنه كان من المستحيل على أن أظهر أقل امتعاض أمام مواطنى . وأنا بحكم تطبيبى للأربعين نفساً فوق سفينة لا يتعدى طولها أربعين متراً ، وصافى حمولتها مائة طن ، كنت أنفذ إلى نفسية الجميع ، فى جو البحر الأحمر المرهق حرارة ورطوبة ، وخاصة شهر اختراقنا له ذهاباً « سبتمبر » فأهدئ من سورتهم ، وأحنى رأسى لرئيس البعثة راضياً بالمذلة والمهانة !

ولقد صارحت إخوانى بأن واجبنا نحو بلادنا يقتضينا ضبط أعصابنا إلى أقصى درجة . لأن أى إخفاق أو عوج فى أعمال البعثة ، حتى لو كان الضيوف هم المسئولين عنه ، سوف يفسر أمام العالم على حسابنا . فمن ذا الذى يصدق بأن إخفاق بعثة بريطانية يشترك فيها مصريون على

سفينة ترفع العلم الأخضر ، يكون مصدر الخيبة فيها أبناء الأمة البحرية العظمى ؟

وشاء ربك أن أحقق الفوز « بالنقط » فى الشهرين الأولين على إثر واقعتين أولاهما ذات صفة جادة ، والثانية هزلية !

دخلت (برطوز) البحرية أتعهد مريضاً فإذا البحارة فى ثورة لأن رئيس البعثة ، وهو يتجول على الكويرته ، اعترض طريقه أذكى وأقدر بحرى فى طاقم السفينة . كان البحرى ماهر على عطيوة قاعداً على الكويرته يصلح شباك البعثة ! فتحول رئيس البعثة عن طريقه متململا بحركة من حذائه ، وكأنه يلكز على بقدمه !!

« هوا فاكرنا مين (بتضخيم اللهجة الإسكندرانية) ، يمكن فاكرنا ظى (زى) ... (وأشاروا إلى درة من جواهر التاج البريطانى حينذاك) يوطوطهم علشان يركبوا الخيل ... إلخ إلخ .

ذهبت من توى لمقابلة قائد السفينة ، وكانت أول مرة أتجه إليه فى شأن ما ، وهو أسكتلندى حاد الطباع جداً ، اتخذ من أول الرحلة صورة بعبع المركب ، من التعالى والصمت ، والبوز شبرين ، وعدم الاختلاط ! فأخبرته بما حدث ، وبالحالة التى وجدت عليها البحارة ، وبأنه قد يصعب على إبلاغ رئيس البعثة بما بدر منه ، هذا إلى أن الأمر يختص برجاله هو ربان السفينة ، ولذلك أترك الأمر بين يديه ليتصرف مع رئيس البعثة بما يرتئى .

وفى الأيام التالية حتى آخر التسعة الأشهر ، لم يكن الكولونيل سيويل يمر ببحار أو بمجموعة بحارة ، فى عمل ، أو جالسين فى الراحة دون أن ينزاح عنهم فى أدب ويبتسم لهم ويحيى برأسه تحت الطاجن الفلين المضحك الذى يسميه الفرنسيون « الخوذة الاستعمارية » .

الواقعة الثانية هزلية ، تتعلق برئيس السفرجية الأجنبى . فإلى هذا

الحد كانت ثقة الضيوف بالمصريين ضعيفة حتى عينوا فى هذه الوظيفة الثانوية . . . مالطياً اسمه باولو ، من حثالة الإسكندرية ! لم تمر عليه الرحلة الأولى : السويس — عدن حتى ظهر أن « خيبة الأمل راكبه . . . مركب ! »

كانت للدلك المالطى قدرة عجيبة على تفجير البثور فى أنحاء جسده . أعالج منها مجموعة هنا ، فتنفجر مجموعة هناك فى أطرافه ، وعنقه ، وظهره ، كاللعبه اليابانية : حبايه فى كبايه تطرح وردايه ، مش معقول ! هذا الرجل هو قائد أوركسترا الدمامل ! أتته الدمامل منقادة إليه تجرجر أذيالها ، فلم تك تصلح إلا له ، ولم يك يصلح إلا لها !

نبهت القومندان إلى أن وجود باولو وسط الأصحاء لا تؤمن عقباه . فإذا كان مستطيعاً أن يأمر البثور والقروح فتجرى بأمره ، فما الذى يمنعه أن يهدى باقات منها إلى أفراد الطاقم ، ولا يبقى لى وقت لأداء أى عمل سوى . . . مطاردة الدمامل الطائرة فى جو السفينة !

وتكشف أمر السيد باولو عن كرامات أروع ، فقد كان من النوع الذى لا يكره رجال البحر شيئاً أكثر منه ، إلا أن يكون التحدث عن شحط السفن وجنوحها . لم يكن يمضى يومان والثالث حتى يلزم باولو البرطوز ، ويقول : آه . . .

لم يكن من الصعب اكتشاف هذا النوع المعروف للأطباء العاملين بين مجموعات بشرية تشتغل سويا : التمارض . والكلمة الإنجليزية لها فى البحر رنين قبيح : « مالنجارر» . فالمجموعة المحدودة التى تعمل فى البحر على مركب صغير لا يمكن أن تتحمل رجلا فى عنفوانه يدعى المرض .

وعندما وثقت من أن كفايات باولو لا تنضب ، ذهبت إلى «الناخداه» الاسكتلندى أدلى إليه باكتشافى الجديد . وأترجم له بالإنجليزية ما يقابل

قولك : أنا حطيت صباعي في الشق من باولو بتاعكم ده . فلم يكذب رب البحر خبرا ، واصطحبني إلى « البرطوز » للكشف على « باولو المريض بالعراق » .

أمرناه بخلع فانلته القذرة ، وإزاحة حجر بنطلونه ، وهو يقول : آه . فأرد عليه : فين يوجعك ياحويا (ياخويا بالمالطي) ، وأنا أتحسس وأدق على مساحات من ظهره وصدره وبطنه . . . كلا لم نكن بحاجة إلى سماعة ، أو «إشاعة» ، كما يقول العوام ، ما دام الأمر كله في صميمه إشاعة كان كل عملي « شغل يد » . . فاتضح للكابتن ماكنزى أن رئيس السفرجية المالطي يشكو من التهاب بلورى ، وكسور متعددة في القفص ، وقرحة في المعدة تمتد إلى الإثنى عشرى ، والتواء بالمصارين ، والتهاب في الزائدة الدودية . . بالإضافة إلى حصوة في الحالب ، احتقان المثانة ! أى أن باولو ، « ياحويا » ، يشكو نصف كتاب في الطب الباطني .

زعق إيان ماكنزى في الرجل : يو آر إيه مالنجارر . . جت أب يو بلادى فول !

وفي أول يوم وصولنا إلى عدن سرحنا باولو بتذكرة عودة إلى بلاد تفيض سمنا وعسلا وتزرع القثاء والأرز والعدس والقمح . . والفول !

وعين السفرجي النوبي مكان المالطي ، وقد بلغ من حب القبطان الأسكتلندي للسفرجي المصري طوال الرحلة أن أهداه تذكاراً ذا قيمة ، أو مالا « له صورة » في لغة مؤرخنا العظيم إبن إياس !

من الذاكرة إلى كتاب تذكارى

كتبت الفصل الماضى من الذاكرة ، وأشرت فيه إلى « الكتاب التذكارى » الذى وضعته ونشرته الوزارة بعنوان « رحلة الباخرة المصرية « مباحث» إلى المحيط الهندى مع بعثة السيرجون مورى » ،ولم يكن الكتاب تحت يدى . ثم تمكنت من استعارة نسخة ، أعدت مطالعتها ربما لأول لأول مرة منذ عام نشرها سنة ١٩٣٩ . وأستأذن القارئ فى الوقوف مرة أخرى عند تلك الرحلة ، بنقل فقرات من ذلك الكتاب ، فالأمر متعلق بدور من أدوار التطور العلمى لبلادنا . ولا أحسبنى مضطراً الآن ، أو فيما بعد ،إلى الدخول فى تفاصيل علمية لا تعنى سوى أهل الاختصاص. إنما المهم أن نحاول هنا وضع صورة إنسانية لتلك الرحلة ، لا كما وعتها ذاكرتى ، ولكن حسبما جاء فى سجل رسمى كتب بعضه إبان الرحلة ذاتها ، والبعض الآخر عقب ختامها فى مايو ١٩٣٤ .

قطعت بعثة السير جون مورى ٢٢٠٠٠ ميل بحرى فى البحر الأحمر وخليج عدن وخليج عمان والبحر العربى والجزء الشمالى من المحيط الهندى . استغرقت الرحلة تسعة أشهر (٢ سبتمبر ١٩٣٣–٢٥ مايو ١٩٣٤) ، قضت منها « مباحث » ٢٠٠ يوم فى عرض البحر ونحو ٧٠ يوماً فى الموانى . ويجب أن نتصور سفينة طولها ٤٢ متراً ، وصافى حمولتها ١٠٣ أطنان ، يعيش فوقها أربعون نفساً ، ما بين الصعيدى والنوبى والبحراوى والقاهرى والسكندرى ، والإنجليزى والأسكتلندى والأسترالى والنيوزيلاندى والمالطى . رجال بحر ورجال علم ، يعيشون فى حيز ضيق ، خال من أى أثر للرفاهية . فإذا أضفنا ما يتعرض له رجالها من أخطار الغرق والتصادم والجنوح وقطع أسلاك الصيد تحت ضغط أطنان ، قد تقتل

من فى طريقها ، وإذا راعينا الجو الحار الرطب فى المناطق الاستوائية ، وما تعرض له الجميع من أمراض فى أفريقيا وآسيا ، فإن بالمستطاع تصور المجهود الرائع الذى قام به المصريون وضيوفهم ، مما نوهت به الصحف المصرية والأجنبية فى حينه :

صور من الأخطار : (من مذكرتى التاسعة المرسلة من عدن فى ١٠ مايو ١٩٣٤) . « ورجائى أن تحوطنا العناية حتى آخر الرحلة . فقد كاد الوبريس على عطيوة أن يفقد أصابع يده بين عامود البطافورة وحبل معدنى يحمل ضغطا ينيف على الطن . وقد أخذته بمجرد بلوغنا عدن إلى مستشفى الطيران الحربى للكشف على عظام يده بالأشعة ، فظهر أنها سليمة ، ورفعت عن يده الرباط والجبيرة .

« ووقع حادث آخر كاد يتحول إلى مأساة إذ سقط عبد الفتاح محمد ، مندوب الجامعة المصرية ، فى البحر أثناء اشتغاله بجمع الماء من الأعماق . وكان عمق البحر فى تلك المحطة ألف متر فى خليج عدن المزدحم بوحوش البحر (القروش) ، وعبد الفتاح لا يعرف السباحة . ومن حسن الصدفة أن كان القارب فى الماء (والباخرة واقفة لدراسة المحطة الهيدروغرافية) وبه نفران ينظفان جوانب السفينة ، تأهباً لدخول عدن وقد ألقى البحريان الماهران محمد السلامى وأحمد يوسف بنفسهما فى الماء ، وأسرع الريس أحمد سرور فقفز من السفينة إلى القارب ، ومد البحرى ماهر مصطفى عبد الكريم مجدافه . وبذلك استطاعوا إنقاذ عبد الفتاح من غرق كان محققاً . وإذا ذكرنا بأن ضباط السفينة أطلقوا نيفا وأربعين رصاصة فى الأسبوع الماضى وقتلوا ١٨ قرشاً من قطيع أحاط بالسفينة أثناء وقوفها ، فلاشك أن المصلحة توافقنى على أن البحريين اللذين ألقيا بنفسهما فى الماء قد قاما بعملية إنقاذ تدل على جرأة نادرة وإنسانية عالية ، نوه بها القومندان ماكنزى من أعلى الممشى .

الحالة الصحية : (من ترجمة تقريرى الطبي فى نهاية الرحلة) :

« . . . إلا أنَّ الحالة لم تتخذ دائماً هذا المظهر الباسم ، فقد حملتنا أعمال البعثة حول المحيط الهندى ، وتعرضت صحة الجميع لأمراض المناطق الحارة فى كل مرة نزلنا فيها إلى الأرض ، وكانت معجزة لو أننا اجتزنا تلك الظروف دون أن نصاب .

ويمكننا أن نقسم التسعة الأشهر التى استغرقتها البعثة إلى ثلاثة أدوار الدور الأول : حينما بدأ الجميع رحلتهم فى أحسن صحة . الدور الثانى : حينما انحطت مقاومة الجميع بفعل العمل الشاق فى المناطق الحارة . الدور الثالث : حينما استعاد الجميع قوتهم بعد استراحة دامت ثلاثة أسابيع فى كولومبو .

الدور الثانى : بدأ هذا الدور أثناء عبور السفينة من بومباى إلى ممباسة ، واستطعنا أن نلاحظ على الجميع علائم الضعف العام . فكانت الجروح بطيئة الالتئام وزادت نسبة التوعكات . ولكن أعمال البعثة لم تتأثر بفعل هذا الضعف ، كما أنها لم تتأثر حينما حلت الملاريا على ظهر السفينة . والدليل على هذا أن رحلة (ممباسة ـ زنجبار) كانت من أحسن الرحلات إنتاجاً ، مع أننا جميعاً كنا ننحدر إلى حالة جلية من الضعف.

وفى ممباسة اتصلنا على الشاطئ الأفريقى بمنطقة من المناطق الموبوءة بالملاريا وغيرها ، وظهر أثر اتصالنا فى الأيام الأولى بعد سفرنا من ممباسة . فظهرت أعراض الملاريا على اثنين : أحدهما من البحرية ، والآخر من الأعضاء العلميين ، وأثبت الفحص الميكروسكوبى ذلك . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الكينا كانت تعطى للوقاية ، ولعل ذلك أخفى حالات العدوى البسيطة . وقد ظهرت ثلاث أو أربع حالات ملاريا مشكوك فيها وعولجت بالكينا . ونصحنا أطباء مستشفى زنجبار أن نتعاطى الكينا حتى عودتنا إلى الإسكندرية .

وبعد مومباسة ظهر جلياً أن جميع ركاب السفينة فى حاجة إلى الراحة . فقد أبقى فى مستشفى زنجبار أربعة أو خمسة رجال . كما كان على ظهر السفينة من المرضى ما يعادل هذا العدد . وأصيب أحد الرجال (وقاد) باحتباس معوى قبيل وصولنا إلى زنجبار واستعصى على أطباء مستشفى زنجبار ، وكادوا يجرون عملية فتح البطن لولا رجائى أن يتريثوا إلى أقصى ما يستطيعون . ثم انصرف الاحتباس وقررنا أن نعيد الرجل إلى الإسكندرية .

الملاحة عبر الأقيانوس : (مذكرتى السادسة المرسلة من زنجبار فى ٢٧ يناير ١٩٣٤) : « نسافر يوم ٣٠ يناير متجهين جنوباً إلى جزيرة كومور (خط عرض ١١ْ٨ درجة جنوبى خط الاستواء) ، ثم نتجه شمالا بشرق حتى جزائر سيشيل حيث نأخذ مقداراً إضافياً من الفحم لنشرع فى رحلتنا الطويلة عبر المحيط . ويتوقع الجميع أن تكون من أصعب الرحلات على « مباحث الصغيرة » . نعم أننا عبرنا المحيط من بومباى إلى ممباسة ، ولكن الرياح كانت فى « القش » (أى خلفنا) ، والتيار كان معنا . أما فى عبورنا هذه المرة ، فستكون الرياح الموسمية « المونسون » الشمالية الشرقية فى شدتها ضدنا ، وكذا التيارات البحرية ولقد عرفنا هذا البحر من مقدماته فى رحلتنا الأخيرة إذ تركنا جزيرة بمبا وخرجنا إلى عرض المحيط وكان البحر شديداً لدرجة أن القومندان أمر بإنقاص سرعة السفينة إلى أربع عقد (= ٤ ميل بحرى فى الساعة) .

ظاهرة البحر المضىء : (من تقريرى العام، بالإسكندرية فى ١٥ أغسطس ١٩٣٤) : « وكلما بدت ظاهرة البحر المضىء ، أوقظ أعضاء البعثة ليشاهدوها ويصفوها ويتعرفوا مداها وقوتها ، ويتصيدوا الأحياء المضيئة المسببة لها .

« ولن ينسى أعضاء البعثة ليلة والسفينة على بعد يوم أو يومين من

بومباى ، إذ أوقظوا ليشاهدوا البحر وقد تلألأت أمواجه بأضواء فوسفورية قوية غلبت سواد الليل ، وانتشرت حيث ينكسر الماء ، سواء فى عرض البحر ، أو على جوانب السفينة ، أو حول حبل « البركيتة » المرسل خلف السفينة . وواصلت مباحث سيرها ساعتين (أى نحو ١٧ ميلا بحرياً) حتى قطعت تلك المنطقة البديعة فى ضيائها ، وتركتها خلفها صقعاً منيراً وسط الليل المدلهم » .

اكتشاف سلبي : (من تقريرى العام) «ومن غرائب بعثة مورى أن يكون أوضح اكتشاف لها حتى الآن فى علم الأحياء المائية هو اكتشاف سلبى ، لم تفز منه البعثة إلا بالنزر اليسير من النماذج ، وذلك فى المنطقة المحيطة برأس الحد عند مدخل خليج عمان . فقد دهش أعضاء البعثة أولا من قفر قاع البحر بين عمق ٢٠٠ و ١٨٠٠ متر ، وواصلوا دراستهم للقاع فى جميع الأعماق سواء ناحية الشاطئ العربى (سلطنة عمان) أو الشاطئ الإيرانى (بلوخستان) ، وثبت لديهم وجود نطاق من القاع بين هذين العمقين مقفر إقفارا تاماً من الأحياء . ولما كان لهذا الاكتشاف خطره ، زادت البعثة أعمالها وحددت النطاق اللاحيوى (أزويك) تحديداً دقيقاً .

« نعم إن القاع البحرى المقفر لم يكن شيئاً مجهولا فى بحار العالم . . . ولكن فى مناطق تتميز بوجودها فى بحار مقفلة ، أو لاجونات تركد المياه فيها وتتعفن. أما أن يجد الإنسان منطقة من البحر المطلق حول رأس الحد ، وعند مدخل خليج عمان ، عطلا من الحياة ، فهذا ما لم يكتشف من قبل.. واستطاع البيولوجيون من أعضاء البعثة تعليل تلك الظاهرة . . عندما اتجهت أفكارنا إلى أننا على مقربة من منطقة آبار البترول التى تستثمرها الشركة الإيرانية البريطانية ، وأرسلت البعثة استفهاماً إلى قومندان ميناء مسقط (سلطنة عمان) . . . فجاءت إجابته معززة لرأى البعثة . إذ ذكر أن قد لوحظت

منذ سنوات طفحات زيتية كبيرة منتشرة على سطح الماء ، لم يجدوا لها تعليلا ظاهراً . . . » .

لاحظ تاريخ هذا الاكتشاف (فى الرحلة بين كراتشى وبومباى نوفمبر – ديسمبر ١٩٣٣) وعلاقته بكشوف البترول فى ربع القرن الأخير ، ومطامع البريطانيين فى الجنوب العربى المحتل . إنما فى ذلك التاريخ البعيد لم يكن البترول حديث الخاص والعام ، والظاهرة التى لاحظناها تشير إلى قيعان غنية بالنفط .

الحالة النفسية : (المذكرة الرابعة من بومباى فى ١٢ ديسمبر ١٩٣٣)

« والآن وقد اجتزت صعوبة الشهرين الأولين ، فإنى أستطيع استعراض الماضى فى هدوء ، فيزيد اعتقادى بأن إعارة سفينة مصرية لبعثة أجنبية فى مثل هذا الظرف كانت خطوة جريئة وضع فيها احتمال المصريين ورزانتهم تحت اختبار دقيق . فلو أننا فقدنا لحظة واحدة تلك الرزانة أو ضعفت قوتنا النفسية لكانت النتيجة سيئة على سمعة البلاد .

(المذكرة الخامسة من ممباسة فى ٣ يناير ١٩٣٤) : « وليس لدى ما أزيده عما ورد فى مذكرتى السابقة من تحسن الحالة بوجه عام ، وتوطد علاقات المودة بين الضيوف والمصريين ، وتزايد النتائج العلمية للبعثة ، مما جعل الجميع يستبشر بما سيكون لها من أثر فى عالم العلم .

« وكنت أعتقد أنى اجتزت أصعب نواحى مهمتى ، ولكنى وسط السرور بما وصلنا إليه ، رأيتنى أعالج مسائل خاصة بالطاقم ، ربما كانت عارضاً يزول . وأسرع فى أن أطمئن المصلحة من جهة طاقم الكويرته ، فالصعوبات التى اجتزناها نشأت فى الشرك . فقد حدث أن الفحم الذى موننا به فى بومباى كان رديئاً ، وأنهك « الاتشجية » قواهم فى محاولة رفع البخار إلى الدرجة المطلوبة دون كثير جدوى . وقد فل ذلك من عزائمهم ، وسبب شيئاً من الارتباك فى الشرك (غرفة الآلات) أثناء

رحلة بومباى — ممباسة » .

ما لم أقله هنا هو حدوث ذلك فى رمضان وقد صامه المسلمون جميعاً وعادت إلى ذكريات طفولتى وما كنت أسمعه حولى من « ضيق خلق الصائم » . فقد رأيت الوقاد (الاتشجى) يخرج من غرفة الآلات فى قاع السفينة ، إلى الهواء الطلق على سطحها ... فيشتم ، دون سبب ، أول من يقابله من البحرية أو الاتشجية .

جمعت الشمل ودعوت إلى السلام والمحبة ديدننا فى الرحلة ، فما أولانا بهما فى الشهر الفضيل . ثم انتقلت نقلة سحبان من الوعظ إلى الغضب والتحدى الصريح : اللى مش قد الصوم ما يصومش ، واحنا يا اخوتنا على سفر ، والدين يسر لا عسر . فلا عذر بعد الآن لمن يلتمس فى الصيام ذريعة ليعارك دبان وشه !

وفى سوق ممباسة واتتنا الفرصة لنتمون بكل ما يشتهيه الصائم من مأكولات مصرية . وكان شهر رمضان فى البحر من أسعد أيام الرحلة ، أعادنى إلى سنوات الحداثة فى أحيائنا الوطنية .

ترقيات المجاهدين : «المذكرة الخامسة من ممباسة فى ٣ يناير ١٩٣٤ :

« ولما كانت أعمال الجميع تقع تحت نظرى ، كما أنى مطلع على حالتهم النفسية ، وتساؤلهم إلى أى حد تفكر المصلحة بمكافأتهم على مشاقهم التى يصعب وصفها ، فإن رجائى أن تكون الوزارة مستعدة لقبول التوصية بترقية المجيدين منهم فى أول فرصة . أما أن ينتظر الجميع بعد عودتهم شهوراً ليبلغوا بعدها بأن الحالة المالية تسمح أو لا تسمح بترقيتهم ، فإن ذلك سوف يكون له أسوأ الأثر فى نفوسهم . هذا وقد قررت كلية العلوم ترقية مندوبها الأستاذ عبد الفتاح محمد ، وعرف الجميع على ظهر الباخرة بأمر هذه الترقية

« لذا أرجو أن تمهد المصلحة منذ الآن السبيل إلى مكافأة رجالها الذين

جاهدوا وسط المحيط تسعة أشهر ، فى أشد الظروف حرجا ، مجازفين بصحتهم وراحتهم وحياتهم فى سبيل رفع شأن مصر ، ورفع علمها بين أعلام الدول التى قامت ببحث البحار ، وبدء صفحة جديدة فى فى حياة البحرية المصرية . . أقول إنه إذا لم تتخذ المكافأة هذا الطريق العاجل . . فإن الحكومة سوف تضيع فرصة من أعظم الفرص لبعث روح النشاط فى نفوس جميع موظفيها ».

وتعليقى على هذا الآن : ضيعت الحكومة الفرصة ، ولم تصنع شيئاً أكثر من الترقيات الشرفية !

ثم أختار من السجل الرسمى بعض ما شهد به رؤساء البعثة فى كمبردج ، والإسكندرية :

من خطاب الكابتن ماكنزى : ربان «مباحث» إلى مدير عام مصلحة السواحل ومصايد الأسماك :

« أود أن أعبر عن سرورى البالغ بكتابة هذا التقرير ، فإن خدمات الضباط والبحارة قد بلغت مستوى عالياً من الكفاية ، وحافظت على التقاليد التى تشرف العلم المصرى فى البحر ، وفى الموانى التى زارتها « مباحث » . وإنى لأعتبره شرفاً عظيماً أن خدمت تحت هذه الراية ، وأن اشتغل بإمرتى أمثال هؤلاء الضباط والبحارة الأكفاء » .

ومن خطاب الكولونيل سيويل رئيس البعثة :

«قبل أن أبارح القطر المصرى أتشرف بأن أقدم لسعادتكم بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن لجنة البعثة فى كمبردج ، تشكراتنا للمساعدات القيمة التى قدمتموها للبعثة أنتم ورجال مصلحتكم .

« وكذلك أود أن أضيف شكرى الشخصى للخدمات التى أداها الدكتور حسين فوزى الموظف بمصلحتكم ، إذ كان ذا فائدة عظمى للبعثة ، وهى مدينة له ، لا بمساعدته فى الناحية العلمية فحسب ، بل بقيامه

بمهام طبيب البعثة على وجه يدعو إلى الإعجاب » .

من حديث للبروفسور جاردنر : رئيس لجنة البعثة فى كمبردج إلى مراسل « الأفريكان وورلد » :

« . . . إن الرحلات الطويلة فى المحيط ، وكانت تستغرق كل رحلة منها ثلاثة أسابيع دون الرسو فى أحد الموانى ، من الاختبارات الجديدة بالنسبة للبحارة المصريين الذين شرعوا فى القيام بمهمتهم والأحوال الجوية سيئة فى البحر الأحمر ، وقد عجزت آلات التبريد عن القيام بمهمتها فلم تك هناك أطعمة طازجة ، ولكن رجال البحر المصريين ألفوا هذه الحالة ، وكانوا من أحسن البحريين ، وكان الضباط المصريون مضرب الأمثال لغيرهم .

« وأظهر اثنان من المصريين العلميين بالباخرة مهارة فائقة ، وهما الدكتور حسين فوزى مدير الأبحاث بمصلحة السواحل والمصايد ، الذي اشترك فى كل شيء ، والأستاذ عبد الفتاح محمد من كلية العلوم بالجامعة المصرية ، وقد قام بالتحليلات الكيميائية التى يتوقف عليها الشيء الكثير » * .

ومن حديث للأستاذ نفسه مع مراسل صحيفة « الأهرام » بالجزر البريطانية :

« ومضى الأستاذ يشرح لى كيف أن عالم العلوم مدين لمصر التى قدمت لنا الباخرة وملاحيها . وهنا أطنب البروفسور جاردنر فى إطراء الملاحين المصريين ، وطريقة تكيف أنفسهم طبقاً لأحوال مستجدة عليهم تماماً . . إلخ ، ومع هذا ظلوا مبتهجين وحافظوا على مقدرتهم وبرهنوا على كفاءتهم طول الوقت .

« وقد ذكر أيضاً الخدمات الجليلة التى قام بها الدكتور حسين

---

* المرحوم الدكتور عبد الفتاح محمد، وكيل جامعة الأسكندرية الأسبق.

فوزى مدير إدارة أبحاث مصايد الأسماك ، والأستاذ عبد الفتاح محمد من كلية العلوم بالجامعة المصرية الذى أدى أعمالا قيمة فى التحليل الكيميائى وما إلى ذلك » ثم قال :

« وإنى أعتقد أن هذه الرحلة ستؤثر تأثيراً كبيراً فى سيرة الدكتور فوزى ، وحياته فى المستقبل » .

وأختم بآخر صفحة من مذكراتى ، وهى المذكرة العاشرة المكتوبة بالإسكندرية فى ١٠ يونية ١٩٣٤ ، بعد أسبوعين من عودتنا :

« أكتب هذه المذكرة للتاريخ ، فلست أضيف جديداً إذ أنوه بالحالة النفسية العالية التى كان عليها الجميع ، وقد شهدت المصلحة ذلك عياناً . ولا أعود هنا إلى امتداح سلوك الجميع ، فقد سبقتنى شهادة الضيوف ، ولا أزيد عليها إلا أن أهنئ المصلحة برجالها ، وبحسن اختيارها لتلك المجموعة ، وكانت مثلا أعلى للنظام المحكم ، والسلوك الحسن ، وسلامة الطباع ، مع الشجاعة النادرة :

« وإنى وقد انتهيت من تلك المهمة الدقيقة الشاقة التى أسندت إلى ، لأشعر براحة نفسية عظيمة ، وهى راحة من أدى واجبه كاملا نحو بلاده » .

من حياة الآخرين

أتساءل وأنا أستأنف كتابة هذه « الرحلة حول نفسي » — تذكرني بالجرو يطارد ذيله ! — ماذا أختار منها وما أهمل ؟ لأنني لا أكتبها لنفسي ، وإنما للقارئ ، ولهدف أهم وأبعد من مجرد استعراض بعض أدوار حياتي . وحياة الإنسان اختصرها المؤرخ إلى كلمات خمس فى الأسطورة المعروفة : بعد أن دخل على الملك يخبره بانتهائه من كتابة تاريخ الإنسانية فى مجلدات مكدسة ببابه تحملها ظهور الإبل ، والملك يطالبه بالاختصار ، أعواماً تلو أعوام . . إلى أن حضرت العاهل الوفاة ، وهو يحض مؤرخه على الإيجاز ، فأدلى إليه المؤرخ بما يشبه أن يكون « بهريز » تاريخه : ولد الإنسان وكافح ثم مات !

وأوضح أننى ربما اخترت ما يبدو لى حاسماً فى مجرى هذه الحياة . وما عرفت شيئاً يجسم الحياة فى مصر ، بل يقصم ظهرها ، أشد من البيروقراطية . لذلك كان عجباً عجاباً — حملته على محمل السحر — أن تهز البيروقراطية طولها فتخلى الطريق أمامى قبل نهاية عام عودتى من البعثة .

ولقد حدث فى شبابنا أن أعطينا صنوفاً من « الاستقلال الذاتى » على أيدى اللوردات ملنر واللنبى ، وذلك البريطانى الكريه الذى رأيته مرة واحدة فى حفل جامعى ، وشهدت موكب سيره مرات على كورنيش الإسكندرية تتقدمه الموتوسيكلات بالصفافير ، فأحسست أن معاهدة الشرف والاستقلال « أونطة » ، وأننا ما زلنا شخوصاً بمسرح العرائس تحركنا خيوط المستعمر العاتى من دار بقصر الدوبارة ، وهو أشبه

بجراب الحاوى يخرج منه ذئب اسمه « القنصل الجنرال » ؛ ثم يغير جلده ويخرج فى صورة « المندوب السامى » ؛ وأخيراً باسم السفير البريطانى ، والذئب هو الذئب .

لا شك أن السنوات التى جاءت فى أعقاب ثورة ١٩ كانت فترة تقدم وتطور ، فلقد استطاعت الروح المصرية المشرئبة إلى التحرر والتطور ، أن تتقدم خطوات فى طريق استقلال غير ملفق . ومهما قيل عن الجامعة المصرية ومنشئها ، فهى بنت نبت إرادة الشعب المصرى ، قبل ثورة ١٩ وبعدها . ومهما قيل عن بنك مصر ومنشئه ، فماذا كان فى وسع طلعت حرب أن يصنع لو أهمل الشعب المصرى دعوته ، وتركها ترن صرخة فى واد ؟

لم يتحرك الاقتصاد القومى وحده ، ولا الديموقراطية بمعناها اللبرالى بل تحرك العلم والفكر والأدب والفن ، فارتاد العلماء ميادين الكشف والبحث ، وامتدت آفاق الصحف إلى السياسة العالمية ، تنير بصائر الرأى العام كما يسدد خطواته فى طريق الوعى الاجتماعى ، ويتعلق بأسباب الديموقراطية الصحيحة على ضوء كشاف من الحرية .

تحول رجال القلم عن أدب الشكل والمقامات وشعر المناسبات ، إلى الإبداع الفنى فى مسالك جديدة على الأدب العربى ، كالقصة والتمثيلية والشعر الوجدانى الشخصى والفلسفى ، والنقد .

وانتقل الفن التشكيلى من الزخرف التقليدى إلى التصوير والنحت والحفر ، وكانت فى طفولتنا من المحرمات .

وحتى فن « المَغْنَى » : حتى الموسيقى بدأت تتحرك من مكانها فوق التخت إلى المسرح ، وفى صور مجددة لما عرفه المسرح الغنائى أيام الشيخ سلامة حجازى .

كان هذا وغيره ملحوظاً فى السنوات التالية لثورة ١٩١٩ ، إلى حين

سافرت البعثة آخر عام ١٩٢٥ . وقطع البعد عن البلاد فى خمس السنوات التالية ما بينى وبين متابعة تلك التحركات.

فكيف وجدت بلادى بعد عودتى فى مطالع الثلاثينيات ؟.

لم يكن من الصعب على القادم من بعيد أن يتبين النكسة التى أصيبت بها مصر ، وكنت ألحظ بعض آثارها فى القليل مما يكتب عنها فى الجرائد الأوربية ، وبخاصة بعد وفاة سعد زغلول ، بل أستطيع الإشارة هنا إلى شعورى قبل سفرى بأن هذا الزعيم الكبير فقد ديناميته بعد مقتل السردار . فلست أنسى صورة الشيخ الجليل بملابس التشريفة الكبرى فى جنازة السير لى ستاك ، وقد انحنت قامته المديدة ، ونكست تلك الرأس تحت وقر الحادث .

ساعدت على النكسة ، وزقت عجلاتها ، الأزمة الطاحنة التى تردى فيها العالم منذ انهيار سوق المال فى وول ستريت بأمريكا ، عام ١٩٢٩ .

عدت لأجد الدستور « الفضفاض » معطلا ، بل فى طريق الإلغاء . وإسماعيل صدقى بصدد تفصيل دستور مخندق محزق ، أجرى فى ظله المظلم انتخابات لم يدمغها كاتب بمثل ما فعل توفيق الحكيم فى « يوميات نائب فى الأرياف » .

عدت لأرى الملك مسيطراً تماماً على كبار العلماء ، وعلى « مسرح العرائس » لاضمن المسكين بالخيوط فى طنف قصر الدوبارة ، ولكن فوق خشبة المسرح ذاته ، وإن فى دور « مولانا الملك المعظم حفظه الله ».

لست هنا بصدد كتابة تاريخ سياسى . كل ما أريد قوله هو إحساسى بأن البلاد تتعثر فى طريق التقدم والتطور ، وقد دبت فيها عوامل التفرقة والفشل ، فلم تدع لها فرصة اتخاذ الخطوة التالية التى تحتمها ثورتها الشعبية الكبرى ، وهى الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية ، والمساواة

الاقتصادية ، على أساس التقريب بين الطبقات .

عدت والمسرح يعانى سكرات الموت ، ما عدا الهزليات الماجنة والاستعراضات الكباريهية . والسينما لم يكن لها وجود مصرى قبل سفرى ، فإذا هى موجودة ، والعدم خير منها . وسمعت الإذاعات الأهلية ، قبل أن تتسلمها شركة ماركونى ، باتفاق مع الحكومة (١٩٣٤) ، فإذا هى بذاءة ما بعدها بذاءة ، ومواعيد غرامية تضرب عياناً بياناً على موجاتها المتضاربة ، تحت ستار ما يطلبه المستعمون . والمستمعات ؟ من الأغانى ، أجارك الله . تخرج زاعقة مهولة من محطات إشى فى دكان ، وإشى فى بدرون ، وإشى من فوق السطوح !

أما الموسيقى التى كنت أتوقع تحررها من ربقة الأساليب العتيقة ، فقد عادت إلى التخت ، بصورة مجددة ، نعم ، ولكنها حادت عن الطريق الذى شقه لها الشيخ سلامة حجازى .

وعلى الرغم من كل هذا التفاشل والتراجع ، فإن الفكر لم يتوقف ، والإنتاج الأدبى والفنى لم يتقهقر ، ومدرسة المصورين الرواد ذات حيوية وبهجة ، تسلم الشعلة بجيل تضطرم نفسه بسعير الثورة ، وسنلاحظ هذه الظاهرة دواماً ، حتى اندلاع لهيب الحرب العالمية ، وخلالها ، وفى أعقابها حتى انفجار ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . لأن الفكر لا يقف أبداً فى شعب ناهض ، والكبت والكبح والجور ترهف المشاعر .

كان خروج طه حسين من الجامعة ، واشتغاله بالصحافة ، ومواصلة كتابة روائعه الأدبية والتاريخية والاجتماعية من أهم ظواهر المقاومة الفكرية لما أصاب البلاد .

فى الثلاثينات خرجت طلائع الجيل التالى لجيل طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل ، وأكثره من تلاميذ طه حسين بالجامعة ، وبعضه من فلول « المدرسة الحديثة » ، مدرسة الثورة الفنية والأدبية .

ولكن واحداً من هؤلاء كان يتحرك فى الخفاء بخطى السنور ، ليفاجئ قراء العربية بعمل يزاوج بين الفلسفة والفن والأدب ، يعتبر أول كتابة عربية للمسرح يعتد بها فى عالم الأدب الرفيع. الكتاب هو « أهل الكهف » والكاتب هو توفيق الحكيم .

كان توفيق الحكيم « مفاجأة سارة » لطه حسين ، ومذهلة للقراء . ولكنه لم يكن مفاجأة أبداً لمجموعة أصدقائه الخلصاء .

ومن حق صداقتى للكاتب الكبير أن أقص ما جرى بالتمام والكمال على « أهل الكهف » قبل أن يخرجوا للقراء جميعاً . فقصتهم كما دبجتها يراعة الحكيم الساحرة ، كتاب هام جداً فى تاريخ الأدب المصرى والعربى.

يظن أغلب الناس أن الشهرة هبطت على توفيق الحكيم « من الزرقاء » وبفضل مقال رنان لطه حسين ، نشر بمجلة « الثقافة » فى شبابها الزاهر . ولا أحسب أستاذ الجيل (بعد لطفى السيد) تحمس فى دراساته الأدبية لكاتب معاصر مثلما تحمس لتوفيق الحكيم بعد قراءة « أهل الكهف » . طه حسين المتحفظ فى كلامه ، والمتأنق فى تزمت . . لم يجد فى كتاب توفيق الحكيم موضعاً للتحفظ ، فرمى بالأناقة والتزمت وراء ظهره ، واندفع بكل قلبه يمجد الكتاب . وفى هذا دليل — إن احتجنا إلى دليل — على صدق وطنية الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين ، وتفانيه فى خدمة قضايا الفكر والفن فى مصر والعالم العربى ، وانتصاره لكل من أخلص للفن وأجاد البناء والإبداع .

وأنا أزعم بأن توفيق الحكيم ،حتى ولو لم يسافر إلى أوربا فى خريف سنة ١٩٢٥ ، بمقال طه حسين ، وبغير مقال طه حسين ، كان مقدراً لاسمه أن يرتفع فى فلك الأدب والفن ، وإن فى هوادة . فقد بدا فى العشرينات كاتباً رشيقاً ، وشاعراً زجلياً ، يؤلف القصص الغنائية ، والكوميديات الاجتماعية ، فتلحن وتمثل وتغنى على مسرح الأزبكية ،

بواسطة شركة التمثيل العربى ، التى ألفها طلعت حرب .

بيد أن إقامته فى باريس أضافت بعداً جديدا إلى ملكاته ، لا يتنبه إليه النقاد عادة ، مكتفين ببعض الحقيقة فى أن توفيق الحكيم عكف على دراسة أدب المسرح بجدية وعمق طوال إقامته فى « مدينة النور » . وبقية هذه الحقيقة هى أن البعد الجديد فى حياة توفيق الحكيم كان « الثقافة » بمعناها الحضارى الواسع :

لقد زاملته فى باريس ، بل كنت مستودع بعض أسراره . كنت أعود من رحلاتى فيدهشنى توغله فى كنوز الحضارة ، حتى صحت به ذات مرة : تذكرنى بأنك ألفت أوبريت « على بابا » ، إذ يبدو لى أنك عرفت كلمة السر إلى كهوف المعرفة ، تلعلط بالصور والتماثيل والموسيقى والأدب والتاريخ والفلسفة . . . والروحانيات !

ولأن الطالب المصرى الذى يرد معين الحضارة الغربية ، عند منابعها الرفيعة ، لن يجد متسعاً للإبداع الفنى حيال تفرغه وانكبابه على التلقى والاستيعاب والانفعال ، فإن توفيق الحكيم كفّ عن « التأليف » بعض الوقت ، أو أخفى عنى محاولاته ، إلى أن وصلتنى منه لفافة فيها قصة تمثيلية قرأتها بإمعان ، ثم أعدتها إليه قائلا : روح يا شيخ ، ده أنا كنت فاكرك مؤلف مسرحى ! فضحك ضحكته الطفولية ، ولا أدرى ما صنع بتلك الطبخة التى شاطت منه ، فيما بدا لى .

درات الأيام ، وعاد توفيق الحكيم إلى مصر ، يكتب لى باكياً على باريس ، وعلى اللوفر والفيوكولومبييه والاتلييه ، ويختص صالة « بليل » بعبرة ، وهى قاعة الموسيقى الكبرى هناك .

وعدت إلى الوطن بدورى لأؤدى ما حدثتك ببعضه فى الفصول السابقة ، وإلى ما سنعود إليه وشيكاً ، فتلقيت منه « لفافة » جديدة ، أثارت منى العجب ، فالدهشة ، فالإعجاب ، لم تكن لفافة هذه المرة ،

بل كانت كراسة ضخمة ، كتب فيها بخط يده قصة تمثيلية عنوانها « أهل الكهف » .

هذا ما عنيت عندما أشرت إلى تحرك توفيق الحكيم فى الخفاء بخطى السنور . فهو فنان انطوائى عجيب ، يجتر الفكر ، ويعتصر الفلسفة ، ويحلل ما يقرأ إلى عناصره الأولى فكراً وأسلوباً وبناء ، ثم يشرع فى إقامة أبنيته الفنية كالنمل الأبيض . . فى الخفاء .

لم تكد دهشتى تخف ، حتى أتبع اللفافة بأختها ، وهى العمل الأقرب إلى قلبى من أعماله ، حتى اليوم ، « شهرزاد » ، تلك القصيدة الفلسفية الرائعة .

انتقل مخطوط « أهل الكهف » من يدى إلى أيدى الأصدقاء بدءاً بالمرحوم الدكتور حلمى بهجت بدوى ، وختاماً بالدكتور محمد كامل حسين ، وصيحات الإعجاب والدهشة ترتفع من قارئ إلى قارئ ، فى تلك « المدرسة الحديثة » التى لا يعجبها العجب ، ولا الصيام فى رجب.

وأشار القاضى محمد طاهر راشد على عضو النيابة حسين توفيق الحكيم ، بوجوب نشر « أهل الكهف » على التو . . وبقية القصة معروفة لمن يعتبرون الثقافة للإنسان كالهواء والماء والغذاء .

قلت أن لا معنى « لرحلة الحياة » هذه ، إن لم تجد فيها الأجيال الجديدة دروساً وعبرة . . وهأنذا أستعير من حياة كاتبنا الكبير درساً كبيراً ، كى يعرف المقبلون على الفنون كافتها ، أن العبقرية قد تنزل من السماء قبساً ، لا مائدة حافلة ، وأنها أولا وآخراً عمل ودأب ، وغوص على أغوار الثقافة الإنسانية الشاملة بكل أمواهها وعبابها وتياراتها ولآلئها .

كيف عدت إلى ممارسة الأدب

قد يتعجب القارئ من تنوع الحياة التي عاشها هذا الإنسان الضعيف متنقلا بين الطب والعلم ، مع كلفه بالفن والأدب. ولعل هذا التنازع بين شخصيتين هو الأصل في شطر حياته الخلقية إلى نصفين متعادلين ، نصف للفروض والواجبات ، ونصف للعشق والهيام ، دون أن يتعدى شطر على شطر ، والأولوية للواجب . لو أن صاحب الترجمة نشأ في الجيل الحاضر لما تردد في اختيار كلية الآداب ، ولو أنه نشأ في بلد أوربي متقدم لوجهه أهله منذ الطفولة إلى الموسيقى . أما وقد اختار القسم العلمي في الدراسة الثانوية ، فلأن المجال في المدارس العليا كان أوسع أمام حامل الشهادة الثانوية العلمية .

ولكنه كان يقرض الشعر ، ويكتب القصص ، ويتنقل بين الكتب في لغته ، وبين الكتب في اللغات الأجنبية التي تعلمها ، ويترجم عن شعرها ونثرها ، ولم تمنعه دراسته الطبية من الانضمام إلى « المدرسة الحديثة » ، والاشتراك في تحرير الصحيفة الناطقة باسمها « الفجر — صحيفة الهدم والبناء » وممارسة النقد الأدبي فيها ، كما مارس النقد الموسيقي في مجلة « السباق » التي كان يصدرها المرحوم توفيق حبيب « الصحفي العجوز » ولم يكن عجوزاً بعد . وتعلم الموسيقى لا على أصولها كما ينبغي ، وإلا لاختار البيانو ، بل على أساس حبه للكمنجة ، وكانت هي والناي أفضل آلات التخت عنده . وعندما انتقل إلى موسيقى الحضارة ، وسمع كونشرتو مندلسون مع أوركسترا بولياكين السمفوني ، وعرف مكانة الفيولينة ، سيدة الأوركسترا ، ذهب يدرس أصولها على الإفرنج ، وواصل قراءة كتب عن الموسيقى أغلبها تراجم وتاريخ .

وهكذا استمرت حياته يتنازعها الواجب والهيام ، دون أن يطغى واحدها

على الآخر ، إلا فى إبان الأزمات النفسية العنيفة ، وقد اجتاز منها واحدة أو اثنتين فى شبابه .

ما أحب توكيده هنا هو أن الرغبات التوسعية فى ميادين الفكر والفن لم تنتقل إلى لا بالوراثة ، ولا بالتقليد والمحاكاة . كل ما فى الأمر أن والدى المتعلم أدرك اتجاهى فلم يقاومه ، فيما عدا مقاومة شكلية أمام الموسيقى . أما صلتى بالإفرنج فلم تتعد تتلمذى على مدرسى الإنجليزية بالثانوى ، ومعلمة الفرنسية ببرليتز ، فمدرس الألمانية ، وكنت أحب من أساتذتى المعلم واسع المعرفة والثقافة ، ولم أعرف من هذا النوع غير اثنين أو ثلاثة أحدهم إنجليزى .

ولكنى بعد ما سافرت إلى باريس ، بحر الحضارة الخضم ، وجدتنى أسبح مع كثير من الناس على شاكلتى ، فرنسيين وأجانب . بل رأيت أساتذتى فى كلية العلوم ، وغيرهم فى كل مهنة ، على صلة بالفكر والفن ، ممارسة ، أو هواية ، أو على الأقل ، اطلاعاً ومعرفة .

ساعدنى هذا الجو الثقافى على الاتزان فى متابعة رغباتى الأدبية والفنية ، مع أداء واجباتى العلمية . لم أندفع مثلا فى دراسة الموسيقى ، بل اكتفيت بتلقى مؤثراتها من حفلاتها ، وما أكثرها فى باريس ، حيث لا تمضى ليلة دون حفلة بقاعات الموسيقى : جافو وإيرار وبليل وغيرها . فضلا عن أربعة أوركسترات سمفونية تعزف يومين فى الأسبوع ، وهى الأوركسترات التاريخية : كونسرفتوار باريس وكولون وبادلو ولا موريه ، عدا ما كان ينشأ فى وقته ، وغير الفرق الزائرة . والأدب لم أتعد متابعة تحركاته الحديثه ، مع الرجوع دائماً إلى الأعمال الأساسية فى تاريخ الفكر الإنسانى . كما عنيت بزيارة المعارض ، والمتاحف زيارات منتظمة تدعمها قراءة النقد فى الصحف الفنية ، والاطلاع على كتب تاريخ الفن .

بيد أن عودتى من البعثة ، واضطلاعى بمسئوليات الإشراف على

الثروة المائية جعلتني أنصرف بكلياتي إلى عملي فلا أكاد أجد وقتاً لممارسة أدبية أو فنية ، فيما عدا القراءة والموسيقى .

ومع ذلك فقد كان صديقي الدءوب توفيق الحكيم آخر من يصدق بأني رجل علم ، وظل زماناً طويلاً يعتقد أن حكاية « العلم » عندي أكذوبة مفضوحة ، وخداع نفس عن ميولها واستعدادها الفني والأدبي .

أقول الدءوب لأنه حتى بعد أن تخلى عن ريبته في إخلاصي للعلم ، لم يفقد الأمل في أن يعود بي إلى ميدان الأدب والفن .

وحدث في الثلاثينات أن الأخ أحمد الصاوي محمد شرع في إخراج مجلته ، واعتمد فيها على شعبيته الكبيرة لدى الشباب الناهض المثقف ، ثم على توفيق الحكيم الذي بلغ أوج الشهرة ، وسار في طريقه إلى المجد الأدبي . راح الصاوي بكل الوسائل يستغل في توفيق الحكيم شخصيته العجيبة المميزة ، فيضيف إليها من عندياته ألقاباً ونعوتا تجتذب إليه العنصر الهام جداً في شعبية الصاوي ، ويتألف من « بنات اليوم » في أول عهد خروج الفتاة إلى أجواء الحرية والثقافة . والمغامرات العاطفية . وكانت لمسة عبقرية من الأستاذ الصاوي أن يذيع عن توفيق الحكيم ، الوديع الأليف ، الذي ينبض حباً للبشر بجنسه ، أنه « عدو المرأة »

وكنت قد عدت من المحيط الهندي وقد أكسبتني رحلتي البحرية بعض الشهرة ، لاأساس لها أكثر من واقعة خروج سفينة مصرية صغيرة بطاقمها ، وعليها بعثة أجنبية كبيرة ، إلى البحار البعيدة ، ومما حازته الباخرة « مباحث » من سمعة خارج البلاد في عالم الكشوف البحرية . فاجتمع رأى الحكيم والصاوي على تجنيد حسين فوزي للمجلة الجديدة ، وقد سماها « مجلتي » بحكم أنه منشئها وصاحبها وناشرها ورئيس تحريرها ومدير إدارتها ومطبعتها وإعلاناتها .

لم أك أقضي يوماً أو أياماً بالقاهرة دون أن أحل ضيفاً على الصاوي

أمضي معه ومع الحكيم سهراتنا الشتوية فى مطعم فاخر . . على حساب « مجلتى » . ولم أر مناصاً من إمداد المجلة بمقالات كان كل أجرها تلك العشوات القاهرية . فما كان أبعدنى عن التفكير بأن أتقاضى مالا على عمل لا يمكن بأى امتداد للفكر اعتباره من أعمال تخصصى . فلم أك أكثر من هاو طيارى ، يستسلم لصديقين رغباً أن أشاركهما فى عملهما الذائع .

من يدرى ؟ ربما كانت عودتى إلى الأدب مصدرها خجلى من أن أكون الضيف الدائم على الأستاذ الصاوى . . دون مقابل .

ولأن انصرافى الجاد إلى عملى العلمى ومسئولياتى الإدارية ، لم يكن يسمح لى بمعالجة الأدب طويل النفس من ناحية « الإبداع والخلق » ؛ فقد تلمست الطريق الأيسر والأقرب إلى خبرتى . . وهو كتابة الرحلات بالطريقة الأدبية الحديثة ، أى بالصور العابرة واللمحات السريعة ، وتداعى الأفكار والتأملات ، تبعاً لما عرفته من مطالعاتى المفضلة لأدب الرحلات ، والمعاصر منها بخاصة .

ولم أك أتصور أن تجرنى انطباعات الرحلة ، خارج العلم والبحث ، إلى أبعد من بضع مقالات . ولكنى أحسست فجأة بأننى فى سبيل تأليف كتاب ، فحرصت على أن أتابع موافاة كل عدد من أعداد « مجلتى » بفصل من فصول رحلة المحيط الهندى ، حتى بعد أن هبط توزيع المجلة ، واسمر ورقها ، وذبلت أغلفتها ، ووحلت « الباخرة التى تسير » وخسر فيها الصاوى بالرغم من شعاره الرنان « أنت مع الصاوى تكسب دائماً » . . ولقد صدقت هذه الكلمة معى على الأقل ، فقد كسبت مع الصاوى أول كتاب لى وهو « سندباد عصرى » .

وتولى توفيق الحكيم أمرى فى شراء الورق ، كما قادنى من يدى إلى صاحب مطبعة لنتفق معه على طبع الكتاب . وكانت تجربة جديدة

على ، أنا عاشق الكتب منذ نعومة الظفر . عرفت فيها قطع « جاير الجاير » وورق الكوشيه ، وأنواع الأغلفة ، ثم اصطحبنى المرحوم محمود طاهر لاشين (رائد من رواد القصة المصرية) إلى الخطاط حسنى ليكتب لى عنوان الكتاب ورءوس فصوله بخط فارسى جميل . وكانت فرصة أن أتعرف على أولاده الصغار ، وأستمع إلى غنائهم العذب وعزفهم على تختهم الظريف بمنزل الخطاط الكبير .

ولقد نجح كتابى الأول نجاحاً أدبياً غير منتظر . أما من الناحية المادية فقد اكتشفت سرقة عامل من عمال المطبعة ، اتفق مع عامل من عمال مكتبة كبيرة على طبع عدد من النسخ زيادة عن العدد المتفق عليه مع صاحب المطبعة . وقدرت العدد الزائد بنحو مائتين أو ثلاثمائة نسخة .

وكما تولى توفيق الحكيم أمرى فى الطبع ، فقد أدى واجب الصديق الكريم عندما أفرد للكتاب مقالاً من مقالاته الممتعة فى « الرسالة » أو « الثقافة » لا أذكر أيهما ، تحت عنوان « من البرج العاجى » أو « تحت المصباح الأخضر » .

وعرفنى الدكتور طه حسين عن طريق « سندباد عصرى » ، وقد كتب عنه مقالاً أعتز به ، بالرغم مما أخذه على فيه من الهبوط إلى لغة الأزقة ، وقد صدمته طريقتى فى الخروج عن « أدب اللغة » ، مثال ذلك ما جاء فى الفصل الأول عن أسطورة « مانجوبير » ، حول بركة ماء بضواحى كراتشى يعيش فيها عدد من التماسيح . قلت :

« كانوا أربعة من الأولياء : مانجوبير والقلندين لال شاه باز ، والشيخ فريد ، والشيخ بهاء الحق ، اجتمعوا يوماً ليتناقشوا فى الكرامات .

« ضرب مانجوبير الأرض فتفجرت عن ماء بارد ، وضربها شاه باز فتفجرت عن ماء ساخن . وأخرج الشيخ فريد مشطاً وأخذ يمشط شعره ،

فكان القمل المتساقط منه يتحول إلى تماسيح بمجرد سقوطه فى مياه مانجوبير .

« أما الشيخ بهاء الحق فحين رأى باب الاجتهاد أقفل إطلاقاً ، فقد أخرج من عبه حفنة من نوى البلح ، وطفق يزرعها فى الأرض بكل بساطة وهدوء ، وكأنه يقول ، ويختص بالقول زميله الذى حول صئبانه إلى تماسيح ،: أيا كانت كرامتكم أيها الزملاء ، فهى لا تعدل قدرته تعالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلا يحمل للأجيال القادمة رطباً شهياً .

« وإنى لأشارك سيدى بهاء الحق هذا التفكير العالى ، ولو أن طبعى الحاد يودنى أن ألتفت إلى شيخ القمل فأقول له : إتفخس عليك ولى ! »

قال الدكتور طه فى أول لقائى به : لقد قسوت عليك ! فأجبته : لقد شرفتنى بغضبك ، كما أسعدتنى بحدبك ، وشهادتك لى بجمال الأسلوب وامتلاك أعنة اللغة . وستعرف عنى نوعاً من الشقاوة أداعب بها اللغة ، فألوى رقبتها بلطف ، كما يلوى الحبيب رقبة حبيبته . لا ليقصفها ، بل ليقبل فمها . وتأفف الدكتور طه فى لطف وأدب ، وقد بدأ يدرك أنه حيال « ثمرة » أدبية يرجى منها .

أما الأستاذ الصاوى محمد فقد احتفظ بصمته حيال الكتاب ، ولم يشر من بعيد أو قريب فى « الأهرام » إلى كتاب نشر أكثره فى مجلته . لم يغضبنى ذلك منه ، فإن صاحب « ما قل ودل » ، محبوب القراء والقارءات رفض أن يتحدث عن كتاب ينعى صاحبه على الشرق تخلفه ، ويشيد بحبه وإعجابه وإيمانه بحضارة الغرب .

نجاح الكتاب أو عدم نجاحه لم يؤثر فى نفسى بأكثر من أنه تجربة جديده فى المعرفة — وهذه من شأنى — وتجربة فى سوق الأدب — ولم أسع فى أن يكون لى بها شأن .

عرفت أنى مستطيع تدبيج الفصول الأدبية بين الآونة والأخرى دون أن يؤثر ذلك فى عمل الأساس بحال . وكان هذا هو الأصل فى الفصول التى نشرتها بمجلة الدكتور طه حسين « الكاتب المصرى » والتى تألف منها ومن غيرها كتاب « سندباد إلى الغرب » ، إتماماً لما أشرت إليه فى تقديم « سندباد عصرى » من تمسك بحضارة أوربا .

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، وانحازت إيطاليا إلى جانب المحور ، اضطررنا لإخلاء معهد الأحياء المائية بقايتباى من كل أدوات العمل ، من ملفات وكتب وأجهزة علمية (بسبب تعرض المعهد للغارات الجوية على الإسكندرية) وبقينا فى المعهد لمجرد تصريف الشئون الجارية فوجدت متنفساً من الفراغ العلمى فى دراسة عربية هامة للمعارف والأساطير والقصص البحرية عند العرب ، انتهيت منها قبل تعيينى بجامعة الإسكندرية لدى إنشائها ، ونشرته فى مطالع عام ١٩٤٣ بعنوان « حديث السندباد القديم » . وفى هذا الكتاب يتضح لمن يتجنون ويعيبون على تعلقى بحضارة أوربا ، أن كلفى هذا لايعنى انفصالى عن الحضارة العربية فى عصور ازدهارها . وهاكم السندباد القديم دراسة خاصة وضعت فيها خبرتى بالبحر وعلومه ، وبالآداب البحرية ، فى خدمة ناحية من الحضارة الإسلامية ، ربما كنت من أصلح الناس ، وأقربهم إليها .

وكيف عدت إلى ممارسة الموسيقى

لم أخرج من أزمة نشوب الحرب العالمية الثانية — وأحسب أن الوقت لم يحن للكلام عليها — إلا إلى الانشغال بإنشاء كلية العلوم ومعهد الكيمياء الصناعية بجامعة الإسكندرية . فعندما انتهت الحرب ، وانقضت سنوات عمادتي عام ١٩٤٨ ، فوجئت بجو من الفراغ لم تملأه أعمالي في إنشاء الدراسات العليا لعلوم البحار « الإقيانوغرفيا » . وإذا بالموسيقى صديقتي منذ مطلع الشباب ، تشير إلى من بعيد ، فأجرى إليها بشوق المحب الوامق عناه الهجران ، وأرقه البعاد .

اندفعت بكل قوى نفسي نحو الموسيقى ، ولكن بما يلائم سني وتجاربي فقد لاحظت أن انصرافي إليها في شبابي كان انفعاليا محضاً . وإذ حاسبت نفسي ، اكتشفت أنني أجهل أسرارها جهلا تاماً . لم أحاول الكشف عن كنهها كفن ، وكبناء ، لسبب واحد ، وهو عدم تفكيري بدراسة التأليف الموسيقى . ما حاجتي إليه ، ولى قلم أعالج به الكتابة منذ المراهقة ؟

كان تساؤلي الجديد : ألا يدرس المرء البناء الموسيقى إلا ليؤلف في الموسيقى ؟ أليست هذه الدراسة لذاتها عملا من أعمال الحب ، وتعمق الوعي والفهم لفن من أصعب الفنون وأعجبها ؟ ثم ماذا أنا محقق من هواية العزف ؟ هل أبلغ يوماً قدرة المحترفين الذين يتفرغون ساعات طوالا للتمرينات اليومية المرهقة ولسنوات كثيرة ؟ لقد استطعت أن أدرك ما يدركه عادة العازف الهاوي ، واشتركت في أوركسترات الهواة بأوروبا ، ثم في أوركسترا كونسرفتوار الإسكندرية وسط المحترفين . وما أكثر



ما شاركت فى أداء موسيقى الصحاب (موزيك ده شامبر) من صوناتات وثلاثيات ورباعيات . لماذا لا أدرس الموسيقى تصميماً وبناء ؟

ولم أعرف حماساً فى دراسة — حتى ولا فى الكشف عن أسرار الحياة المائية — مثل حماسى لهذه الدارسة الجديدة . فقطعت الشوط إلى آخره ، أسبق المحترفين ، وهم السباقون فى العزف ، بل أسابق أستاذى للتأليف الموسيقى ، أنظم برامج دراستى بنفسى ، وأقتنى الموسوعات فى التأليف والتوزيع ، وأكون مكتبة طيبة للمدونات الموسيقية ، ويكون دور الأستاذ الأجنبى ، خريج كونسرفتوار ميلانو ، دور الشارح والمراقب والمصحح لتمريناتى .

يا لهذا العالم المعجب ! تآلف النغمات وتنافرها تؤدى بأسطرها اللحنية المتعددة فى وقت واحد ، وتطور الهارمونيا من البسيط إلى المركب ، وتقابل الألحان فى الكتابة الكونترابنطية ، والانتقال إلى فن الفوجة فى أعمال باخ البوليفونية الشامخة ، ثم فن الصوناتة من أول ظهورها فى صورتها الحديثة على يد كارل فيليب إيمانويل بن سباستتيان باخ حتى برامز وتشايكوفسكى وسيزار فرانك ، مارا بأعمال هايدن وموزار وبيتهوفن وشوبرت وشومان ومندلسون ، عالم السمفونية والكونشرتو والرباعية الوترية وصوناتة البيانو والآلة المنفردة باصطحاب البيانو . أعمال عرفتها وأحببتها وأديت بعضها وانفعلت بها وجدانياً قبل أن أتفهمها على أساس من الدراسة الجادة ، فأنفذ إلى أسرار بنائها ، وتتجلى فى حقيقتها لا كمجرد لذة وطرب وخيال رومنتيكى ، بل كعلم أقرب إلى دراسة الهندسة والفن المعمارى ، بل أقرب إلى الرياضيات منها إلى أى شىء آخر .

أذكر فيما أذكر أننى فى القطار ، أو الطائرة ، أو الأتوبوس الصحراوى ، كنت أغمض عينى ، وأعمل فى ذهنى على تأليف التراكيب الهرمونية وتحويرها والانتقال بها من مقام إلى مقام . . وكأننى فى حلم

جميل . وكانت مطالعتى لكتب الصنعة الموسيقية تشبه أن تكون مطالعة روايات أخاذة ، ذكرتنى بأستاذ رياضة من زملائى ، كان يقضى أوقات فراغه على البلاج يطالع فى كتب الرياضيات !

وما زلت أحتفظ برزم أوراق الموسيقية وفيها تمرينات الهارمونيا والكونترابنط والانفانسيون والفوجة . وما برحت مؤلفات باخ المفوجة ، ومدونات السمفونيات والرباعيات والصوناتات تحتفظ بعلامات قلمى الرصاص تحليلا لعناصرها .

هذا عالم جديد ، ورحلة أشبه بارتياد جبال سويسرا لأبناء السهول . لاتشغلنى عن صميم الموسيقى آلة أحملها على كتفى ، ومعاناة لأداء الأعمال الصعبة بالقوس والأوتار . لقد أضحت الموسيقى عندى تفكيراً هادئاً ، ومدونات أطالعها بعينى فحسب ، وقلم رصاص يخط على الورق اللحن وتنويعاته ، وأستيكة أصلح بها أخطائى وأنا أجرب التصرفات النغمية والانتقالات المقامية .

كل ذلك وأنا معرض — وما برحت — عن فكرة التأليف الموسيقى . لأن خبرتى بفن الكتاب ، ونمو ملكة النقد الفنى ، كانت تحذرنى من ارتياد هذا الميدان . فلا جدوى ، وفى هذه السن المتأخرة ، أن أبدأ التأليف الموسيقى مراهقاً يحبو فى طريق صياغة العبارات والجمل الموسيقية وخدمتها بالهرمونيا والكونترابنط والتوزيع الأوركسترالى .

يكفى أن أعرف ما أردت أن أعرف من أسرار البناء الموسيقى ، وأن أتمكن من مطالعة المدونات الموسيقية كما يطالع الإنسان كتاباً ، فأسمع الألحان بخيالى .

ولقد حل أستاذى صعوبة دراسة البيانو ، وهو ضرورى لأداء التمرينات واستيعاب أثرها على السمع — ولكن أنى أجد الوقت ؟ —

فأشار على باقتناء « هارمونيوم » يسمح بامتداد الأصوات ما شاء العازف. وبشيء من التمرين أستطيع أن أطالع ولو ببطء ما أكتب وما أحل من المسائل الفنية .

ثم قدرت أن قد حان الوقت الذى أستطيع فيه خدمة الفن الذى أحب ، وذلك بتقديم موسيقى الأعلام للمستمع المصرى مع التحليل والشروح التى لم أكن لأستطيعها قبل تلك الدراسات .

فقدمت للإذاعة أول برامجى بعنوان « ديوان الموسيقى الكلاسيك» فى البرنامج العربى العام — ولم يكن لدينا غيره . ولاقيت الأمرين من المتاعب الظاهرة والمستترة فى شكل ألاعيب صبيانية ، كأن توقف إذاعاتى فى رمضان ! أو أمنع من تقديم سمفونية بورودين لأنه روسى (كذا !) ولأنى سمحت لنفسى بالتنويه بعبقرية المدرسة الروسية فى القرن الماضى ؟ !

وعندما زارت مصر الفرقتان السمفونيتان الشهيرتان : فلهارمونية فينا بقيادة كليمنس كراوس ، وفلهارمونية برلين بقيادة فورتفنجلر ، تطوعت لكتابة شرح برامج حفلاتهما بالقاهرة والإسكندرية . وكان هذا العمل نواة لكتابى الصغير عن « الموسيقى السمفونية — دليل المستمع إلى موسيقى الأعلام » .

فى ذلك الزمان قرر لنا الدكتور طه حسين وزير المعارف إعانة سنوية لإنشاء كونسرفتوار الإسكندرية ، الذى توليت رئاسة أول مجلس إدارته ، ولم أتركه إلا عندما دعيت لتولى وكالة وزارة الإرشاد القومى (سنة ١٩٥٥) .

فإذا سرنا بالقصة إلى نهايتها ، وجدتنى بتلك الوزارة مستطيعاً أن أنظم سلسلة أحاديثى الإذاعية بالبرنامج الثانى مساء الجمعة ، أشرح وأحلل فيها الأعمال الموسيقية الهامة للآلات مجتمعة ومنفردة . ولقد قدمت

منذ مايو ١٩٥٧ إلى اليوم (١٩٦٦) نحو ثلاثمائة حديث احتوت على أعمال نحو تسعين من أعلام الموسيقى ، واشتملت على كافة سمفونيات بتهوفن وشومان وبرامز وأهم سمفونيات هايدن وموزار وشوبرت ومندلسون ، وكونشرتوات موزار وبتهوفن وشومان وبرامز ومندلسون ، وجميع رباعيات بتهوفن ، معظم رباعيات هايدن وموزار إلخ إلخ ، ، وطفت بأعظم أعمال موسيقى والحضارة عند أكثر الشعوب الأوربية عناية بذلك الفن ، من عصر باخ حتى القرن العشرين .

ومع أنى عنيت بالمعاصرين الكبار من أمثال سترافنسكى وبروكوفيف وشوستا كوفتش وهونيجر وروسل وفون ويليامز وبارطوك وكوداى وإنيسكو وداريوس ميلو إلخ ، فإننى لم أطرق بعد موسيقى الجيل الجديد وأتردد فى التعرض لها بسبب شذوذها وصعوبة فهمها ، وحتى لو تغلبت على ترددى فإن سوق السجلات لن يسعفنى لقلة المعروض منها فى مصر .

وحرصنا على إحياء وتقويم أوركسترانا السمفونى بفضل قائد نمسوى اشتهر بحسن التدريب ، ودقة الأداء . ولكنه مع شديد الأسف لم يتلبث طويلا بين ظهرانينا .

وأنشأنا الكورال ، ساعين إلى الإعداد لأداء الأوبرات العالمية بأصوات مصرية ، وبدأنا مدرسة الباليه بمعونة معهد البولشوى المشهور وأعددنا العدة لإنشاء كونسرفتوار الموسيقى وأصبح وشيكاً إمكان تأليف فرقة قومية للأوبرا متكافلة متكاملة ، لا سيا وقد تدربت الأصوات الموهوبة على غناء الأدوار المنفردة فى طبقات الصوت المختلفة .

المهم أنى بمعاونة وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، أديت ، وأرجو أن أواصل ، واجباً قومياً ، وهو تقريب موسيقى الحضارة إلى أفهام بنى قومى . ويبدو لى أننا نفذنا إلى وجدان فئة قليلة من المثقفين سيصبحون كثراً

على مدى السنين . إلى أن يجىء اليوم الموعود الذى يدرك فيه جمهورنا الذكى الواعى الفارق بين موسيقى الفطرة وموسيقى الحضارة ، وحينما يتمكن الجيل الطالع من الموسيقيين المصريين من أن يضع اسم مصر فى قائمة الأمم التى ترعى الموسيقى الرفيعة فى الشرق والغرب . مثلما فعل الروس والفلنديون والإسكندناف والإسبان وأهل رومانيا منذ القرن الماضى . تلك أمم عبرت الأجيال ، واختزلت طريق التطور دون حاجة إلى معاناة القرون الستة التى قضتها الموسيقى عند الإيطاليين والفلمنك والفرنسيين والألمان والإنجليز لتنتقل من اللحن المفرد المنفرد ، ومن الأغنية الشعبية والأناشيد الدينية ، إلى تلك التراكيب والأبنية العظيمة التى تمثل قمة من قمم الحضارة وفناً من أروع وأعمق فنون الإنسان .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨